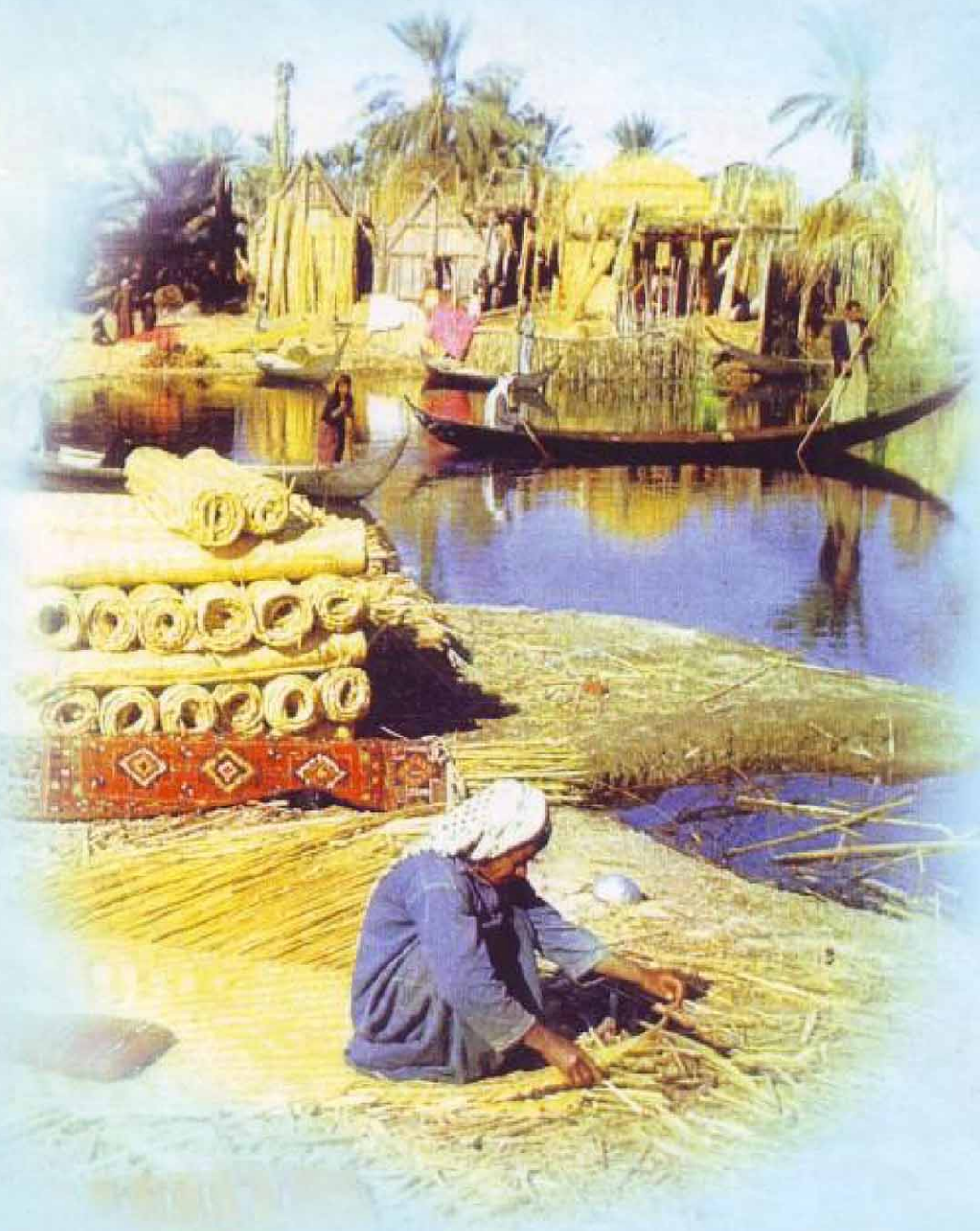


الحاج ركان عرب الأهوار

للمضابط السياسي في منطقة العمارة
فلانين هـجكوك وزوجته



الدار العربية للموسوعات



PDF مكتبة نرجس

[HTTP://WWW.NARJES-LIBRARY.COM](http://www.narjes-library.com)

الحاج ركان عرب الأهوار

الحاج ركا

عَرَب الأَهْوار

تأليف

فلانين هجكون الضابط السياسي
في منطقة المعماراة وزوجته

ترجمة

د. إبراهيم شريف

د. جميل سعيد

الدار العربية للموسوعات

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

٢٠٠٦م - ١٤٢٦هـ

الدار العربية للموسوعات

الحازمية - ص.ب. ٥١١ - هاتف: ٠٠٩٦١٥/٩٥٢٥٩٤ - فاكس: ٠٠٩٦١٥/٤٥٩٩٨٢

هاتف نفاذ: ٠٠٩٦١٣/٣٨٨٣٦٣ - ٠٠٩٦١٣/٥٢٥٠٦٦ - بيروت - لبنان

الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com

البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com



ملاحظة المؤلفين

لقد نشر بعض ما جاء بهذا الكتاب في مجلة Blackwood's Magazine التي صدرت عام ١٨١٧ كما نشر بعض آخر قليل منه في مجلتي The Cornhill Magazine التي صدرت عام ١٨٦٠ and the Near East and India. فإلى المشرفين على هذه المجلات نقدم شكرنا واعترافنا بالجميل. هذا، وتنبغي الإشارة إلى أننا قد استعرنا أسماء خيالية للأحياء من الأشخاص الذين ورد ذكرهم في الكتاب.

مقدمة المؤلفين

يرجع الفضل في القيام بتأليف هذا الكتاب إلى الأنسة جبر ترود لوثيان بيل، فهي التي اقترحت علينا تأليفه، وكانت قد وعدتنا بأن تكتب مقدمة له، ولكن وفاتها المبكرة قد حالت دون ذلك. ولا نملك الآن سوى أن نعترف لها بفضل اهتمامها الكبير بالموضوع وتشجيعها لنا على الكتابة فيه.

القبائل في العراق تختلف كثيراً في تفاصيل عاداتها وتقاليدها بل وفي لهجاتها ومظاهرها العامة، ولكنها مع ذلك، متجانسة في الأسس العامة لتفكيرها وسلوكها. وتتمثل بدرجة كبيرة كل صورة الحياة القبلية في الاتحادين القبليين الكبيرين، ابو محمد وبني لام، اللذين يتحدث عنهما هذا المؤلف.

وتسكن عشائر هذين الاتحادين على جانبي نهر دجلة، فيما بين كوت الإمارة شمالاً وبين القرنة جنوباً. وتتضمن أراضيها صحارى شاسعة يضرب فيها رعاة الأغنام والإبل. كما تتضمن حقولاً خصبة للزراعة. وتتضمن أيضاً أهواراً واسعة غير واضحة الحدود يعيش فيها من يسمون بسكان الأهوار. ولا تكاد صور النشاط البشري في الحياة القبلية في كل أنحاء العراق تختلف عن هذه الصور الثلاث.

والحديث في هذا المؤلف وإن كان يدور حول الاتحادين القبليين

الكبيرين المشار إليهما، إلا أنه يتركز، مع ذلك، حول بعض أقسامهما، وهي الأقسام التي تبدو أقل من غيرها تدرجاً في سلم الحضارة. كما تبدو مجهولة، غير معروفة للكثير من الناس. ولعلنا نستطيع بذلك أن نعطي صورة واضحة المعالم للحياة القبلية بصورة عامة، وأن نتعرف على هؤلاء الناس الغامضين الذين يختلفون كثيراً عنا في وجهات نظرهم وفي دروب تفكيرهم وفي مقاييسهم لقيم الحياة. وعلى الأخص بعد أن ارتبط مصيرهم بنا منذ الحرب العالمية الأولى وأصبحوا على اتصال وثيق بحضارتنا.

ولسوف يلمس القارئ، هنا وهناك، الصعوبات التي واجهتها الإدارة الحديثة في العراق. ومدى التناقضات والميول والأهواء المتصارعة التي كان عليها أن تجابهها بجرأة، وأن تغلب عليها. ويكفي لكي يقدر القارئ مبلغ هذه الصعوبات، ومبلغ ما أنجزته هذه الإدارة من أعمال، ومبلغ العبء الهائل الباقي الذي عليها أن تنجزه، أن يستمع إلى أبناء القبائل وهم يتحدثون على بساطتهم عن الفروق بين العهد الحاضر وبين ما كان في العهد التركي.

وتشكراتي القلبية للأصدقاء من العراقيين الذين ساعدوني بقدر طاقاتهم في إنجاز هذا البحث، سواء منهم من قصَّ عليَّ من قصصه، ومن تحمل بصبر عبء توضيح بعض النقاط أو تأكيدها. كما أعترف بجزيل الشكر لكل من أبدى ملاحظاته الرقيقة والقيمة على محتوى صفحات هذا الكتاب قبل طبعه ونشره.

مقدمة المترجمين

هذا كتاب ترجمة المترجمان سنة ١٩٤٨ ولم يتح له الظهور إلا الآن.

لنسخة الإنجليزية الأصلية لهذا المعرب طابع خاص. وقد استدعت اهتمام المترجمين لها من ناحية الشكل ومن ناحية الموضوع.

فمن ناحية الشكل، اتخذ المؤلف لنفسه تسمية «فلانين». كما أنه كتب الإهداء بخط عربي ثلث غليظ ووجهه «إلى فلانة المحبوبة». وفلانين صورة من صور المثنى لفلان. وليس بين أسماء الإنجليز فلانين أو فلان أو فلانة، وإنما هي كلمات عربية يكتنى بها عن أعلام لا يراد التصريح بأسمائها الحقيقية. فلماذا أخفى المؤلف الإنجليزي اسمه الحقيقي...؟! وما هو؟ وما الاسم الحقيقي لمحبوبته؟ ولماذا استخدم لإخفاء اسمه واسمها كنى عربية، ولم يستخدم كنى إنجليزية؟! والكتاب الذي ألفه، وإن كان موضوعه يتعلق بنا نحن العرب، إلا أنه كتبه باللغة الإنجليزية ليقرأه مواطنوه الإنجليز أولاً وبالدرجة الأولى.

كل هذا جال بخاطرنا للوهلة الأولى. ودعانا إلى بذل محاولات لمعرفة الإجابة على مثل الأسئلة التي ورد ذكرها. وقد تبين أن المؤلف شخصان فعلاً لا شخص واحد - وهما مستر هدجكوك وزوجته - S.E. Hedgecock & Mrs.، وأنهما قضايا في العراق عدة سنوات. وكان

الزوج ضابطاً سياسياً في منطقة العمارة في زمن الانتداب. وكان نشطاً وجوالاً، كثير التنقل في أنحاء منطقته وحريصاً على معرفة دخائلها ودخائل سكانها. كما أنه كان يعرف اللغة العربية ويتحدث بها في كل مناسبة مع السكان^(١).

أما فلانة المحبوبة فعلمها عند الله وسرها في قلب المؤلف أو المؤلفين. ومن المحتمل أن تكون الآنسة جيرترود بيل هذه الآنسة التي وافاها الاجل قبل ان تتوج الكتاب بمقدمتها المنتظرة له، كما اشار المؤلفان هي فلانة المحبوبة، ثم هي بعد هذا علم من اعلام الانكليز في تاريخ العراق الحديث. وأما لماذا كتب الاهداء باللغة العربية، ولماذا كنى بفلانين وهي كلمة عربية أيضاً، فربما كان القصد الاشارة إلى أن المؤلفين يعرفان اللغة العربية. وربما كان وضع «حزورة» أمام عين القارئ الانكليزي ليجتذب انتباهه إلى الكتاب واهتمامه بقراءته. وربما هدف إلى القصدين معاً. هذه ناحية الشكل.

أما من ناحية الموضوع، فلا شك في أن الأهوار وسكانها جاذبة للاهتمام وجديرة به. وعلى الاخص لأنها كانت في وقت قراءة هذا المؤلف في سنة (١٩٤٨) مجهولة لكثيرين من الناس. والمؤلف من ناحية أخرى يبدو قوي الملاحظة بارعاً في تصوير الحقائق والتشويق إليها. ولقد دفع ما أبداه من تصوير بديع للنواحي الجغرافية الطبيعية والبشرية للمنطقة وسكانها المترجمين إلى عقد العزم على زيارتها وتحقيق ما كتبه عنها. وحفزهما على أن يتجاهلا ما حاول بعض الناس أن يجسمه في ذهنيهما من صعوبات وأخطار محتملة تواجههما، أن كان أحدهما يقوم وقتئذ بتحضير

(١) عرف المترجمان الاسم الحقيقي للمؤلفين من قائمة المراجع التي ورد ذكرها في كتاب، A. Wilson; Mesopotamia, vol. I, 1914-1917. O.U.P., 1936. واستيفاء المعلومات الأخرى عن بعض كبار رجال المنطقة عرفاه أثناء زيارتهما لها.

رسالة للدكتوراه عن جغرافية العراق. وكان الآخر يرغب في أن يتصل اتصالاً مباشراً بالبيئة التي خرج منها الكثير من الألحان والأغاني العراقية. وقد كتب أحدهما رسالته وطبعها، وكتب الآخر مذكراته وأذاعها بأحاديث من محطة بغداد، صوّر فيها حياة عرب الأهوار بصورة أزعجت القائمين على الحكم آنذاك فمنعوه من مواصلتها، وعساها تجد الفرصة في القريب إلى نشرها.

لقد أورد المؤلف أحاديثه على لسان الحاج ركان، أحد أعراب الهور وقائد الزورق الذي يركبه المؤلف، ويتنقل به. وجعل الأحاديث من البساطة والسهولة بحيث تتناسب وعقلية الحاج ركان. وقد حرص المترجمان على أن يظهر الحديث بمظهر السهولة والبساطة التي أوردهما به المؤلف.

ونقل المؤلف ألفاظاً محلية لسكان الأهوار ولم يترجمها إلى لغته، وكذلك فعل المترجمان، ولا سيما في ألفاظ السفن والزوارق التي تفتقر إلى التفصيل فيها لغتنا العربية. إنها في منتهى السعة والدقة فيما يتعلق بالصحراء ولكنها ضيقة فيما يتعلق بالبحر والسفن، وحسبك أن السفينة لم تستغرق من مخصص ابن سيده - وهو قاموس رتبته على المعاني لا على الألفاظ كما اعتاد أهل المعاجم - إلا نحو سبع صفحات، على حين استغرقت الإبل جزءاً من سبعة عشر جزءاً من مجموع اللغة. ولعل لفظة «البركش» - نوع من الزوارق - أول ما يطالع القارئ من هذه الألفاظ في هذا الكتاب.

وفي مساء يوم الخميس ٢٨ كانون الثاني ١٩٤٨ ركب الاثنان القطار المتجه إلى البصرة في طريقهما لزيارة الأهوار. ثم غادراه في محطة أور وأخذوا قطاراً آخر إلى مدينة الناصرية. وهناك انضم إليهما زميل هو الأستاذ تقي الشيخ راضي الذي كان وقتئذ مفتشاً بمنطقة المعارف. وقد أفادتنا مرافقته كثيراً. إذ بفضل لباقة وكثرة معارفه ذلل الكثير من الصعوبات التي واجهتنا.

ومن الناصرية ركبنا سيارة إلى سوق الشيوخ. ومن هناك استأجرنا زورقاً بخاريّاً صغيراً حملنا في مجرى الفرات وفي بعض فروعه ثم عجز عن أن يعبر بنا مصب جدول المزلق إلى بركة الحمار. فتركناه، وركبنا في البركة مشحوفاً كان صاحبه يحركه بعضاً طويلة تسمى المردى. ولم نكن مطمئنين إلى ركوبه. فهو طويل نسبياً حقاً ولكنه ضيق جداً. وينبغي لمن لم يعتد ركوبه أن يمسك بجانبه ليحفظ توازنه، إن استطاع. وحمدنا الله أن قابلنا زورق بخاري أصغر حجماً من الزورق الذي ركبناه أولاً. فتركنا المشحوف واستأجرناه. واستمر تحت تصرفنا خلال المدة التي قضيناها في هور الحمار نزور بعض جهاته ونتعرف على سكانها. وفي بلدة الجبايش أسعدنا الحظ بالتعرف على شاب مثقف من خريجي كلية الحقوق، هو الشيخ ثعبان ابن الشيخ سالم الخيون شيخ بني أسد، فصاحبنا بعض الوقت وأفادنا كثيراً من ثقافته الواسعة عن مجتمع الأهوار.

وفي القرنة غادرنا الزورق البخاري واستأجرنا سيارة سارت بنا على الضفة اليمنى لنهر دجلة إلى مدينة العمارة. وهناك غمرنا السيد المتصرف بالكثير من فضله. فقد أعارنا الزورق البخاري الخاص به. كما أمر بفتح بعض أبواب ناظم جدول الكحلاء حتى يرتفع منسوب الماء فيه ويستطيع حمل الزورق إلى أبعد مسافة ممكنة من مجراه. وقد حملنا الزورق إلى مضيف كان به الشيخ عباس ابن الشيخ محمد العربي أكبر شيوخ قبيلة البو محمد. فاستقبلنا بترحاب بالغ وضيافة كريمة عربية. كما تفضل وأبدى رغبته في أن يرافقنا في القسم الباقي من رحلتنا في هور الحويزة، وكان القرار على أن تنتهي عند الشدة. ومن الحديث عرفنا أننا قادمون إلى جهات مجهولة حقاً، يعيش سكانها في داخل أهوارهم بعيدين بدرجة كبيرة عن تأثيرات العالم الخارجي، وربما لم يروا مدنياً يلبس «قاطاً مثل قاطي» كما سمع أحدنا من بعضهم، ولم ير بعضهم من قبل جملاً يشبه الصورة التي أريناها لهم..



المرجمان يتوسطهما الشيخ عباس محمد العريبي: شيخ ابو محمد



المترجمان على ضفاف جدول الأقرع.



في قرية الشدة

ومن بين الأشياء الكثيرة التي لاحظناها والتي تؤيد صدق تصوير المؤلف ناحية الحذر الشديد والخوف من المجهول. فكنا عندما نقرب من إحدى القرى نرى من بعيد أشباح سكانها. فإذا ما اقتربنا منها اختفت الأشباح ويدت القرية خالية منها. ثم لا تلبث العيون المتلصصة من بين القصب أن تظهر، وهي تحاول إخفاء ما تحمله من أسلحة للدفاع، بعد أن ترى بيننا الشيخ عباس، مرحبة أجمل ترحيب بالشيخ وبضيوفه. كما تبدو عليهم أيضاً حالة التعاسة واضحة. ففي قرية الشدة، كان يومنا هناك شديد البرودة، ومع ذلك كان بعض الأطفال عرايا، كما ولدتهم أمهاتهم، وكذلك كان الرجال إلا من «بشت» خفيف من الصوف.

وفي الواقع إن المترجمين وإن كانا ينتقدان المؤلف من بعض النواحي في محاولته التقليل من قداسة بعض أولياء الله الصالحين، إلا أنهما لا يستطيعان بعد أن زارا مناطق من هور الحمار ومن هور الحويزة، التقليل من دقة الكثير مما جاء به وصفاً للاهوار من نواحيها الطبيعية والبشرية.

والاهوار^(١)، كما هي معروفة، مناطق منخفضة من أراضي السهل الفيضي يغمرها الماء بعمق قليل. ومنها ما يبقى مغموراً به طول السنة، ومنها ما يجف كله أو بعضه في فصل الصيف. وباعتبار السهول الفيضية في العالم بصورة عامة، توجد الأهوار عادة في المناطق الدلتاوية عند مصبات الأنهار في البحار. وتفسر أسبابها بأن مثل هذه المناطق تكون مقطعة حديثاً من شواطئ البحار ولم يكمل ملؤها بعد بالرواسب التي تنقلها الأنهار سنوياً في أوقات فيضاناتها. وذلك بالإضافة إلى ما هو معروف عن تأثير الأمواج، وعن أن الأنهار هناك تكون في حالة بدائية.

(١) الأهوار جمع هور، وهو تسمية عامة تطلق على المنخفضات التي تغمرها المياه بعمق قليل يسمح بنمو القصب والبردي. أما المنخفضات المكشوفة ذات المياه العميقة نسبياً فيطلق السكان عليها تسمية بركة أو برجة.

أما باعتبار السهل الفيضي في العراق، فإن ظاهرة الأهوار فيه تبدو بصورة شاذة. وذلك، أولاً، لأنها لا توجد عند مصب شط العرب في الخليج. وثانياً، لأن وجودها لا يقتصر على القسم الأسفل منه، وإنما توجد أيضاً في قسميه الأوسط منهما والأعلى^(١). كما توجد في شرق نهر دجلة، وفي غرب نهر الفرات، وفيما بينهما من أراضٍ.

وقد دفعت هذه الظاهرة الشاذة بعض الباحثين إلى بذل محاولات لتعليلها. وقد أنتجت هذه المحاولات نظريتين مختلفتين، تختلف الواحدة منهما عن الأخرى تمام الاختلاف.

وترجع إحدى النظريتين الأسباب إلى أن أرض العراق لم تستقر بعد، وأن السهل الفيضي بصورة عامة يتعرض لحركة هبوط مستمر. كما أن بعضاً من أجزائه يتعرض، بالإضافة، إلى حركة تقعر محلي. وتفسر هذه النظرية بحركات التقعر أسباب انتشار مناطق الأهوار. كما تفسر بحركة الهبوط المستمر أسباب بقاء الأهوار كما هي، دون أن تتحول إلى أرض يابسة^(٢).

أما النظرية الأخرى فترجع أسباب انتشار الأهوار إلى أمرين: أحدهما، أن أرض سهل العراق لم تتكون في الخليج البلايوسيني القديم بواسطة نهر واحد، كما تكونت مثلاً أرض وادي النيل بواسطة نهر واحد هو نهر النيل أو كما تكونت أرض سهل السند في الباكستان بواسطة نهر واحد هو نهر السند، وإنما كونت بواسطة نهريْن اثنين منفصلين، لكل منهما

(١) لا تزال ممثلة في القسم الأعلى من السهل في بحيرة الشارح. كما أنها كانت إلى عهد قريب ممثلة في منخفض عفرقوف.

(٢) راجع Lees, G.M. & Folcon, N.L.; The Geographical History of the Mesopotamian Plains, pp. 24-39, On the Geographical Journal, vol. CXVIII, March, 1952.

كبان مستقل، هما دجلة والفرات. وذلك بالإضافة إلى الجداول العديدة المستقلة التي تنحدر نحوها من جانب هضبة إيران، والأنهار القديمة والمستقلة أيضاً التي كانت تصب في الخليج القديم من جهة الغرب أثناء العصور المطيرة.

أما الأمر الآخر فهو تأثير حركات المد والجزر في خليج يخلو من التيارات المائية أو أنه شبه خال منها. ولا تقول هذه النظرية بتوقف مناطق الأهوار عن الامتلاء، وإنما تقول بأن امتلاءها يبقى متوقفاً ما دامت خاضعة لتأثير حركات المد والجزر. فإذا ما زال عنها هذا التأثير بسبب ابتعادها كثيراً عن الخليج نتيجة ظهور أراضٍ جديدة فصلت بينها وبينه فإنها تأخذ في الامتلاء بسرعة ملحوظة^(١).

ومنخفض هور الحمار - هور الحويزة أوسع مناطق الأهوار في سهل العراق وأحدثها تكويناً. وقد أخذ في التكوين عندما أخذت الأراضي التي تكتنف جانبي شط العرب حالياً في الظهور من تحت سطح ماء الخليج. وفي أثناء العصور التاريخية القديمة كانت تطلق على منخفض هور الحمار تسمية الأهوار الكلدانية كما كانت تطلق على هور الحويزة تسمية أهوار سوسيانا. ويرجع السبب في بقاء أجزاء واسعة منهما إلى الوقت الحاضر بالرغم من مضي آلاف من السنين إلى أنهما لا يزالان يتأثران بحركات المد والجزر.

ويمتد منخفض هور الحمار، كما هو معروف، بين مجرى دجلة - شط العرب وبين البادية الجنوبية. ويفصل بين منطقة شط العرب وبين باقي أرض العراق. ويتزود بمياه نهر الفرات، كما يتزود أيضاً بقسم كبير من

(١) راجع الدكتور إبراهيم شريف، الموقع الجغرافي للعراق وأثره في تاريخه العام حتى الفتح الإسلامي، الجزء الأول، ص ١ - ٣، ١٣ - ٥٦. بغداد والجزء الثاني ص ١ - ٥.

مياه نهر دجلة عن طريق الجداول التي تخرج من جانبه الأيمن، فيما بين الكوت والقرنة. وتنصرف معظم مياهه إلى شط العرب عن طريق كرامة علي ولحد ما عن طريق فتحة الماجدية.

أما هور الحويزة وهو الميدان الرئيسي لمعظم ما تضمنه الكتاب من وصف وحوادث فيقع في شرق نهر دجلة. ويمتد تقريباً بين خط علي الشرقي شمالاً وبين خط القرنة جنوباً. كما يمتد عبره خط الحدود السياسية بين العراق وإيران. ويتزود ببعض مائه من نهيرات صغيرة تنحدر من جانب هضبة إيران وتكون مداخل إليه للعناصر الفارسية والكردية التي تسكن سفوح هذه الهضبة. ويتزود بالقسم الأكبر من مائه من نهر دجلة عن طريق عدد من الجداول تكون هي أيضاً مداخل إليه للعرب سكان سهل العراق. وأهم هذه الجداول الكحلاء والمشرح والمجرية. وتخرج المجرية منه عند قلعة صالح. أما الكحلاء والمشرح فيخرجان معاً منه عند مدينة العمارة ثم يتفرعان في داخلها بعد مسافة قصيرة.

والكحلاء هي أهم الجداول التي تصرف مياه نهر دجلة إلى هور الحويزة. وتبدو فرعاً كبيراً له، وتضارعه في اتساعه. كما تشبهه في تعرجاته وانحناءاته الكبيرة. وتبدو ضفافها فيما بين العمارة وبين مسيعة عالية وفوق مستوى الفيضان. وفي جوانبها فتحات تصرف المياه الزائدة عن طاقتها إلى المنخفضات التي تقع وراء ضفافها. وينمو على الضفاف نطاقات قصيرة الامتداد وضيقة الاتساع من أشجار النخيل. أما عند شواطئ المجرى فينمو القصب والبردي وبعض من أشجار الصفصاف أو الغرب.

ومسيعة مركز ناحية وبلدة كبيرة، وعندها يخرج من الضفة اليمنى للكحلاء جدول الحسيني. وبعدها تستمر الكحلاء محتفظة ببعض اتساعها وبضفافها العالية نسبياً حتى مضيف شيوخ ابو محمد، ثم تنقسم إلى

فرعين . يتجه أحدهما نحو الشمال والشمال الشرقي ويعرف باسم جدول الزبير . أما الجدول الآخر وهو الأكبر اتساعاً فيعرف باسم أم الطوس . ويستمر الجدول الأخير في الاتجاه العام للكحلاء بضاف عالية بعض العلو مع اضمحلال تدريجي بسبب ما يخرج منه من مياه خلال عدد من الجداول والفتحات حتى مضيف آخر للبو محمد، وهو الذي كان يقيم فيه الشيخ عباس ابن الشيخ محمد العربي .

ومن هناك يحمل جدول أم الطوس تسمية الأقرع . ويتلاشى تماماً ارتفاع ضفافه، كما يتلاشى هو أيضاً حيث تتوزع مياهه في عدد كبير من الفتحات على جانبيه إلى المنخفضات التي تكتنفه .

والأهوار في السهل الفيضي بصفة عامة تأخذ في الاتساع تدريجياً مع وصول مياه الأمطار إليها في فصل الشتاء . ثم تبلغ ذروة اتساعها مع وصول مياه الفيضانات في الربيع، أما أعماقها فلا تزداد إلا قليلاً . ولا تكاد تتجاوز نصف المتر أو ثلاثة أرباعه، بين أخفض مستوى لها وبين أعلاه . ومع ذلك فإن هذه الزيادة تبدو كافية لأن تحول مظهر الهور إلى بحيرة عظيمة الاتساع، تنطمس تحت مائها معالم الجداول الصغيرة وبعض من الجداول الكبيرة، كما يختفي تحتها أيضاً الجزر الواطية، وهي عادة تكون غير مأهولة بالسكان . ولا يبدو باقياً ظاهراً على سطحها إلا أطراف القصب والجزر الكبيرة العامرة التي يعرف بعضها من بعيد بأشجار النخيل النامية على سطحها . وحتى في هذه الجزر تتدخل المياه أحياناً في المنخفضات التي تفصل بين أكوأخها، ويصبح الانتقال بين البعض منها وبين البعض الآخر بواسطة أنواع صغيرة من المشاحيف .

ويحدث قدوم مياه الفيضانات ثورة في مناطق الأهوار . فرعاة الجاموس يحرقون اليباس من القصب والبردي في فصل الشتاء حتى لا يشارك النبات الجديد الذي يخرج من الجذور في التغذية بالدهلة (الغرين)

التي تنقلها المياه معها. وزراع الثلب يبذرون حبه في مبادر (مشتال) استعداداً لنقل الشتال وزرعها في بعض المناطق عند الحافات. وكذلك يفعل زراع الذرة البيضاء والدخن. أما زراع الدغن (الحنطة والشعير) فيقيمون سداداً حول جوانب حقولهم التي يخشى عليها من طغيان المياه. كما يقومون بتطهير الجداول والقنوات التي تحمل إليها الماء لسقيها.

وفي الوقت نفسه أيضاً يزداد نشاط الصيادين. فالطيور البرية تأتي مهاجرة بأعداد كبيرة، يدفعها البرد من الجهات الشمالية. وهناك تجد غذاءها من الأسماك الصغيرة ومن الحبوب المزروعة وسيقانها الغضة. ومياه الفيضان تأتي حاملة أعداداً هائلة من الأسماك الصغيرة والكبيرة، ومنها الأسماك البالغة التي كانت قد صعدت من الأهوار في الأنهار لتضع بيضها.

وفيه يزداد كذلك النبات الغض، ويجد الجاموس فيه غذاء طيباً. كما تزداد النباتات العالقة، ويبدو سطح الماء مغطى في كل مكان تقريباً بأزهارها الجميلة.

وكما تتسع مساحة الأهوار تدريجياً في وقت ارتفاع الماء، تضيق تدريجياً في وقت الانخفاض. وباعتبار هور الحويزة يعود بعض مائه إلى نهر دجلة ثانية في جداول تتصل به في جنوب قلعة صالح.

وفي فصل الصيف وفي فصل الخريف تتمثل ظاهرات الأهوار واضحة، وتتميز فيها مناطق البرغات. وهنا وهناك تنتشر جزر كثيرة مختلفة الاتساع والارتفاع ومنها ما هو مأهول بالسكان ومنها ما هو غير مأهول. ويستغل السكان بعض الجزر غير المأهولة في زراعة بعض الغلات. كما يستخدمون بعضاً منها مقابر لدفن موتاهم. وأحياناً يكون الدفن مؤقتاً حتى يتيسر نقل الجثة إلى النجف أو إلى كربلاء.

وعدا الجزر المرتفعة بعض الارتفاع، تنكشف من قاع الهور مناطق

نفصل بين البعض من أجزائه وبين البعض الآخر . كما تتضح بعض
الوضوح ضفاف ما لا حصر له من الجداول كبيرة وصغيرة . وهي كثيرة
الانشاء والتعرج ، وتكون مجاريها الدروب والمسالك التي يتخذها السكان
في تنقلهم بين جهة وأخرى في داخل الهور ، وبينها وبين العالم الخارجي
وراء حافته .

وينمو القصب والبردي كثيفاً على ضفاف هذه الجداول . ويبدو
كالأسوار العالية تحجب ما يجري في المجرى الواحد منها عما يجري في
الآخر المجاور له . كما تحجب عنه أشعة الشمس من جهة الشرق ومن
جهة الغرب . ويبدو المجرى معتماً ، وعلى الأخص ، إذا كان المردي هو
النامي على ضفافه . والمردي هو عملاق الأهوار إذ يرتفع إلى نحو سبعة
أمتار أو ثمانية . وتوجد أحياناً فيما بين جوانب بعض من الجداول وبين
جوانب بعض آخر برغات خالية من القصب والبردي ، بينما توجد أحياناً
أخرى أجسام كثيفة منهما .

ويعيش السكان في مناطق الأهوار عيشة قبلية ، وينتسب كل جماعة
منهم إلى قبيلة معينة . وفي داخل هور الحويزة وعند حافته توجد قبائل البو
محمد والسودان والفرطوس والسواعد ويشغل بعض من أبنائها بالزراعة ،
بينما يشغل بعض آخر بتربية الجاموس والحرف الأخرى في الهور .
وتكتنف قبيلة بني لام مناطق هذه القبائل من جهة الشمال والشمال
الشرقي . ويشغل بعض من أبنائها برعي الغنم والإبل بينما يشغل البعض
الآخر بالزراعة .

والقبيلة هي أساس الوحدة الاجتماعية لأبنائها الذين يعتبرون تقاليدها
الموروثة وعاداتها قوانين يجب أن تنفذ مهما تكن النتائج . ويرون التراخي
في ذلك عاراً ومذلة . ولكل قبيلة ديارتها - منقطةها الخاصة . ويعرف أبنائها
الواحد منهم الآخر . ولهم جميعاً حق التنقل في جهاتها على ألا يضر

أحدهم بمصالح غيره. وليس من السهل على ابن قبيلة معينة أن ينتقل من ديرة قبيلته إلى ديرة قبيلة أخرى. فإن الشك في كل غريب عن القبيلة والحذر منه هو الأساس الأول. والعيون المتطلعة في النهار أو في الليل عند مداخل قرى القبيلة تراقب حركاته وتحاسبه عليها، والاعتداء عليه محتمل إذا بدا منه ما يريب. ويكون الاعتداء مؤكداً إذا كان من قبيلة معادية. والحذر والشك الذي يسود بين سكان الأهوار، وعلى الأخص بين أبناء القبائل «المطلوبة الدم» يجعل الواحد منهم لا ينتقل وراء مسكنه إلا وهو مسلح. والأسلحة النارية منتشرة هناك، والحصول عليها هدف لكل من بلغ أشده. ومن أسلحتهم الأخرى الخنجر والمگوار والفالة. وللغالة عند ابن الهور أهمية كبرى. إذ بها يدافع عن نفسه أو يقذفها على عدوه. وبها يصطاد غذاءه من الأسماك أو من الطيور وبعض الحيوانات الأخرى. ومما لا يستغنى عنه أيضاً في تنقله الزناد والمقدحة فيما يشعل لفائف تبغه ويوقد النار لتدفئة نفسه أو لطهي طعامه وصنع قهوته، وهو في تنقله خلال ديرة قبيلته عارف لطريقه في الجداول كبيرة أو صغيرة. ويضع أحياناً علامات يرشد بها من سوف يتبعه. كما يضع مثل هذه العلامات أيضاً إذا كان في ديرة قبيلة أخرى ليعرف بها عند عودته الطريق الذي قدم منه.

ويشتغل بعض من أبناء القبائل بالزراعة أو بتربية الجاموس وغيره من أنواع الحيوانات المستأنسة ويشتغل بعض آخر بصيد الأسماك والطيور أو بصناعة البواري ونحوها. وتوجد من بينهم جماعات تؤدي أعمالاً أخرى ومنهم الحوشية والعييد والملا والمؤمن.

والحوشية يسكنون حول حوش (بيت) الشيخ. وهم طبقة ممتازة في القبيلة، يعتمد الشيخ عليهم ويتباهى بهم عند استقبال ضيوفه. وهم عدته الأولى في دفاعه عن قبيلته أو في غزوه قبائل أخرى. ولهم مخصصات، يعطيها لهم من ناتج أرض القبيلة.

وللعبيد عند الشيخ مكانة خاصة، فهم حراسه أينما سار، وهم كاتمو سره ومطيعوه الطاعة العمياء. وعند بعض القبائل يكون فصل العبد مثل فصل سيده.

وللملا كما للمؤمن منزلة كبيرة أيضاً. فالملا هو القارىء للقبيلة والكاتب لها والمحاسب. وهو سكرتير الشيخ ورسوله والمتحدث باسمه. والمؤمن رجل الدين الذي يؤدي لأبنائها جميع ما يحتاجون من خدمات دينية وشرعية. وتزداد منزلة المؤمن كثيراً إذا كان من البيت النبوي الكريم، وغالباً ما يكون.

وسكان منطقة الأهوار وإن لم يكونوا بدواً، إلا أن قسماً كبيراً منهم غير مستقر استقراراً دائماً في مكان واحد. فرعاة الجاموس يتنقلون بها في داخل الهور إلى حيث يتوفر الغض من القصب في محيط ديرة قبيلتهم. يقيمون أكوأخهم على إحدى الجزر هناك، حتى إذا ما شح الغذاء، رحلوا إلى جهة أخرى يتوفر فيها، وأقاموا أكوأخهم على واحدة من جزرها. ورعاة البقر أو الغنم أو الحمير يتنقلون بها أيضاً لرعي الفضلات المتخلفة من حقول القمح والشعير والذرة والدخن أو الشلب. وزراع الشلب أو الذرة يتقدمون في الهور عند تقهقر مياه الفيضان. كما أنهم يتقهقرون عنه عند تقدمها فيه، ويكون ذلك إلى حيث تتوفر الأماكن الصالحة لزراعة هاتين الغلتين. كما ينتقل أيضاً بعض من زراع القمح والشعير الذي لا تتأثر أراضيهم غالباً بتقدم الماء إلى حافات الهور أو انحساره عنها. وذلك لأنها تعتمد أساساً في ربيها على الرفع بالآلات.

وتوجد مراكز الاستقرار الدائم في مناطق الأهوار في الأماكن التي تعلو فوق مستوى الماء، سواء أكانت في داخلها أم كانت عند حافاتهما. وتقوم عادة على الأجزاء المرتفعة من ضفاف الجداول الكبيرة أو على ضفاف الأنهار. وتمثل أسواقاً لسكان ما يتصل بهذه الجداول والأنهار من

جداول أخرى ومناطق في داخل الأهوار. وعند طريقها يتصل هؤلاء السكان بالعالم الخارجي وتنتقل إليهم بعض مؤثراته. ومن أهم مراكز الاستقرار في منطقة هور الحويزة، العمارة وقلعة صالح ومسيبينة والعزير والحلفانية، وتشابه جميع هذه المراكز في ظاهرة أن بيوتها مصنوعة من الطابوق المحروق. وهي ظاهرة يستلزمها كون الأرض مشبعة بالرطوبة.

والبيوت المصنوعة من القصب هي المظهر السائد لمراكز العمران الأخرى في مناطق الأهوار. وهي متشابهة في مادة بنائها وفي مظهرها العام. ولا يختلف البعض منها عن البعض الآخر إلا قليلاً من ناحية الارتفاع أو من ناحية الاتساع، فهي كلها مشيدة من حزم من القصب قد ثبتت قوائمها في الأرض وثبتت أطرافها لتكون أقواساً. ويحرص السكان دائماً على أن يكون عدد هذه الأقواس فردياً، سواء أكانت في بيوتهم أم كانت في مضايهم. وبعد أن يكمل وضع أقواس البيت وتثبيتها بحبال من القصب الملوي، تغطي سقفوها والأجزاء العليا من جدرانها بغطاء من البواري. أما الأجزاء السفلى فتغطي بقصب مجدول على نحو متشابك. وفي فصل الشتاء يلحف (يكسى) البيت بغطاء آخر من البواري. وحين يشتد البرد يقيم بعض من رعاة الجاموس حول بيوتهم سياجاً من القصب والطين التماساً لزيادة التدفئة وكسراً لحدة الرياح الباردة، أما زرع الشلب فيغطون بيوتهم بغطاء سميك من قشه.

وبعد أن يتم تشييد البيت يبدو شبه نفق مصنوع من القصب وإحدى نهايتيه مقفلة. أما نهايته الأخرى فتوجد فيها فتحة تؤدي وظيفتي الباب والشباك. وتفرش أرضه بالبردي وتغطي بغطاء من البواري. وفي وقت الفيضان عندما يبدو الماء مترشحاً فيها، يقوم أصحابها بوضع طبقات من الطين والقصب والبردي في قيعانها. ويكررون ذلك كلما دعت الضرورة. وبسبب ذلك ارتفعت أماكن البيوت فوق المستوى العام القديم لأرض القرية. وبدا كل بيت من بيوتها كما لو كان قائماً وحده على تل صغير.

والصريف في مناطق الأهوار تسمية خاصة. وهي وإن كانت مصنوعة من القصب مثل باقي البيوت، إلا أنها تمتاز بالتأنق في صناعتها وهندسة بنائها، ويشيدها بعض الأثرياء من السكان لجلساتهم الخاصة.

أما المضيف فيبدو بين أكواخ القرية كعملاق بين أقزام. وهو وإن كان مثلها، مصنوع أيضاً من أقواس القصب ومغطى بالبواري، إلا أن تشييده يتطلب كثيراً من الجهد والاعتناء. وذلك لأنه عنوان القرية أو القبيلة وممتدى رجالها، وفيه يستقبلون ضيوفها. كما أن فيه يجلس الشيخ ورؤساء الأسر يتذكرون في ماضيهم وفي شؤون حاضرمهم، ويفصلون في الخصومات ويوزعون العدالة بين الأفراد. ويشربون أثناء ذلك القهوة عدة مرات كما يستهلكون أعداداً من لفائف التبغ.

وتفرش أرضية المضيف بالبواري أيضاً. وتغطي عادة عند الصدر وعند الجوانب ببسط وسجاجيد بعضها عربي وبعضها الآخر إيراني. وفوقها، عند الجوانب، تطرح حشايا وتوضع وسائد قد اتخذت أوجهها من أقمشة حريرية في الغالب.

ويوجد في وسط المضيف وعلى مقربة من مدخله موقد قل أن تخمد ناره. وفيه توضع مصفوفة أواني صنع القهوة، وكلها ذات مصبات معقوفة. ويسمى أكبرها بالقمقم ويسع نحو ثلاثة جالونات أو أربعة من الماء. وتليه التلقامة وتسع نحو جالون واحد. أما الأواني الأصغر فهي الدلات وتوجد بأحجام مختلفة. وقد شاهدنا في بعض المضاييف قممماً واحداً وتلقامتين واثنى عشرة دلة.

وتقوم بعض القرى المصنوعة بيوتها من القصب، كما تقوم القرى المصنوعة بيوتها من الطابوق على ضفاف بعض المجاري المائية. بينما يقوم البعض الآخر على الجزر المبعثرة في داخل الهور.

ونمتد بيوت القرى القائمة على الضفاف في صفين طويلين، وأحدهما

يفتح أبوابه نحو المجرى بينما يعطي الآخر ظهره إليه . وذلك ، كما يقول بعض السكان ، لكي تكون أبواب بيوتهم مفتوحة إلى ناحية مكة . أما القرى القائمة على الجزر فلا يبدو أن لها نظاماً خاصاً .

ويكسب سكان الأهوار معاشهم من حرف خاصة يمارسونها . وتربية الجاموس حرفة أساسية لجماعة منهم يطلق عليهم اسم المعدان . ويكثر تنقلهم بجاموسهم في فصل الشتاء لأنه وقت يبوسة القصب والبردي . وفي تنقلهم يحرقون اليابس في المناطق عند مغادرتهم لها . ويقوم بعض منهم بجمع النبات المتفحم ويبيعه وقوداً للصابئة المتخصصين في صناعة الذهب والفضة والطلاء بالمينا . ويصنعون بعض حليب الجاموس قيماً كما يصنعون بعضاً آخر روبة . أما الباقي وهو القسم الأكبر فيصنعونه زبداً . وعادة يستهلكون محلياً القيمر والروبة واللبن المتخلف من صناعة الزبد . أما الزبد نفسه فيجمعونه ويعدونه للبيع غالباً .

ولا يتطلب رعي الجاموس من أصحابه مشقة كبيرة . فهو يعرفهم ويستجيب لندائهم ، كما يعرف أن يدافع عن نفسه ضد الغرباء . وهم لهذا يطلقونه في القصب المجاور ليرعى ويتركون أمره لبعض الصبية . وبذلك يتوفر الوقت أمامهم للاشتغال بأعمال أخرى كصنع البواري وصيد الأسماك والطيور وغيرها .

وتعتبر صناعة البواري من القصب الحرفة الرئيسية الثانية للمعدان ، وتقوم النساء بها غالباً . فيقطع القصب من أماكنه وينقل إلى القرى حيث ينظف من قشوره ويشق بسكين تسمى المشقة ثم يترك بعض الوقت ليجف . وبعد جفافه يدق بمدق من الخشب لتنعم أليافه ثم يوضع في الماء مدة حتى تلين هذه الألياف وتصبح صالحة لنسج البواري .

وتشترك الأسماك في الغذاء اليومي للأسر . ويقوم بصيدها يومياً واحد أو أكثر من أبناء كل أسرة . ويوجد هناك بالإضافة ، جماعة ، تطلق

عليها تسمية البرابرة، وتتخذ صيد الاسماك حرفة أساسية.

والأهوار، لوفرة مراعيها وبطء حركة الماء فيها وتضمنها مخابىء كثيرة بين جذور القصب والبردي، تكون بيئة ملائمة لنمو الأسماك وتكاثرها. وتكون متوافرة فيها بصفة خاصة في فصلي الخريف والشتاء. ويتفق هذا مع مصلحة الصيادين. وذلك لأنهم لا تتوفر لديهم وسائل لحفظ السمك بعض الوقت في الفصول الحارة. ويقل توافر الأسماك البالغة فيها في فصل الربيع. لأن الكثير منها يصعد في الأنهار إلى حيث يجد الأماكن الملائمة لوضع البيض وتلقيحه. أما في فصل الصيف فيقل وجود الأسماك بصفة عامة. لأنه فصل الانخفاض في مستوى الماء. فترتفع لذلك درجة حرارته تحت تأثير أشعة الشمس القوية، كما تقل نسبة وجود الأكسوجين الذائب فيه. فيضطر معظم السمك إلى الهجرة منها صاعداً في الأنهار مرة أخرى نحو الشمال ثم يعود إليها مع انخفاض الحرارة في الخريف. ولمقابلة النقص في الأسماك في بعض فصول السنة يلجأ السكان في فصول وفرتها إلى حفظ بعض منها بتجفيفه وتعليقه.

ويصاد السمك في الأهوار بالشباك كما يصطاد بالفالة وبعض طرق أخرى. والفالة معروفة، وللصيد بها ثلاث طرق. تعرف الأولى منها بالصيد «على العمبة» بمعنى أن الصياد يضرب بفالته قاع الماء على غير هدى في الأماكن التي يظن أن السمك مختبئ فيها. وتعرف الثانية بالصيد «على الرؤية» بمعنى أن الصياد يقف في الماء الضحل الذي تمكن الرؤية خلاله ويضرب بفالته السمك الذي يراه. وتنشط هذه الطريقة من الصيد في الأوقات التي تنشط فيها حركة السمك صاعدة من الأهوار إلى الأنهار أو نازلة من الأنهار إليها. أما الطريقة الأخيرة فتعرف «بالضوئية» وتجري أثناء الليل. وفيها يوجه الصياد شعلة أو مصباحاً نحو الماء. والسمك كالفراش يجتذبه الضوء، وكلما رأى سمكة ضربها بفالته.

وقبل أن تدخل أخيراً وسائل التبريد والنقل السريع في بعض مناطق الأهوار كان محترفو صيد السمك يواجهون مشكلة نقله إلى الأسواق وراء حافات الهور. أو مشكلة حفظه حتى يأتي المتعهدون لنقله إلى هذه الأسواق. وقد هدتهم الخبرة إلى عملية يتبعونها في فصل البرودة، وتعرف بعملية التجويف. وتجري بشق السمكة من ظهرها وإخراج الأمعاء منها مع الاحتراس من الإضرار بالبطن، ثم تدليك ظهرها بالملح. وتمكنهم هذه العملية بمساعدة انخفاض درجات الحرارة، من حفظ السمك مدة قد تصل إلى نحو أربعة أيام أو خمسة. وعندما يتم ملء بلم بالسمك المحفوظ بهذه الطريقة يبحر به صاحبه لبيعه في الأسواق المجاورة.

والطيور البرية مورد آخر للرزق لسكان الأهوار. وبعض من هذه الطيور متوطن هناك إلا أن الكثير منها مهاجر يأتي إليهم في فصل الشتاء. ومن أنواعها الخضيرى والجوشر ودجاج الماء والزراحي والحذاف والوردة والبرهان. وتتغذى في أثناء النهار على الأسماك. أما في الليل فتهاجر إلى حقول الشلب والذرة أو القمح والشعير وتتغذى من بذورها ونباتاتها الصغيرة. وتصاد بالبنادق وبالشباك كما تصاد بطرق أخرى. ويؤكل بعض الطيور المصادة محلياً بينما يجمع البعض الآخر ويرسل إلى الأسواق لبيعه. ومن الطيور المصادة ما لا يصلح للأكل. ويؤخذ ريشه كما يؤخذ ريش الطيور الأخرى ويستخدم بعض منه في حشو الوسائد وبيع البعض الآخر. وتوجد حيوانات أخرى للصيد في مناطق الأهوار ومنها الخنازير. وتصاد بالأسلحة النارية كما تصاد بالفالة. ويقال إن بالإمكان صيدها بالإمساك بأرجلها الخلفية وسحبها تحت الماء لتغرق. أو بوضع قصبة مجوفة في دبرها فيجري الماء خلال القصبة إلى جوفها حتى يمتلئ بالماء فتصبح عاجزة عن الحركة. ومن الممكن تصور حدوث ذلك مع الخنازير الصغيرة. أما الخنازير الكبيرة فإنها ضخمة وبالغة الشراسة.

وتوجد عند حافات الأهوار جماعات أخرى تمثل مرحلة انتقال بين

المعدان رعاة الجاموس وبين الزراع. فهم يربون الجاموس وبجواره يربون البقر والحمير وبعضاً من الغنم والماعز. كما أنهم يشاركون المعدان في حرفهم الأخرى ويجانبها يزرعون الشلب أو الذرة البيضاء والدخن. وصلات هؤلاء بالمعدان وثيقة. فهم الذين يزودونهم بمطالبهم من خارج الهور. كما أنهم هم الذين يشترون منهم منتجاتهم. وفيما وراء سكان داخل الهور وسكان حافته يوجد زراع الدخن (القمح والشعير).

وتعتبر تربية البقر والحمير وبعض الحيوانات الأخرى عند سكان حافات الأهوار حرفة مساعدة للزراعة. لأنها وليس الجاموس، هي التي تستخدم في كراب (حرث) الأرض عند إعدادها للزراعة، كما تستخدم في درس الغلات الزراعية بعد حصادها. وتتغذى هذه الحيوانات على الكصيل (فضلات الغلات الزراعية في الحقول) وعلى الأعشاب والحشائش النامية عند حافات الهور والمجاري المائية المجاورة.

لمعظم البقر سنام كالبحر الهندي. ومن الحمير ما هو صغير الحجم ومنها ما هو كبير يعرف بالحساوي ويقال إن أصله من الأحساء في المملكة السعودية.

وفي بعض المناطق عند حافات الهور تربي أحياناً، وعلى الأخص في فصل الصيف قطعان من الغنم والماعز يرعاها رعاة آخرون يتميزون بأنهم يقيمون في خيام. ومن الظاهرات الواضحة أن في داخل الهور لا ترى الحيوانات التي ترى كثيراً عند حافته كالبحر والحمير والغنم والماعز والإبل. وقد ترى الكلاب أحياناً ولكن في حالات نادرة. ويرجع هذا بالضرورة إلى أن بيئة الأهوار غير ملائمة لها.

والشلب في مناطق الأهوار يزرع غالباً في المناطق التي يغمرها الماء بعمق معين. إلا أن بعضاً منه يزرع في أراضٍ أخرى جافة، ومنها ما يسقى سيحاً ومنها ما يسقى بالرفع. ولهذا تحدث زراعته خلال فترة طويلة. وتمارس الزراعة الهرفية ابتداءً من آذار إلى أواخر أيار. أما الزراعة الأفلية

فإنها تمارس من أواخر مارس أو أوائل حزيران وتستمر إلى نهاية تموز.

وتوجد أهم مناطق زراعة الشلب عند ذنائب الجداول التي تحمل إلى الأهوار مياه الفيضان المحملة بالدهلة. ويقيم الزراع حول حقوله مروزاً بوضع خاص، ويرمون من ورائها إلى إضعاف حركة الماء أو إيقافها بعض الوقت حتى يترسب فيها معظم ما يحمله الماء من الرواسب.

وتختار مثل هذه المناطق عادة بحيث تكون منخفضة بالقدر الذي يمكن معه ريّها سيحاً من الجداول المجاورة بعد انحسار مياه الفيضان عنها. كما تكون مرتفعة بالقدر الذي لا يبقّيها مغمورة بالماء مدة أكثر مما ينبغي. ويزرع الشلب في مناطق أخرى وراء حافات الهور، وبعض منها يروى سيحاً من الجداول والبعض الآخر يروى بالرفع. ومن الحقول ما يزرع نثراً ومنها ما يزرع شتلاً. ويبدأ حصاده من أول تموز ويستمر إلى أواخر تشرين الثاني.

وتعرف الأراضي التي تغمرها مياه الفيضان ثم تنحسر عنها بعد انتهاء وقته باسم أرض التطياب، وهي التي تتضمن أهم حقول الشلب والذرة البيضاء، وتوجد حقول الذرة البيضاء عادة في الأراضي التي لا يمكن ريّها سيحاً بعد انحسار مياه الفيضان عنها. وذلك لأنها تستطيع أن تنمو اعتماداً على رطوبة التربة.

وللذرة البيضاء أيضاً زراعة هرفية وأخرى أفلية. كما أنها تزرع في الغالب شتلاً. وتبدأ الزراعة الهرفية في أيار حيث تبذر الحبوب في الدايات، ومنها تنقل إلى الحقول في شهر حزيران. أما الزراعة الأفلية فتمارس بعد ذلك. ويبدأ حصاها في آب ويستمر إلى تشرين الثاني.

وتجد الذرة البيضاء سوقها الرائج عند رعاة الجاموس. كما أن عليها وعلى فضلاتها يربي زراع الشلب قطعانهم من البقر ومن الحمير ومن الغنم.

والأراضي الحديثة التي تعلو فوق مستوى الفيضان وتضاف إلى الأراضي اليابسة تسمى أرض الطلاع. وهي أيضاً تزرع شلباً ما دام في الإمكان ريهها سيحاً من الجداول. ويقبل الزراع عليها كما يقبلون على أرض التطياب، لخصوبتها الكبيرة ولسهولة ريهها وصرفها. وكذلك لأن الوقت لا يكون قد توفر لسلطات الحكومة لمسحها وفرض الضرائب عليها.

وعندما يمضي الوقت على أرض الطلاع وتبتعد كثيراً عن الهور تطلق عليها تسمية أرض الرباث. ويجد زراع الشلب أن خصوبتها ليست بالدرجة اللازمة وأن زراعتها تحتاج إلى جهود كبيرة وقد يهملونها لتنمو فيها الأعشاب ولا يزرعون منها إلا ما يمكن ريه سيحاً أو رفعاً بالآلات من جداول مجاورة.

ويواجه بعض زراع الشلب صعوبات في ري أراضيهم من الجداول عندما ينخفض مستوى الماء فيها. ويضطرون لأن يقيموا في مجاريها سكوراً أو حمولاً من القصب والبردي لرفع مستوى الماء فيها وتغذية الحزات (الجداول الحقلية) التي تأخذ من أمامها. ولا ينبغي إقامة السكور في الجداول الملاحية. كما لا ينبغي أن تسبب إقامتها إضراراً بأصحاب الحقول التي تقع خلفها.

وهناك في داخل الهور مناطق يرويهها الزراع سيحاً اعتماداً على هبوب الرياح. وهي توجد عادة في قيعان الهور في مناطق تعلو قليلاً عن مستوى الماء الذي يكتنفها. فإذا هبت الرياح من جهة ما دفعت سطح الماء أمامها إلى قنوات الري في الحقول ثم انصرف الماء منها بعد توقف هبوبها.

وتسمى أراضي الرباث التي تزرع شلباً بالري بالآلات الرافعة باسم أرض البربع أو البربوع. وهي وإن كانت من أقل الأراضي التي تزرع بالشلب خصوبة ومن أكثرها تكاليف، إلا أن البعض من الزراع يقبل عليها بسبب ضمان توفر الماء لريها مهما اختلفت مناسيب المياه في الجداول. وعندما تضعف أرض البربع عن أن تصبح قادرة على إنتاج الشلب

بالمستوى المناسب تحول إلى زراعة القمح والشعير.

ومن المشاهد أن الزراعة في الأهوار وعند حافاتها تكتنفها صعوبات جمّة. وذلك لأنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمياه الفيضان وهي لا تأتي بصورة منتظمة، وإنما تأتي عادة في نوبات. والشلب مثلاً يزرع شتلاً في الأرض التي تغمرها مياه الفيضان بعمق يتراوح بين ٢٥ - ٥٠ سم. وقد يزرع عند هذا العمق المناسب ثم لا يلبث مستوى الماء أن ينخفض عنه كثيراً أو يزيد عنه كثيراً. وبالمثل تزرع الذرة البيضاء في الأراضي التي يغمرها الماء بعمق نحو ٣ سنتيمترات. ولكنها قد تزرع ثم تأتي نوبة من الفيضان العالي فتغمرها فوق هذا المستوى المناسب وقتاً طويلاً.

والجداول وقنوات الري الحقلية ينبغي تطهيرها سنوياً أو إعادة حفرها. وكذلك ينبغي أن تقام سنوياً السكور. كما ينبغي أيضاً أن تقوى ضفاف الجداول، فقد تأتي نوبة فيضان عاتية تدمرها وتغرق الحقول. وذلك بالإضافة إلى الأضرار التي تسببها الطيور البرية والخنازير والسلاحف لمزروعاتهم.

وفي جميع مناطق الزراعة في داخل الأهوار وعند حافاتها لا تتبع دورة زراعية إلا في أرض البربع. فالأراضي الأخرى التي تروى سبوحاً تزرع كل سنة بغلة واحدة هي الشلب أو الذرة البيضاء، أما أراضي البربع التي تتوفر لريها آلات رافعة فإنها تزرع بالغلات الشتوية، وعلى الأخص الشعير، زراعة هرفية حتى يمكن حصده في الوقت الذي تكون فيه الجداول لا تزال مملوءة بالمياه الحمراء. وتغمر الأرض بعد الحصاد بهذه المياه وتبذر فيها بذور الشلب نثراً. وبعد حصاد الشلب، تترك الأرض بوراً حتى شهر آذار من السنة التالية فتزرع فيها الذرة البيضاء. وبعد حصادها يزرع الشلب فيها زراعة أفلية. وفي السنة الثالثة يزرع القمح أو الشعير غالباً أو تترك الأرض بوراً سنة كاملة لتستريح.

والمعدان رعاة الجاموس لا يسهون في أوقات فراغهم للعمل خارج

حدود أهوارهم. وربما يرجع السبب في ذلك إلى أن العزلة في الهور قد طبعتهم بطابعها. وربما لأنهم يلمسون من غيرهم ازدياء لهم. أما رعاية الحيوانات الأخرى والزراع فإنهم يقومون في أوقات فراغهم ببعض الأعمال المثمرة. فالرعاة ينتقلون في أوقات نضج المزروعات من حقل إلى آخر يشاركون في حصادها كما تعمل حيواناتهم في درسها. ويأخذون في نظير ذلك نصيباً من غلتها فضلاً عن تغذية حيواناتهم من فضلاتها. وكذلك ينتقل بعض زراع إحدى الغلات إلى حقول غلة أخرى للعمل في حصادها في مقابل نصيب منها. وتبدو لذلك أهمية كبيرة بالنسبة لهم. وذلك لأن كل زارع متخصص في زراعة غلة معينة ويعتبرها وراثته عن آبائه وتقليداً. وفي فصل الصيف يهاجر بعضهم إلى بساتين النخيل على ضفاف شط العرب للاشتغال في الأعمال المتعلقة بجمع التمور وتنظيفها وإعدادها للبيع. كما تستخدم مكابس التمور هناك أعداداً كثيرة منهم. وفي فصل الشتاء تنشط النساء في جمع الأعشاب والأشواك وبيعنها كوقود أو يقمن بحرقها في أماكنها وبيعنها كنوع من الفحم النباتي.

والخلاصة أن المتقدم نحو داخل الهور يلاحظ ما يلي:

أولاً - بالنسبة للغلات الزراعية.

وجود نطاق تسود فيه زراعة القمح، فنطاق تسود فيه زراعة الشعير،
فنطاق تشترك فيه الذرة البيضاء مع الشلب، فنطاق الشلب.

ثانياً - بالنسبة للحيوانات.

وجود نطاق تكثر فيه قطعان من الغنم والماعز، فنطاق تنتشر فيه هذه
الحيوانات مع البقر والحمير، فنطاق يتغلب فيه البقر والحمير، فنطاق
الجاموس.

الفصل الأول

التاجر المتجول

وقف «بهلول» في صدر «البركاش»^(١) منحنيًا على مردية، وجلس أخوه التوأم «جهلول» في مؤخرة القارب، يوجهه بضربات ماهرة من مجذافه في مجرى ضيق يتثنى ويتلوى بين جدر كثيفة من القصب - الغاب - الأخضر. وكانت الشمس قد برزت من خدرها، وراحت تلقي بأشعتها متألثة على جسديهما اللذين تعريا إلا من إزار خشن من الصوف يلف وسط الجسم فيطوقه.

وفي بطن القارب جلس البائع المنجول، خالهما العجوز الحاج «ركان» جلس متربعاً بين مجموعة من العلب المعدنية وصفائح الزيت والبترول الفارغة التي أحالت مؤثرات الجو لونها إلى لون الصدا. وفي العلب هذه تجارة الحاج ركان من الشاي والقهوة والتوابل والسكر وأوراق التبغ وغيرها.

ورحت من مكاني المواجه له في القارب أراقب منظر الهور الذي لا يتغير. فالماء والقصب والبردي والسكون هي الظاهرات السائدة في كل مكان منه. وقد تهب نسمة باردة فتتهز لها رؤوس القصب الشهب ويتنهد

(١) البركاش: قارب صغير مطلق بالقار.

لها سطح الماء مضطرباً بين سيقان القصب، ثم لا شيء وراء ذلك إلا ما كنا نسمعه من ضربات جهلول بمجذافه على سطح الماء في ذلك اليوم من أيام الربيع الجميلة.

وكان البركاش منطلقاً وجهلول يغني خلفي. وأعترف أن «داوتي» كان متجنباً عندما وصف غناء العرب بأنه نهيق مضغوط من الأنف، فإن اللحن الحزين الذي يبدأ عالياً ثم يتذبذب بين ارتفاع وانخفاض حتى ينتهي بانتهاء نفس المغني كان في أذني بعيداً عن ذلك الوصف الشنيع الذي وصف به.

وتطلعت إلى الحاج ركان مستفسراً عن ألفاظ لم أستطع فهمها فردد الألفاظ الأغنية نفسها ثم قال ضاحكاً: مبالغة.. وكان قوله بنغمة تجمع بين التبرير والتأييد. ولا عجب، فالعرب يولون شعرهم وشعراءهم اهتماماً خاصاً.

كان جهلول يغني للمرأة التي يحبها. وكانت الأغنية بلهجة الهور التي، وإن كانت محتقرة في نظر الخلص من العرب، تحوي مع ذلك خيالاً رائعاً لا يتناسب وظروف الحياة البدائية التي يحياها السكان هناك.

- كمن أصيب بطلقة منفع انا مصاب

فاين من خدوك الحلوة نور التفاح وزهر الرمان

وارق الخمر الحريرية تخش اكتافك الفحيلة

وتلمي جلدك يا أجمل من وقعت عليها عيناى.

واستمر جهلول يردد نغمات الأغنية حتى صاح الحاج ركان آمراً: قف هنا.

وكنا وقتئذ قد خلفنا وراءنا ذلك المجرى الضيق المحاط بأجمة القصب وخرجنا إلى سطح ماء مكشوف تعلوه جزيرتان صغيرتان. فوجه جهلول القارب إلى أقربهما، على حين ألقى بهلول بالمردى في بطن القارب وراح يسحب رأسه نحو الجزيرة، ثم عاد ليجلس في مؤخرته مع أخيه يتساران كما لو كان

النزول إلى هذه الجزيرة القاحلة أمراً متكرراً قد اعتاده.

نزل الحاج ركان إلى الجزيرة رافعاً يديه نحو السماء يقرأ الفاتحة ويدعو الله بدعاء. ثم جلس صامتاً يرسل نظره في هاتين الجزيرتين القاحلتين. ولم يكذب يملأ نفسه منهما حتى صاح: يا الله... مشيراً إلى أولاد أخته في أماكنهم من القارب. واندفع القارب ثانية بنا ينساب في الهور، في جدول من تلك الجداول الوعرة بين سيقان القصب المتكاثف.

وتطلع الحاج ركان إليّ ثم قال - لعلك تتساءل لم قرأت الفاتحة؟. أو لعلك تتساءل لماذا أصطحب معي في تجوالي هذا أولاد أختي ولم أصطحب أولادي الكبار؟. بل لعلك لو سألتني أين أولادك الكبار؟ لكنت إجابتي أوفى... من أجل حب رجل لامرأة امتلأ بالحزن صديري وبالوحشة والوحدة قلبي وظللت أصحب الأسى منذ أن ثار الشيخ «صيهود» على الأتراك وهرب إلى هور الحويزة باحثاً عن ملجأ له.

- كان للشيخ صيهود أتباع كثيرون ومن بينهم «طاهر». وكان لطاهر هذا ابنة أحبها صديقي «عدي بن سعدون». وفي يوم من الأيام جاءني عدي وقال - أريد أن أعبر الهور لزيارة طاهر. أريد أن أعبره تحت تسيارك حتى أجوز «البو غنام»، لأن لهم مع عشيرتي ثارات، وأخشى أن ألاقهم. أو تعاونني ولك مني ما تريد؟ فأجبته - أفعل ذلك بكل سرور. ولا تتحدث عن ثمن، فطالما تمنيت أن أقوم بخدمة لك.

- وانطلقنا معاً في رحلتنا. وفي اليوم التالي لبومنا ذاك مررنا برجلين من البو غنام يصطادان سمكاً بفالتيهما^(١). فصاح أحدهما، - أعدي بن سعدون أنت...؟! فأجاب صاحبي - آي - وكيف ينكر...! فمن العار أن ينكر الشخص اسمه. وقال الأول أيضاً - كيف جرؤت على المجيء إلى

(١) الفالة آلة تشبه المذرى التي يذري القمح بها، يدها من الخشب ورأسها وأصابعها من الحديد ولأصابعها أسنان كالشخص.

هنا..؟! . فأجاب عديّ - أنا حاضر. وصاح الآخر - هل نسيت الدم..؟! . وكان رد عديّ - أنا حاضر.

- وعندما رأيت الشر ينبعث من عيونهما صحت - إنه تحت «تسياري»
- فكان الرد - نحن لا نعترف بتسيارك - فاستعد يا عدي ..

- ورأيت أحدهما يقترب منا فصحت به مكانك.. . قف مكانك ولا تقترب، وإلا فستطالبكم عشيرتي «بحشم»^(١)... والعادة أن تعطى امرأة لنا تعويضاً إذا هدد من يكون تحت تسيارنا. ولكن الرجل مع ذلك تقدم وهو يصيح - أنا لا أهتم.. دمي ما يزال حاراً.. . وقذف بفالته إلى عدي وانساب مخفياً في القصب. فأطلقت النار عليه ولكنني لم أصبه... .

- ووجدت الفالة قد اخترقت جسم صديقي فحاولت إخراجها فلم أستطع. وكل ما استطعته أن أمسكت بها في يدي لأخفف عنه ألمه من اهتزازها. وأمرت ابني أن يسرعا بنا إلى أقرب قرية، لعلنا نجد أحداً يتمكن من فصلها عنه. وعندما وصلنا القرية وجدنا الحداد - ويا للأسف - قد غادر مكانه إلى عشيرة أخرى مجاورة. فتبعناه، ولكن عدياً مات في الطريق! مات وهو يردد اسم حبيته «خديجة».

- ورجعنا مسرعين إلى عشيرتنا وأخبرت الشيوخ بما حدث. وعُرف الهور واضح في مثل هذه المسألة. وذلك بأن نقاتل مدة يوم واحد للأخذ بشار الرجل الذي يقتل وهو تحت تسيارنا. بلى.. لا بد لنا من قتال البو غنام يوماً كاملاً. وإذا امتنعوا، وجب عليهم إن يدفعوا لنا أربعين امرأة، وأن يتركوا جزرهم لنا ثلاثة أيام ننصب فيها مواقد القهوة حتى يعرف الناس أننا ضربناهم وهزمناهم، ونحن، وإن كنا سكان أهوار، لنا كرامة وكبرياء. وليس بيننا عشيرة واحدة تقبل لنفسها مثل هذه الإهانة.

(١) رد شرف.

- ونصب شيوخنا رايات الحرب وأرسلوا الرسل وراء رجال العشيرة.

- وكان الغد والتقينا مع «البو غنام» في معركة حامية على الجزيرتين اللتين وقفنا عندهما الآن.

- كان البو غنام قد أخذوا أهبتهم وكانوا أكثر منا عدة وعدداً، وحميت المعركة، وصمد لهم رجالنا، وأبلوا البلاء الحسن في القتال، ثم ما لبثوا أن فروا من المعركة تاركين وراءهم الكثير من القتلى ومن الجرحى.

- وفي المساء رجعت مع أفراد من قبيلتنا إلى ميدان المعركة، رجعنا في حماية «سيد». وكان السيد يصيح: هدنة...! هدنة...! أنا السيد «صادق» جئت لنقل الجرحى ودفن الموتى.

- وبين الجثث المطروحة وجدت «مطاغر» أصغر أبنائي مشخناً بجراحه. وعندما انحنيت إليه لأرفعه سمعته يهمس - احضر لي إختوتي... إنني أموت. ورحت أبحث فوجدت ابني «محمداً» جثة هامدة. وبقيت أبحث عن «خلف» وأناديه باسمه حتى رأيت بعض رجالنا يسحبونه جثة من الماء فصحت، من؟ من؟... فأجاب أحدهم - لا ندري - فأخذت قبساً من القصب أشعلته ونظرت فإذا بي أرى وجه ابني الثالث «خلف». يا بوياء...! يا بوياء...! أولادي الثلاثة كلهم ماتوا... ومن تلك اللحظة أصبحت كما تراني الآن... عجوزاً قد ابيضت لحيته. أمن أجل أن يحب عدي خديجة... أفقد أنا أولادي الثلاثة...؟! ولكن لم أقول هذا؟... وكل ما يحدث مقدر من الأزل.

وساد الصمت بعد أن أتم الحاج ركان قصته. وأخذ القارب ينساب خفيفاً فوق الماء، وكان الماء هادئاً. وعلى سطحه المصقول كالمرآة انعكست خضرة القصب، وطففت على بعض نواحيه أعشاب مائة مزهرة. كانت أزهارها البيض أو الحمر تتأرجح حين يمر القارب بجوارها. ومع

ذلك، برغم هذا الهدوء والابتسام الذي يجعل الهور يبدو وكأنه مرفأ للهدوء والسلام.. مع هذا، ففي ثناياه الكثير من آلام البشر وأحزانهم التي أخفتها آجام القصب عن العالم الخارجي.

وامتدت رحلتنا طوال اليوم دون أن نرى وجوهاً أخرى سوى وجوهنا، حتى بدت أماننا آثار للحياة. هنا ساحات من القصب قد تغيرت أوضاعها وحدثت بينها فجوات أمالت بعض القصب على بعض. وهناك قطع من الجاموس يكاد يغطس في الماء وقد أخذ بعضه يقضم الغض من سيقان القصب والبردي. ثم أخذنا نسمع أصواتاً. وعندما خلفنا القصب المتكاثف خرجنا إلى سطح ماء مكشوف وواجهنا عدداً من «الایشانات» مبعثرة هنا وهناك، ولا ترتفع إلا قليلاً فوق سطح الماء. وعلى هذه الكوم، التي تمثل آثار مدن ومراكز عمران قديمة مندرسة، والتي ربما أقيمت في قصورها المآدب والحفلات في ظل راية بابل العظيمة، أو عرض التجار العرب في شوارعها وأسواقها تجارتهم الرابعة أيام عظمة الإمبراطورية العباسية، أقام عرب الأهوار صرائفهم من القصب المجدول.

والصرائف متماثلة في النوع، مختلفة بعض الاختلاف في الحجم. إنها تبنى بحزم من القصب قد ثبتت قوائمها في الأرض وثبتت أطرافها العليا فمال بعضها على بعض والتفت مكونة السقف. وتمتد في شبه نفق مكسو بالحصير أو القصب المجدول. وفي إحدى نهايتها فتحة ضيقة تقوم بوظائف الباب والشباك والمدخنة. وعلى أرضها الرطبة المفروشة بالبردي ينام أفراد العائلة متلاصقين وجاموسهم، التماساً للدفء في فصل الشتاء.

ومع أن القذارة تمهد طريق الانتصار للمرض أو الموت، مع هذا لا تزال الحياة هي المنتصرة هناك. ففي صباح يومنا المشرق كانت هذه الأكواخ المزدهمة تبدو رائعة حتى أنها لتلهي الناظر إليها عن الأحوال التعبة التي يعيش فيها أهلها. ففي هذا المستنقع الموبوء بالمalaria، المائج بأفواج الذباب وبما لا حصر له من الكائنات التي تعيش على الطين

والوحد، وحيث أراضي أكواخه تنز رطوبة في كل خطوة، وقد أهملت فيها الاحتياطات الصحية جملة، يبدو السكان متمتعين بمستوى جسماني رائع. ولا شك أنه في مثل هذه الظروف تتمثل نظرية البقاء للأصلح. فوفيات الأطفال هناك كثيرة، تزيد عن معدلها في الأماكن الأخرى. ومع ذلك، إذا نجا الطفل نما وازداد مع الزمن قوة وصلابة. فترى الرجال، في قسوة رياح الشتاء البارد، وكأنهم في أشعة شمس الصيف المحرقة، يقنعون برداء واحد، بل يرى بعضهم بلا رداء. وهم يبدون مع ذلك مكتنزي العضلات، وقادرين على مكابدة شتى المتاعب، برغم ما يلاحظ عليهم من كسل كبير حيث لا يكون العمل المطلوب على جانب كبير من الضرورة. وهم بأجسامهم التي أكسبتها السباحة مرونة وقوة، وبأسنانهم البيض اللامعة، وبشعورهم المجدولة في ضفيرتين لا يخشون المقارنة بعرب البوادي.

وتبدو القرية مبهجة بتعدد ألوانها. فالقصب الأصفر الذي قامت منه الأكواخ يلمع في ضوء الشمس ويلقي بشعاعه نحو السماء. والنساء بملابسهن الفضفاضة ذات الألوان المختلفة الزاهية يتحركن أمام الأعين بلالاة وبريق.

والمرأة الشابة هناك تتمتع ببنية قوية. ولها عينا سوداوان وبشرة سمراء داقتة، وفيها ملاحه وجمال. ولكنها مع ذلك تشيخ بسرعة. وتلبس، على العكس من الرجل، ملابس طويلة فضفاضة تغطي بها جسمها من الرقبة وتتهدل حتى تتجرجر ذيلها على الأرض. أما العجائز اللواتي يكثرن الجلوس القرفصاء أمام أبواب أكواخهن، فيلبسن ملابس سوداً قاتمة ويعصبن رؤوسهن بعصابة كبيرة من قماش أسود أيضاً. وأما الأطفال فيرون عراة في الغالب، يلعبون في الماء بجوار المشاحيف.

والهور نفسه يزود سكانه بكل حاجياتهم تقريباً. فلهم من القصب والبردي ما يبنون به أكواخهم ومضايقتهم، ولهم منه ما يوقدون وما يفرشون. ولهم منه ما تنسج السلال، وتقتل الحبال. ولهم منه غذاء

الجاموس الذي يعتبر لبنة الخاثر مع السمك المتوفر لديهم غذاءهم الرئيس .
ولهم منه كذلك ما يبيعونه حطباً للوقود أو يبيعونه حصراً مجدولة تستعمل
بكثرة لأغراض كثيرة في أنحاء العراق . وهم يشترون من أثمان ما يبيعونه
حاجياتهم البسيطة كتلك التي يبيعها الحاج ركان مثلاً أو يشترون بندقية .
والبندقية في مثل هذه الأماكن النائية ذات الثارات تعد من الضروريات التي
لا يستطيع الإنسان الاطمئنان على حياته بدونها .

وحاجيات أكواخ المعدان بسيرة وقليلة . وفي وسع صاحب الكوخ ،
حين يرى بادرة خطر ، أن يلف حصره التي تؤلف كوخه ويسوق جاموسه
أمامه ويندس في قلب الهور . وبذلك يستطيع أن يتحدى العالم الخارجي
كما فعل أسلاف له من قبل .

واقتربنا من أكبر ايشان فوجدنا عدداً من النسوة عند حافة الماء قد
تجمعن يغسلن قدوراً سوداً . والنساء عادة هن الزياتن اللاتي يعلق الحاج
ركان عليهن أمله . وعندما رآهن حياهن صائحاً ، - إلهي يا نساء .. إلهي ..
عندي السكر والشاي والقهوة والتبغ .. والخيار والبصل وزنة بوزنة من
التمن ... عندي المرايا للعرائس ... عندي الإبر والخيوط والأمشاط ...
تعالوا يا نسوان ... تعالوا يا جميلات ... تعالوا ...

ويدت لي التجارة كاسدة . فقليلات هن اللواتي أقبلن يحملن بعض
الأرز في سلال على رؤوسهن وجلسن القرفصاء على الأرض للمساومة .
وجاءه رجل بجلد حيوان ليستبدل به . كما جاءته عجوز بفرارة من الريش .
ثم انتهت بعد ذلك الصفقات التجارية .

وانقلنا إلى الجزر الأخرى . وكان الحاج ركان ينادي على بضاعته ولكن
لا مجيب له . ودفع بهلول بنا القارب ثانية في مجرى من المجاري المتكاثفة
بالقصب وسرعان ما حجب القصب منظر القرية عنا . وبقي الحاج ركان يغمغم
- والحن والحسين .. لا أثر للنفود في العراق اليوم . لقد أصبحت مثل حمار

صاحب الحمام .. لا عمل له إلا حمل الوقود إلى النار ثم حمل رماد النار ..
وأضاف بهلول معقّباً - أو مثل الجمل الذي يحمل التمر ويأكل الشوك - فأمن
الحاج ركان على كلامه بقوله : ابوه ... ابوه ... إن صملي الآن لا يأتي
بفائدة . وهو كما يقول المثل - « مثل عباس أبو حرر » . خمس عشرة سنة
جندي .. ولسه بعده نفر .. آه .. ما يخالف .. الله كريم .. وبهذه الكلمات
ألقي الحاج ركان كل مناعب الحياة .

وعدنا إلى سابق صمتنا . وكنت أفكر في الفارق العجيب بين حياة
القدارة والجهل يحياها هؤلاء الناس مع حيواناتهم التي تشاركهم السكنى
في أكواخهم ولا يختلفون عنها كثيراً ، وقصة الحاج ركان التي تدل على
تقديسهم لمثلهم . قصة نفوس ذهبت طواعية في سبيل الثار لشخص غريب
عدت حمايته مسألة تتعلق بالشرف .. أياكون هذا دليلاً على أن شعب هذه
البلاد سيكون في يوم ما أمة عظيمة ؟ أم هل هذا هو النفس الأخير لشعب
مجيد قد تدهور .. ؟!

هذا ما كنت أفكر فيه . أما فيما كان الحاجي وبهلول يفكران لا
أدري . وأما جهلول فإنه كان يفكر ، على ما يبدو ، فيما ظل يفكر فيه طوال
اليوم . فإني أسمعه الآن يغني بصوت حزين أغنية لمحبوته .. أغنية ضاعت
بعض مقاطعها بين نقيق الضفادع الذي أخذ يتعالى بقدم المساء :

- اليوم هو الرابع عشر من إيامك ليها البدر الكامل

والسنة هي الرابعة عشرة لحبيبتني التي لها عيون الغلباء

ووجهها مع ذلك ، اصفى من وجهك ولجمل ليها القمر العالي

وليت لك شفتاها القرمزيتان

وليت لك لسنتها اللؤلؤ المنضود

وليت لك صفائرها المجدولة المرخاة على متنها -

الفصل الثاني

رحلة في الهور

جلسنا في عصر يوم من أيام الربيع نستدفئ في الشمس، وكانت القرية ساكنة، كأنها أخذت بسنة من النوم. وسكتت الدنيا إلا من هدير «مجرشة»^(١) يتهاذى إلى مسامعنا من وراء الهور الصغير الذي يفصل صريفة الحاج ركان عن بقية الصرائف. وفي جزيرتنا الصغيرة وحدها كانت الجلبة، لأننا كنا نعد العدة لرحلة طويلة لعلها أطول الرحلات التي قمت بها مع صديقي التاجر المتجول الحاج ركان.

الكرم شيمة العرب أهل الصحراء وهم مضرب المثل به. والمعدان أيضاً، وإن كانوا قد أخذوا بالفقر والتعاسة إلا أن الكرم بينهم ليس بالقليل. إنهم يحرصون حرصاً شديداً على أن يحتفظوا ببعض الزبد وبيع بعض الكماليات الأخرى للمناسبات المفاجئة. وها نحن أولاء اليوم نرى الحاج ركان، - بالرغم من أن اللحم يعد من أندر الكماليات - يقوم بذبح حمل إكراماً لضييفه العزيز.

وفي العشة كانت النساء منشغلات بالنار وما حولها. أما نحن، الحاج ركان وأنا وبهلول، فقد جلسنا على بساط صغير في العشة لا نعمل

(١) رحي.

شيئاً، وتلك هي عادة الرجال هناك. أما جهلول فقد قلق به مكانه وراح يتنقل من هنا إلى هناك. وكان يتنقل وخنجره مسلول بيده؛ ذلك لأنه «عريس» جديد، وهم يعتقدون أن مثله تحسده الجن وتحقد عليه. وأما عروسه فقد جلست صامته في قارب الحاج ركان تفكر في عالمها الجديد وتتخذ من صفحة الماء مرآة ترى فيها جمال عرسها وتتطلع إلى ملابسها الجديدة الزاهية التي لم يلطخها الوحل بعد ولم تحل الشمس لونها. كانت فتاة صغيرة في الخامسة عشرة من عمرها، جميلة متكاملة الجسم، تظلل جبينها خصلة متدلية من الشعر الفاحم، وتحلي أنفها حلية من الفضة زينت بفصوص زرق. أما حنكها^(١) فقد زينته بوشم أزرق.

وتهاوت شمس الأصيل وأقبل المساء. وهدأت القرية وبانت صرائفها الصفراء والسمرة في السماء الزرقاء كما لو كانت مطبوعة على الأفق. وكانت قطعان الجاموس لا تزال غاطسة في الماء، لا يرى الناظر منها إلا رؤوسها السود وقد توقفت عن الحركة. ومن بين هذا السكون السائد انبعث من صريفة الحاج ركان همس خفيف. ثم تعالى صوت امرأة تصيح: - فتنة - يا فتنة. - أحضري من البركاش سلتين من التمن. - وكان أن ردت العروس بحنق - أنا..؟! ولم أخرج بعد من سبعة أيامي؟! فقالت العجوز برقة: - ما يخالف.. ما يخالف.. سأقوم أنا بإحضارهما..

وسمع الحاج ركان الحوار فصاح: - ماذا؟.. تمن أيضاً..! كل الذي كان عندك استهلكته في ثلاثة أيام يا امرأة لا تستحي..؟! في غيابي.. تبيحين لنفسك أن تبيعي كل ما أجمعه بتعبي وعرق جبیني. تأكلين وأنت مستريحة، بينما أنا.. ثم استدرك أن التمن للضيف وقال: - يا بنت ستين... لم لا تقولين إن التمن المطلوب للضيف؟. سلتان فقط،؟! أحضري أربعاً... أحضري ثمانية... بل فرغي البركاش وأحضري كل ما

هناك... فردت المرأة، يا كريم... سنحشو الحمل حشواً جيداً.. وقال
الحاجي، - نعم.. احشيه جيداً يا أم عبيد.. لا تقتصدي في اللوز ولا في
البصل.. اذهبي يا بنتي واجلبي الكشمش من التنكة^(١).. وأكثر من
القرنفل والفلفل.. ولا تنسي الكركم ولا الكرفس... التنكة فرغت يا
بنتي...!.. ما يخالف.. هكذا أراد الله... الله يقويكم يا بناتي... ..

وانهمكت النسوة في عملهن. وراح الحاج ركان يجذب الدخان
وينفخه من قصبه نرجيلته المصنوعة من الطين. وفي المساء أقبل عدد من
رجال القرية لمشاركة الحاجي في وليمته. ألم يذبح حملاً؟.. حمل، كان
يمكن أن يصير في المستقبل خروفاً، ذبح في مناسبة سوف يؤرخ بها في
المستقبل على أنها اليوم الذي ذبحت فيه ثلاثة خراف على شرف زيارة
«الصاحب». وشمر الحاج ركان عن ساعده وصار يفصل قطع اللحم
المشوي وينزع منها أحسن ما فيها ويقدمه لي مع حفنة كبيرة من الحشو.

كان التمن مطبوخاً طبخاً حسناً، ولكن اللوز والكشمش والتوابل
وغيرها من المواد التي تتميز بها أطعمة الطبقة الغنية لم يكن لها فيه وجود.
ولا يرجع الأمر في ذلك إلى أن نسوة الحاج ركان لم يأبهن لأوامره، بل
لأنه لم يعن - مطلقاً - أن تنفذ أوامره حرفياً. وذلك لأنه يعلم أن هذه
الكماليات أبعد من أن تتوفر في بيته.

العربي في الصحراء يقدم لك أحسن ما عنده ونفسه طيبة راضية،
ويعتذر لك عن ضآلة (قلة) ضيافته بقوله - اعذرنا.. نحن فقراء... .. أما
المعيدي، ساكن الهور، فلا يتورع أن يصيح على خدم لا يملكهم وأن يأمر
بطعام لا يملكه أيضاً. وهو مع ذلك، برغم ظروفه القاسية التي تجعل
كمال ضيافته مستحيلاً يقدم لك ما عنده بكرم.

(١) الصفيحة.

ونترك ما نلقى من طعاما للنساء. لأن العادة عندهم ألا تأكل النساء
مع الرجال. ويطول الحاج ركاد. إذ أقصر ساكن في اليوم نأى له نفع
أن يأكل مع روجه. بحر نام مع سائقا على فراش واحد. ولكن أياكل
معهم. لا. لا. هذا أكبر من أن يحتمل.

وأخفنا في صباح المد مبكرين برحلة خلال اليوم. وكان البردي الذي
مررت به في هذه رحلتنا طرياً غنياً بكسر السطح بخضرة حية زاهية ومع ذلك لم
نجد ساكناً هناك. ونسألت فعلمت أن المحمدان يقومون في كل سنة. عند
تظلمهم. بحرق القديس من الناس في المكان الذي يخافونه ليصيحوا المجال
لنموتيات البحر جديد عفر. وكثيراً ما يعظم الحريق وتتعالى أصوات الدخان
هواما النار بعيداً على شاطئ النهر. كان المجرى الذي تسلكه يجري بين
حواجز صيكة من القصب، حواجز عالية أخذت هنا أشعة الشمس وحملاً من
عصف ريح الجنوب التي بدت تشبه في الصباح.

وبعد صمت طويل قال الحاج ركاد. أنريدني أن أتكلم بما جاء
مجال للكلام؟ قلت، نعم. فرد. أسمع الله عليك.

وعب الحاج ركاد دلاقة في الحديث نواته عندما يحب هو أنه
يتحدث. وذهب أيضاً دكاة فوق المتوسط يستخدمه في التعرف بالعالم
المعارجي وراء اليوم. ولديه بالإصافة إلى هذا وهذا نزوة من المعارف
الأولية كأخبار القبائل ونقصها. ولا أظن أن أحداً في اليوم يناظره في
ذلك. وقد جعله لسان الطفل وماكره القوية، التي تشارك بها الجماعات
التي لا تعرف القراءة والكتابة، الرقيق الذي لا نمل صحته. ومع ذلك لا
يرحمه القصد وإن طال. وكثيراً ما نمضي ساعات كثيرة ونظل صامتاً حتى
إما حدثت حادثة ولم بسيطة صغيرة أو حطرت بلطف عارضة أحد يتكلم
عنها بأسهاب. أما الأسطة المعاجلة فكثيراً ما نتركها. وأحس حبه يكون
حين يتركنا لطيفه.

مرور من حرف بطائر طويل الساقين فأجمل وراح يطير عابراً
 بجانبه أوراق القصب وصرح صراحاً مرعياً وأثار هذا الحادث حديث
 الحاج ركان فقال: الله أكبر الله أكبر لفهم الإنسان قيمة لا بد له
 من حبال وأوتاد، ولكن قيمة الله فائضة بلا عمد ولا حبال ولا أوتاد.
 نصير كل ليلة بسما نحولت قصور الملوك الأقدمين إلى تراب رب
 العالمين وحائق كل شيء، وهب الحيوان العريضة وجعله يدرك كما يدرك
 الإنسان الملة نحر للثناء القادم والعار يعرف أن القط عدوه. وهذا
 الظاهر، وكان موعاً من مآلك الحرير، يعرف كيف يحرم منه كما لو كان
 إنساناً. نخط أسراه ثناء ونختار من بينها واحداً لحرسها ويام السرب
 كله وعلى هو يلقاها، راضياً راحة أحد فتمه مقابل ركة رحلة الأخرى حتى
 إذا نام ولج. وإذا سها ونام وظهر الفاضل الواحد أو أكثر من أفراد السرب
 اتكس على القافون يتاحون بخره حتى يموت.

هنا، حديث الحاج ركان أما مدى الحال به ومقدار الصحة به
 فقررره أهل التاريخ الطير.

واشتر الحاج ركان يردد، الله أكبر الله أكبر وهب الحيوان العريضة
 وهب الإنسان المعرفة ونكر ما فيه المعرفة بغير الحبر. ٩١ عاش
 لقباً رجل عظيم اسمه هارون الرشيد كان سلطاناً قوياً، وكان له ولد قل
 يتعلم عشرة من سنة حتى صار أعلم من أساتذته ولما رأى السلطان
 قلت. والمنظمت النقصه بد مر ما بركاش آخر قد صفت به عدد من
 العطب الصفة وعدد من رؤوس السكر المعلقة بأوراق ورق على نحو ما
 يعمل الحاج ركان بصفات وعلى صدر شركاش أفهم حصر من القصب
 لحسابه حمله الثمر من المطر كما رفع في وسطه حصر وخلق على
 نخره عدد من الأسورة الزجاجية الحبر

هذا لي من ملاحظات الحاج ركان غير التوبة أن هذا القصر

المنافس هو ملك لرجل غير مسلم، أو أن صاحب رأسماله في الأقل رجل غير مسلم. لقد سمعت الحاجي ينهال باللعنات على اليهود وعلى المسيحيين وهما عنده سواء. ولم يستدع ما فاه به اعتذاراً لي، لأنه يعد الإنجليز كلهم أعضاء في الدين الإنجليزي الذي يراه هو أقل مستوى من الدين الإسلامي وإن كان أرقى كثيراً من الدين المسيحي المحلي..

نسي الحاج ركان قصة هارون الرشيد وأخذ يتحدث عن سيد مشهور مدفون في قبر من القبور العديدة المنشورة على حاشية الجدول، قائلاً - بحيلة نصراني... مات السيد «خليفة» فقيراً معدماً. كان من عادة السيد خليفة أن يتجول في الأهوار كما أفعل أنا الآن. ولكن ما كان يبيع السكر أو الشاي أو نحوهما، وإنما كان يبيع قطعاً من الجنة. ولأن السيد من سلالة نبينا عليه الصلاة والسلام سار رجال القبائل على الاعتقاد بأنه يستطيع ذلك فعلاً. فكان الواحد منهم بعد أن يشتري لنفسه قطعة كبيرة كافية بجهنم في أن يدخر مبلغاً آخر ليشتري به قطعة أخرى لزوجته وهكذا حتى يشتري لباقي أسرته. وظلت الجنة تباع قطعة قطعة حتى نفذت النقود من الهور ولم يبق لدى أحد ما يشتري التوابل أو التبغ. وسمع بهذا تاجر نصراني لاحظ أن تجارته التي يرسلها إلى الهور قد كسدت فدبر في نفسه أمراً..

- ذهب إلى السيد خليفة متخضعاً وقال إنه نصراني لا يستطيع أن يشتري لنفسه قطعة من الجنة، وأنه يرغب في أن يشتري قطعة من جهنم أو يشتري جهنم كلها إذا أمكن ذلك. وفرح السيد وأعطاه وثيقة تثبت أن جهنم قد أصبحت كلها ملكاً له. وانصرف النصراني بوثيقته، ثم أرسل رسله في قواربهم المحملة بتجارته يعلنون بين القبائل شراءه لجهنم. ولم يفت المعدان معنى ذلك. فما دامت جهنم كلها قد بيعت فليس لهم إلا أن يدخلوا الجنة، فلم يشتروا..!؟ وعدلوا عن لقاء السيد، فبقي لا يجد شارباً لقطع الجنة الباقية..

وهكذا كان الحاج ركان مستعداً لأن يتحدث بسذاجة في كل موضوع. وكان صوته الرنان وإشاراته المعبرة بيديه، والبريق اللامع الذي ينبعث من عينيه السوداوين، كل هذا كان يضيف على حديثه طلاوة وسحراً لا يوصفان. وكان من عادته أن يسهب في الحديث عندما يكون الحديث في موضوع لغيره. ولكنه عندما يتحدث عن نفسه وخبرته أو عن موضوعات له بها دراية فإنه ينمق اللفظ وينطق بتعابير خلاقة.

تركنا المجرى المحاط بالقصب الطويل ودخلنا في مجرى آخر واسع قد صفت مياهه واستقامت حافته حتى لقد خيل إليّ أنه حفر بيد الإنسان. وربما كان هذا جزءاً من قناة النهر وان المشهورة، إحدى مشروعات الري الكبرى التي جعلت من بلاد النهرين أرضاً عظيمة الإنتاج. على أن هذه المستنقعات الموحشة قد شهدت - مع ذلك - أقدم عصور الري السحي.

مردوخ وضع قصبه على سطح الماء، ثم جاء بالتراب ووضعه حولها، يريد أن يستدعي بذلك الآلهة لتقيم حيث تحب.

لقد أخذ السومريون القدماء في بدء عصور التاريخ بإصلاح «أرض البحر» بإقامة السدود من التراب والقصب، ومثل ذلك يفعل عرب الأهوار اليوم. وأخذت تلك السدود تعلو وتمتد حتى أحاطت بمساحات واسعة زرعت ورويت من فتحات في السدود نفسها. ثم بنيت المدن وشيدت المعابد حيث ترغب الآلهة في أن تقيم. ومع أن أرض البحر هذه كانت واطية، كما يدل على ذلك اسمها، إلا أن تلك السدود المقامة حولها كانت تقوى دائماً لتحفظها من غوائل الفيضانات.

ثم حدث لها هذا الخراب الذي رجع في تاريخه إلى القرن الخامس الميلادي حين ضعفت الحكومة وأهملت صيانة السدود. وجاء فيضان عال فدمر السدود وغمر الأراضي الواقعة في جنوب نهر دجلة وفي غربه. وحاول ملك قوي جاء بعد ذلك أن يعيد إصلاح تلك الأراضي. ولكن

الحالة بعده لم تستمر، إذ لم يمض قرنَان حتى دوهمت الأراضي مرة ثانية بفيضان عنيف آخر دمر السدود مرة أخرى، وكان حدوث ذلك قبيل الفتح الإسلامي بسنوات.

وقد فعل الملك الساساني، كسرى برويز، كل ما في الوسع، حتى أنه في يوم ما أمر أربعين رجلاً بالوقوف في كسرة حدثت في أحد السدود. ولكنه لم يستطع برغم كل ما بذل أن يسيطر على طغيان الماء. وجاءت بعد ذلك قبائل المغول فكانت أشد طغياناً وخراباً من مياه الفيضان. إذ دمرت نظم الري التي كانت قائمة وشاركت في توسيع مدى هذه الأهوار وفي خلق أهوار أخرى.

لم نكد نستمر في ذلك المجرى طويلاً حتى انحرفنا إلى مجرى آخر متعرج. وأخذت صفوف القصب تعلو مع تقدمنا فيه حتى وجدنا أنفسنا قد أحطنا بالمردى، عملاق الهور الذي يزود المعدان بالمردى الذي يدفعون به مشاحيفهم. وكانت سيقانه تتعالى فوق رؤوسنا وقد تصل إلى نحو سبعة أمتار. وأخذنا نتسلل ببطء بين سيد نبات الهور حتى انقشعت عنا عنتمه وتكشفت بنا إلى بركة واسعة ذات مياه زرق مشمسة، تتدافع على سطحها أمواج عالية بيض. وظهرت الريح التي وقانا المردى عصفها نشطة منعشة، فتردد الحاج ركان في اجتياز هذه البحيرة المائجة وبدا خائفاً على قاربه. ولكنه لم يلبث أن قال - كلنا بيد الله - وأمر بالعبور -. وأخذ القارب يرتجف ويترنح والأمواج تلقي إليه بكثير من مياهها حتى وصلنا الجانب الآخر بسلام. واستقر بقاربنا الطريق بعد ذلك في مجرى متعرج قد حف بقصب الشباب. وهو قصب مرن قوي، يصنع المعدان منه سطوح صرائفهم المقوّمة.

ورحنا ندب إلى قلب الهور وطريقنا فيه يتقلب من جدول إلى بركة أو بعكس. ومع ذلك كان الهور ساكناً كما هو شأنه دائماً وهو يفتح صدر

سبله لاستقبالنا . كان كالغانية الجميلة تغري بالبقاء بما تكشفه من فنون جمالها . فكان بغيرنا بالتقدم فيه بما يكشفه لنا من خفايا فنتته وبما يفتحه أمامنا من سبله . كما كان يقفل وراءنا باب التراجع بما يلقيه خلفنا من حواجز القصب . كان يريد ان يبقينا في أحضانه إلى الأبد، كأنما كان يخشى أن نفشي أسرارهِ للملأ . وأخذنا نجوب وقد أخذنا به حتى خيل إلينا أن العالم كله قد تحول إلى همس القصب وإلى وشوشة الماء وحركة سطحه . ثم خرجنا إلى قرية كبيرة تقوم على مجموعة من الجزر، فقال الحاج ركان - إن شاء الله نربح في هذه القرية . إن جاموسهم يبدو عليه الشبح كأنه جاموس عشيرة «ابريها» في گرمه علي . فهم يحلبونه من غروب الشمس إلى غروب الزهرة، ومع ذلك لا يجف لبنه .

وبدا أمل الحاج ركان قوياً في أن يقوم بتجارة رابحة في هذه القرية النائية . فقد استعار لي، كما هي عادته كلما هم بأن يطيل الإقامة في مكانه، «جلاية» وأرسل معي بهلول وجهلول لتقضي الوقت في الصيد .

وكنا محاطين ببط كثير، وعكفنا على صيده حتى نسيت عطشي . ولم أتذكر حاجتي إلى الماء إلا حين رأيت بهلول يهوي بيده إلى الماء يضربه بها ليرفعه إلى فمه . وكنت جائعاً أيضاً . وما كنا حين غادرنا القرية قد تزودنا بطعام أو شراب .

ورأيت ماء الهور مالحاً في فمي ولم أستسغ شربه، فافترحت أن نذهب إلى أقرب قرية لنشرب فيها الشاي بدلاً من الماء . ولكن تبين أن أقرب قرية هي التي تركنا فيها الحاج ركان . وهي بعيدة، وإن كانت أقرب القرى إلينا .

وبينما نحن في تساؤلنا، قال بهلول - مهلاً! . . الباكية . . . وهز جهلول رأسه موافقاً وقال - نعم، الباكية قريبة من هنا . .

كنت على وشك أن أسألهم عنها ولكنني تذكرت أنني سبق أن سمعت

حديثاً بدور حول عجوز تعيش وحدها في الهور منذ سنوات وتقضي ليلها باكية تضرب صدرها. وكنت أعجب من حياة الوحدة التي تحياها وأتساءل، أي مأساة من الحب المضني أو الكره القاتل شهدتها هذا الهور ثم طواها صمته في طباط عميقة من النسيان؟

وأسرع الأخوان في تجديفهما. ولم يكد يمضي نحو ثلث الساعة حتى كنا أمام جزيرة صغيرة يقوم عليها كوخ وحيد. وباقترابنا منها أبصرنا شبحاً يذنو من حافة الماء ثم وقف ينتظر. كان شبح امرأة نصفاً. وكانت دعجاء العينين مديدة القامة ولكنها هزيلة الجسم، وقد شحبت وجهها حتى بدت عظامه بارزة فيه. وقادتنا مريحة إلى كوخها. وفرشت لي بساطاً وأمرت الولدين بأن يحضرا الوسائد من الطرف الآخر للكوخ. وبدا لي أن زيارتنا ليست بالأمر الغريب عليها، فهي لم تسألنا من أين جئنا أو ما وجهتنا. وجلست صامته تعد لنا الشاي. قبضت قبضة من يابس القصب وأشعلتها فانبعثت النار حول إناء أسود اللون ممتلئ بالماء. وتناولت من جانبها صندوقاً خشبياً أخرجت منه ثلاث «استكانات» قامت بغسلها ونفضها بيدها ليتطاير ما قد يكون عالقاً بها من قطرات الماء ووضعتها بعد ذلك على صينية من المعدن. ثم التفتت إلى صندوق آخر وأخرجت قطعة من السكر كسرتها قطعاً ووضعت في كل استكان قطعة كادت تملؤه. وعند أخذ الماء في الغليان وضعت بعض الشاي في «قوري» قديم قد انكسر صنبوره وصبت فيه الماء المغلي ثم وضعت بجوار جمرات النار حتى «يخدر». وبعد قليل صبت الشاي في الاستكانات وناولتني واحدة منها كما أعطت الآخرين اللذين كانا يجلسان عند المدخل كلا واحدة.

وجرى كل ذلك بغير أن تقول المرأة شيئاً غير عبارات التحية العادية. ولكنها عندما سمعت من بين الأخوين همساً بلفظ مجنونة التفتت إلي وقالت، - أفندم.. أتعد امرأة مجنونة في بلدك إذا ملأها الحزن وأخذ عليها حياتها؟... وبدا عليها أنها لا تنتظر مني إجابة. إذ أخذت في إذكاء

النار وهي تقول في همس - كان رجلاً .. ثم التفت نحوي متسائلة، - ألم تسمع به ..؟! فأجبت بالنفي لأنني لم أكن أعرف عن من نتكلم. فقالت، وكأنها تريد أن تلتصق لي العذر لجهلي، - ما زلت صغير السن... أما أنا فلا زلت أذكر أول لقاء معه كما لو كان في العام الماضي. كانت سنة تساقط فيها البرد بوفرة.. وكان هو يتحدث إلى أبي في دارنا، ومن وراء خبائي وقفت أنطلع إليه. كان قوي الجسم ومفتول الساعد.. آه.. ما أجمله وما أقواه..! كان قلبي يخفق وأنا أنطلع إليه. وفي يوم من الأيام جاءتني ابنة أخيه وهمست،... هو يريدك.. «روبيضي» يريدك.. فاضطربت وخجلت أن أصدقها. وفي الغد مررت وهو جالس عند حافة الماء فسمعتة يقول بصوت خافت يا جميلة والله أنت تقتليني.. فأدبرت وجهي وأسرعت. وتقابلنا بعد ذلك ولا تسلني كيف كان ذلك... لم نتقابل مرة واحدة وإنما مرات. وأراد هو أن يتزوجني وكنت أتمنى ذلك ولكنني استحييت أن أطلعه على رغبتني. وكما هي العادة بيننا، ذهبت إلى منزله مع امرأة أخرى وكنت أعرف أنه مختبئ يراقبني. وكان معنى امتناعي عن تناول طعامه أنني لا أريده. فمددت يدي مضطربة إلى الطعام. وبينما أمضغ أول لقمة إذا به يقبطني في فمي..

وكان صوتها يذوب حنواً ويتلاشى في آخر كلمة قالتها حتى خشيت ألا تستطيع تكلمة القصة، ولكنها عادت بعد لحظة تقول - الذهب.. الذهب.. من عمل الذهب؟ الله...؟.. الشيطان؟. عندما جاءوا «المشاية» يخطبونني لروبيضي طلب أبي سبعين ليرة ذهباً مهراً لي.. ولا عجب.. فقد كنت جميلة، يعتز بي كما كان يعتز بنفسه. وكيف يمكن لذلك أن يتم وروبيضي لا يملك شيئاً؟.. لقد دفع منذ أشهر قليلة كل ما عنده ليتزوج امرأة، ولكن ذلك قد حدث قبل أن يراني. وتقدم «المشاية» بكل ما استطاع روبيضي أن يقترضه ويلزم نفسه به. وقال واحد منهم - لخاطري أنقص عشر ليرات.. وقال آخر ولخاطري أنا أنقص المبلغ عشر

لهرمت أخري .. ولكن أبي رفض خواطرهم جميعاً. فرجعوا وقالوا لروهي لعلنا كل ما أعطيتنا بل وزدنا عليه. ومع ذلك فقد رفض أبوها، فما رأيك؟ قال لرجعوا إليه ووافقوا على كل ما يطلب. وهكذا تم الاتفاق على سجين ليرة ..

- إنه صادق باعظ لقد مرأت بروهي لتكبره في الذهب، وقلت له .. إني مستعدة لأن أحاسب أبي وأذهب معك وليكن بعد ذلك ما يكون .. ولكنه أحابي، .. ما أحفظك .. أنا لا أريدك ليرم ولا لسة .. أريدك للعمر كله .. أتريدين أن يذهبني أبوك أو يذهبك .. ؟ عنبرني صميحة .. وقلبي لا يطاوعني على رؤيتهم يلبسون من أجل دم أجزمهم إليه .. لا تخافي .. سأمر أمراً، وسكونين لي دون أن تتورط في هذه الحماقة ..

وكنت أتق بعقل روهي وشجاعتها فانتظرت والأسابيع تمر وتثني به هي لم تتزعزع، حتى جاسي يوماً وألقى بين يدي خمسين ليرة ذهباً. فسأته - من أين؟ فقال، إنه تشاور مع ريسان بن غاشر، على سرقة حاموس من بيت «وعيب» ولكنهم خابوا ونجوا بحياتهم بمشقة. وبينما هما في طريق عودتهما ملا الحطد قلب حيبي على ريسان وساورته الرغبة في قتله لأنه هو الذي أسد عليه الأمر بمعاينة وأفقدته فرصة الحصول على الخمسين ليرة التي كان يفكر فيها ليل نهار.

- وكان ريسان منبوهاً من فيلته فلو قتل صاع دمه هدراً. وأغار روهي هذا الفكر في رأسه وهم بقتله وقوى ذلك عنه أن تذكر المداواة المستعجلة الثالثة بين النجح وحسرة ريسان ..

- وروهي كان سريعاً في تفكيره كما كان سريعاً في عمله فقال لريسان لسنرح قليلاً بعد فأبو ذهبه. واشعلوا النار ببعض أهواه من الخشب الجاف وجلسا يستدفئان. وبينما هما كذلك، قام روهي إلى

المشحوف وأحضر «المكوار» وضرب به الرجل ثم أسرع وربطه وسحبه إلى المشحوف والقاء به واتجه به إلى قرية الشيخ حسن. وهناك أخفاه في القصب، وأخذ يبحث عن حسن حتى وجده وعرض عليه حياة خصمه ريسان لقاء خمسين ليرة ..

- قال حسن - إن حياة هذا الكلب لا تساوي أكثر من عشرين ليرة، ولكن روهي لم يترحم من المبلغ الذي حده. وبعد مساومة طويلة اتفقا على أن يقتل حسن عدوه لبشفي قبله مه، وأن يدفع لروهي ثمناً وأربعين وخانمي فضة. ودعا معاً إلى القارب. ونطلع حسن إلى عدوه ولا حول له ولا قوة، ثم التفت إلى روهي وقال: - نسحق النقود - أعطني خنجرك .. وهكذا كان مهري حياة ريسان ... !! ..

وتوقفت المرأة ثانية عن الحديث. ثم نهضت وهي تلملم وتلفت قليلاً عند باب الكوخ تنطلع إلى مجهول. وانتظرت أنا صامتاً أتربب عودتها لتكمل الحديث عن قصتها العجيبة. وعادت ثانية وجلست تنطلع إلى النار وقد أشرفت على وجهها التحيل ابتسامة حزينة، ثم قالت - قضينا معاً سنة .. سنة واحدة قصيرة .. ثم جاء علي بن شبيب، يطلب دخالة .. سنة واحدة معه وسبع عشرة سنة وحدي ..! الله يرحمه .. والتفت إلي قائلة: - أهمل الناس عدكم دخالة؟ فهزرت رأسي مبتسماً وأنا أتصور مبلغ حمرة اللونين سالم يرى هارباً من وجه العدالة يتدفع إليه ويتعلق بأقدامه ويلزمه بشرفه أن يمتعه ويحب حتى ولو كلفه ذلك حياته ..!

واستمريت هي نغول، - إنه لم يفعل إلا ما يوجب عليه شرفه، ولكن .. أواه .. يا الله .. كم تكابد نحن النساء .. نحن النساء ..!

- كنا قد عشنا ما يقرب من السنة في حاشية هور قناصفه حتى أخذ مرعى الجاموس يتناقص وعزمت العشيرة على أن تبدل مكانها وتنزل إلى قلب الهور. وكنا نحن ناشرين من اللهاب. فكان كوخنا أول مكان ضمننا

معاً وكنا سعيدين فيه . وحين أخذت العشيرة في الرحيل ، قلنا سنكون آخر من يرحل . آه يا ربي . . ليتنا كنا أول من رحل . ففي آخر يوم ، وبعد أن رحلت آخر جماعة ، كنا ننتظر عودة المشحوف الذي ينقلنا . وقضيت الوقت أغزل صوفاً وأتطلع نحو الماء حيث كان رويضي قد ذهب يصطاد سمكاً وأقبل نحوي بغذائنا . وإذا نحن كذلك ، إذا وقع أقدام وشبح يتجه إلى رويضي يتعلق به ويمسك بأقدامه وهو يصيح ، - أنا «دخيلك» . . خلصني . . وردّ رويضي . . وصلت . . .

- ومرت قذيفة تصفر فوق رأسي ، فأسرع زوجي وأحضر بندقيته من الكوخ . . كان مطارده علي ستة رجال أو سبعة . ومع ذلك ، كفوا عن إطلاق النار من القصب الذي اختبأوا فيه وصاحوا على رويضي يطلبون منه أن يخلي بينهم وبين غريمهم ، ولكنه أجابهم بالرفض قائلاً ، - إنه في دخالتي ولن أتخلي عنه . ولم يكن مع علي سلاح كما أنه لم يطلب لنفسه سلاحاً . . ! كان شاباً جباناً ، على ما يبدو ، . . أو ربما أضاع الركض قواه ، فقد بقي ملقاً حيث هو في مكانه . أما رويضي . . فقد كانت شهرته معروفة في تسديد الرماية في الهور كله . . حتى أن مهاجميه قد تحاشوا أن يخرجوا من القصب ويقتربوا منه . وكان قلبي برغم حراجة الموقف الذي نحن فيه ، ينبض بالزهو وأنا أتطلع إليه وهو وحده في مقابلهم . وسمعت أحد الأعداء يسقط على أثر إطلاق رويضي بندقيته . كما سمعت أيضاً صراخ طفلي فركضت إلى داخل الكوخ لأنقله وأخفيه في مأمن بين القصب . . وعندما عدت وجدت زوجي جريحاً وقد ازداد المهاجمون عليه جراً . . وأخذ الرصاص يتلو بعضه بعضاً . . - ثم توقفت وأشارت إلى أجزاء من جسمها وهي تقول - انظر . . لقد جرحت هامنا وهامنا . . ثم عادت تقول - أحست بقواي تخور وغشيتني غاشية من الإغماء وأنا أحاول الاقتراب من زوجي لأرتمي بجواره . . وفي لحظة فتر فيها صوت الرصاص سمعت رويضي يهمس ، - حبيتي . . أخبري الدخيل أن يأخذ «الجلبية» ويلجأ إلى

الهور عله يجد الحماية من عشيرتي . فجزرت نفسي جرأ حتى استطعت أن
أبلغ الرسالة للشاب . . ثم غلبني الإغماء . وعندما أفقت وجدت زوجي
يرقد ميتاً في بحر من الدماء ، ووجدت الدخيل قد ولى بالجلية . وانتفضت
أبحث عن طفلي . . ولكن حتى الطفل لم يتركوه لي . . ! . .

وانقطع كلامها ، وبدا لي أن جو الحديث قد تلبد . ولكنها عادت
تلتفت إليّ وتقول - آه يا أفندي . . يسميني الناس مجنونة . . ! ولكن على
نوع الحب يكون الجنون

واستغرقنا من الوقت أكثر مما قدرنا ، فقمنا نسرع حتى نعود إلى
القرية قبل أن يأخذنا الظلام .

وأخذ الأخوان ، وقد أنعشتهم الراحة ، يجذفان بقوة والمشحوف
ينطلق بنا مسرعاً في المجرى . وتساءلت ، - أكان ما سمعته صحيحاً؟!
فأجاب بهلول باقتضاب ، - الله عالم . . ولكن جهلول قال ، - الذي أعرفه
هو أن الإنسان يرى الجنية في صورة امرأة جميلة فيريد أن يتزوجها ويحبها
حتى يصبح مخبولاً بها . ويأخذ في التحول والتلاشي وصراخه يتعالى . .
خلتني وراحت عني ، حتى يذوي ويموت من الحزن . وربما كان الذي رآه
المرأة شاباً من الجن تلبس صورة إنسان جميل فأحبته وجنت وراءه حتى
أصبح لا عمل لها اليوم إلا البكاء والنواح ويسمعها كل من مر من هنا ،
ولاسيما في وقت الليل .

وجنحت الشمس إلى الغروب واحمرّ الأفق حتى بدا مكسواً بسحابة
من اللهب . وأصبح كل شيء في دنيا الهور هادئاً . فأطراف القصب الريشية
الطويلة قد توقف اهتزازها فلم تمل يمناً أو يسرة . كما انقطع الهمس بين
نبات البردي ، وأوت الطيور إلى أعشاشها ساكنة في قلب القصب . عدا
ذلك ، كان هواء المساء البارد يلاعب سطح الماء برفق ويحمل في طياته
صدى خفيفاً لنواح بعيد .

وعندما استيقظنا في صباح اليوم الآنني كانت ربيع الجنوب قد نفذت وعيلها وراحت نهب هبواً عنيفاً. كانت السماء قاتمة، تلبدت بالغيوم. ولم نسر بقاربنا طويلاً حتى تفتحت أبوابها بماء منهمر. وتحول عالمنا الأخضر الجميل بالأس إلى أشهب قاتم. ولما تبين بهلول وجهلول أنهما لن ينتظرا الوقاية من ملابسهما بعد تبللها، أسرعوا بخلعها وراحا يجدفان ومياه الأمطار تتساقط وتجري على جسميهما العاريين الأسمرين. أما الحاج ركان وأنا فبقينا نلتمس الدفء في ملابسنا المبتلة ورحنا نقطع الطريق بين مطر أشهب ومياه شهباء ونحيط بنا حواجز شهب من القصب، وتظلنا سماء أكثر شهبية. وكان يذكى في نفوسنا الأمل أن كنا نعلم أننا نقرب من منطقة استقرار في هور مجاور. ولكننا عندما وصلنا إليها وجدنا القرية قد ارتحلت. ووجدنا تناثرها ما زالت مسودة بالدخان فأدركنا أنها، كذلك القرية الأخرى التي مررنا بها في الصباح قد انتقلت منذ عهد قريب.

ومال بهلول وجهلول على مدييهما كتمثالين من البرنز يتطلعان إلى الحاج ركان، وكان صامتاً كذلك. ثم أمرهما بالاستمرار، وقد بدا عليه الحزن كما لو كان قد فقد شيئاً حتى صاح بهلول -. الجزيرة... الصحراء... -.

كانت الصحراء بعيدة ولكنها على بعدها ليست وراء جهدنا. وقد وافق الحاج ركان على اقتراح بهلول مقدراً أننا سنجد الضيافة في الخيام المنتشرة على حواشي المستنقع.

في رحلات كثيرة صحبني التوأمان، ولكن هذه هي المرة الأولى التي بدا لي فيها أنهما قد تعبوا. فقد لاحظت أنهما في يومنا الطويل المرهق هذا قد وقفا منحنيين على مدييهما. ولا عجب، فقد طال انكبابهما على المردى تارة وعلى المجدف آخرى.

ولاحظهما الحاج ركان أيضاً فصاح، - أولادي... يا أولادي... -

صاح هذا ليثير حماسهما ويبعث روح النشاط فيهما . وقد جدد قوله نشاطهما فعلاً ولكن التعب سرعان ما تغلب عليهما .

ثم هبط المساء ومعه توقف المطر . وكنا قد تركنا القصب وخرجنا إلى بركة مكشوفة ، فنهض الحاج ركان وأخذ يفحص المنطقة ويبحث بلهفة عن مكان يرسو فيه قاربنا . ولكن الظلام الدامس جعله يضرب أحساساً لأسداس من غير أن يقطع برأي . ثم قال مشجعاً ، - بعد شيبتي . . بعد لحيتي . . بعد قلبي . . وكان تشجيعه يزداد ويتكرر ونحن نضرب في طريقنا في الظلام . وضحكت لأول مرة طوال هذا اليوم المعتم حين سمعته يقول ، بعد كليتي . . وكنت أضحك عندما أحسست بالقارب يهتز لاصطدامه بالشاطئ . وقال الحاج ركان ، - الحمد لله . . ثم صاح ، هه . . وأرهفنا مسامعنا لعلنا نسمع صوتاً يدلنا على وجود إنسان على مقربة منا . ولم يخب أملنا فقد سمعنا كلباً ينبح . وقطع الحاج ركان الصمت بقوله : وصلنا . . .

العربي وحده هو الذي بقدر على استعمال هذه الكلمة المريحة ، حتى ولو كانت وجهة سفره لا تزال وراء الأفق . وكان علينا أن نجد في الظلام الخيمة التي انبعث من جوارها ذلك النباح الذي بعث الأمل في نفوسنا .

وبقي بهلول وجهلول في القارب وانطلقت مع الحاج ركان نخوض الماء والطين إلى ذلك النباح . وخيل إليّ أن ساعات الكفاح قد طالت حتى وصلنا إلى خيام الحاج «عرار» . وهناك أخذنا الحارس إلى المضيف . ومضيف بني لام خيمة من الشعر وهي غير مضيف البو محمد المصنوع من القصب .

واستقبلنا ابن الشيخ مرحباً . وقام بضيافتنا دون أن تبدو عليه بادرة دهشة بقدوم ضيفين موحليين عند منتصف الليل تقريباً . كانت ملابسنا مبتلة فرأوا أن يضاف الوقود إلى النار المشتعلة . وكان الجوع قد أخذ منا مأخذه ، ومع أننا لم نخبر أحداً بذلك فقد سمعنا صراخ الدجاج . وكانت

هذه الإشارة خير دليل على أنهم أخذوا يعدّون لنا الطعام في هذا الوقت المتأخر من الليل.

واستيقظنا في الصباح على عالم جديد. وبدا لنا أن المستنقع لم يكن بعيداً عنا بمثل ما خيل إلّي في أول الليلة البارحة. ورأينا حولنا قطعاناً من الإبل وأخرى من الغنم، وخيولاً مربوطة وخياماً سوداً من الشعر. ولم يكن هنا من وجه شبه بين بيئة البدو، سكان الصحراء والمعدان سكان الأهوار إلا ما كان من وجود بعض خيام محاطة بسياجيات من حصر القصب.

ورحب بي الشيخ عرار، الذي كان نائماً وقت وصولنا بالأمس. وسألني عما جاء بي في الليل متسللاً كاللص.. وقال، إنه لو أخبر بقدومي لذبح لي خروفاً ورحب بي الترحيب اللائق. ألسنت أنا الذي قدم منذ سنوات خدمة لبيت «عيسى» أعمامه فخيوله من أجل ذلك تصبح خيولي وأولاده عبيدي وعشيرته حراسي، بل إنه هو نفسه مستعد لأن يركب في خدمتي إلى حيث أريد.

وامتدح الحاج ركان فكرة الركوب، إذ كان يتلهف على أن يقضي يوماً أو أكثر يتاجر بين عرب الصحراء الذين كانت خيامهم تمتد قائمة على طول حافة الهور. وإذا كانت لا تتوفر لي فرصة للصيد في هذا الهور الواسع فلا عليّ إلا أن أقوم بزيارة الشيخ «فهد».

الشيخ فهد..؟! إنه اسم يحمل في نبراته السحر والخيال، وكان في وقت ما يتردد على لسان كل فرد. اسم قائد عظيم قدسته قبيلته لأنه حارب وناضل في سبيل الحرية مثلهم الطبيعي الأعلى. وأنا لم أقابل من قبل هذا، هذا الشيخ الذي كان حديث ازدرائه للاتراك وتحديه لهم في شبابه كحديث الأساطير. والذي كان يرى في الاحتلال البريطاني أيضاً تهديداً خطيراً لحرية العرب فاستمر يقاومه ويرفض الاستسلام له، حتى صودرت قطعانه وانتزعت منه أراضيه وأعطيت لمنافسيه، وبقي في الصحراء يكافح

على حين كان العالم حوله يدور بدونه . وها قد جاءت الفرصة لرويته فأمسكت بها مسروراً .

كان طريقنا خلال صحراء قاحلة كانت في يوم ما أرض خصبة وفيرة المياه كثيفة السكان . وها نحن أولاء نرى بأعيننا أكواماً منتشرة هنا وهناك تمثل مواقع مراكز عمران قديم . كما نرى الأرض مفروشة في بعض الأماكن بقطع من الفخار قد خبا لون بعضها وما زال لون بعضها الآخر يلمع ويتلألأ . ونرى كذلك أجراً مبعثراً محفوراً عليه كتابات وصور . وقد نقل بعضه إلى بغداد فلم يعره علماء الآثار اهتماماً كثيراً . ذلك لأنه يمثل عصور «بختنصر» و «أورنامو» وكلاهما قام بعدد كبير من الأسيرة حتى أن بعض مخلفاتها قد استخدمت في بناء كثير من المنازل في القسم الجنوبي من العراق في الوقت الحاضر .

وها نحن أولاء نرى أيضاً آثار مشروعات الري القديم ممثلة في قنوات كبيرة مستقيمة ، تخرج منها على مسافات قنوات أصغر منها . وتبدو هذه القنوات أدق تصميماً من القنوات الحديثة التي قام بحفرها عرب الوقت الحاضر . ويمكن أن تتبع امتدادات تلك القنوات القديمة بتتبع قيعانها المنخفضة أو بتتبع ضفافها . وربما كانت عمليات حفرها وتطهيرها الشاقة هي التي جعلت اليهود ييكون من التعب . ويخيل إلي أنهم قد علقوا قيثاراتهم على أشجار الصفصاف التي كانت نامية على شواطئ هذه القناة التي تسير الآن بجوارها . إنها مهجورة لا ماء فيها ولا شجر ، ولكنها تدل على أن آثار بابل كانت أكبر من مكنسة الخراب التي تنبأ بها «أشعيا» فلم تستطع أن تنظف من آثارها أكثر مما فعلت .

وأشرفنا على خيام الشيخ فهد والشمس توشك أن تغرب ، فاستقبلنا وأدخلنا إلى المضيف . وكان المضيف خيمة سوداء من الشعر كبيرة طويلة ، يفتح صدرها إلى نسيم المساء ، وقد ساعده سقف الخيمة المرتفع على أن

يتحرك ويتجدد. فكان بذلك جو المضيف منعشاً. وعلى أرضه الترابية النظيفة فرشت البسط التي تصنع في القسم الجنوبي من العراق. . وفي وسط المضيف موقدٌ صُفَّت عليه «دلات» القهوة ذوات المناقير الطويلة. وأمام الموقد جلس رجل القهوة ممسكاً «بماشة» طويلة من الحديد يجمع بها جمرات النار المتناثرة حول «الدلات». وفي نواحي المضيف جلس رجال من القبيلة ساكنين. وبين أظهرنا وجدار المضيف، كان صقر الشيخ يتحرك في مكانه بصندوق من خشب «الغرب» قد زين بنطاقات من النحاس الأصفر. وخيل إليّ وأنا أنقل بصري بين الشيخ وبين صقره أن هناك وجوه شبه كبيرة بينهما حتى يبدو أن أدق وصف له هو أن يقال فيه عنه إنه مثل الصقر. كان أقبى الأنف، بارز الذقن، غائر العينين صغير الفم، تنحدر من ذقنه لحية قصيرة شهباء اللون. ويبدو لي أن هذه الصفات كانت تجعل منه - أيام كان شاباً - فتى رائعاً، قوي الشخصية. ولكن أيام فهد العظيم قد ولت، وولى معها بريق عينيه وانطمست معالم التعبير في وجهه فأمسى الآن ولا حيوية فيه. كان وجهه وجه رجل فقد كل شيء حتى لم يبق يكثر شيء.

انعشتنا القهوة كما أنعشتنا الراحة بعد سيرنا الطويل المجهد. ودار الحديث حتى تحول بنا أخيراً إلى عادات العرب. فتنبه الشيخ، وبدا كأنه يوقظ نفسه من التفكير العميق الذي كان قد أخذ نفسه به منذ أن حططنا رحالنا بالمضيف، ثم قال - لا شيء أفضل من عادات العرب، ولكن ما الفائدة؟ إنها تفسد يوماً بعد يوم. - وتجاسرت وحدي أن أرفع صوتي وأقول، كيف؟ فالتفت إليّ وأخذ يتحدث بصوت متهذج، وهو يقول، - اسمع. . هذه قصة حقيقية يعرفها الناس وربما كنت أنت وحدك الذي لا يعرفها. لأمر ما عدل رجل من الخزاعل عن قبيلته ورحل إلى أرض شمر ونزل بجوار أحدهم. فأصبح الشمري - بحكم عاداتنا - مسؤولاً عن استراحته. وفي إحدى الليالي عاد الخزاعلي من رحلة ورأى، بين الإبل

الرابضة حول الخيام، ابن الشمري يحتضن ابنته ويقبلها. وأصبح الشمري فإذا الخزاعلي قد ارتحل بعائلته وماشيته فأحزنه أن يغادره الخزاعلي دون كلمة يودعه بها. وتلاعبت الهواجس بخاطره وخشي أن يكون السبب خطأ ارتكبه أحد أبنائه معه. فدعا ابنه الأكبر وقال له، - لو كنت في شبابي ما تركت فتاة جميلة كابنة الخزاعلي ترحل بغير أن أقبلها. فأجابه ابنه، - هذا عار يا أبي. ودعا ابنه الثاني وقال له مثل ما قال لابنه الأول، فأجاب ما أجاب به أخوه. أما الابن الأصغر فقال، وهو يأمل أن يسر والده بما يقول، لقد بقيت أقبلها حتى ارتمت على صدري -. وقال الأب، - أحسنت يا بني -.

وانطلق الشمري في الصحراء ومعه ابنه الأكبر والأصغر وفي جراب راحلته لفة من الصوف، حتى إذا ابتعدوا عن الخيام انتحى بابنه الأصغر ناحية وقطع رأسه ولفها في الصوف. ثم أمر ابنه الأكبر أن يركب في البحث عن الخزاعلي ليعطيه اللفة. والتقى الابن بالخزاعلي فقال له: هذه اللفة بعثها أبي هدية إليك. وفتح الخزاعلي اللفة فإذا في داخلها رأس ابن الشمري. فعرف أن الشمري قد غسل العار عن بيته، والتفت إلى الابن الأكبر وقال له، - رايتك بيضاء! وعاد معه إلى خيام أبيه. وفي الصمت الذي تلا القصة أخذ صوت الشيخ يعلو ويتهدج ثم قال بحماس مفرع، - «الانجليز شنقوا الشمري...!!».

وبدا الشيخ فهد وكأن الحديث في مثل موضوع هذه القصة قد راقه. كان يروي قصصه وهو يرسل بصره إلى موقد النار دون أن يتجهم أو يحرك يديه. وكانت نبرات صوته وحدها هي التي تعلن عن حماسه.

- هذه الأيام ليست كأيام آبائنا. في أيام أبي قتل حسين، وهو من بيت عبد الخان من بني لام، واحداً من أقارب الشيخ المذكور العظيم، وهرب، ومعه ابنته «عسيلة»، ملتحجاً إلى الشيخ منصور، أحد شيوخ

المتفك . وكانت عيلة شابة جميلة فرغب منصور في زواجها . ولكن بني لام ، كانوا وما زالوا أكرم نسباً من آل المتفك ، يرغبون عن زواج بناتهم لهم . ولم يستطع حسين أن يجابه منصوراً بالرفض لأنه كان مديناً له . وكل ما استطاعه هو أن سأل أن يؤجل الزواج يوماً واحداً ليعتد بخيمته مسافة مناسبة . وبعد ذلك يستطيع ان يتفضل منصور ويركب إليه ويسأله بدها . وهذا أكرم له وأبقى به . ونسرت حسين بالليل ومعه ابنته وهربا وهبرا نهر دجلة بعبارة عند الكمين . ثم قصدا خيام الشيخ المذكور ودخلا مضيفه . وربط حسين نفسه «بكوفيته» في عمود المضيف وشهر سيفه وقال ، - بهذا خذ حياتي على أن تبقي هذه الفتاة في حمايتك . فقال الشيخ المذكور - تكلم وأفصح . - فقال حسين ، - يا محفوظ بالله . . ابنتي هذه رغب في زواجها الشيخ منصور ، وهي من بني لام وهو من المتفك . وقد فضلت أن تذبحني بسيفك على أن أزوجه من آل المتفك . فقال الشيخ المذكور العظيم - أحسنت . . أحسنت . . والدم الذي سفكته فداء لك . ونعفيك من الفصل والدية ونعطيك أرض الصبيحة إقطاعاً لك . . وختم الشيخ فهد حديثه وهو يقول : ، - أيفعل اليوم شيوخ بني لام مثل هذا؟ . -

إن معرفتي بقبائل الخزاعل وشمر ليست كبيرة أما بنو لام فمعرفتي بهم كبيرة وعميقة . فقد قضيت في خيامهم أياماً ولي معرفة ، بل صداقة بالخاصة منهم . والحق أن الشيخ فهد قد استند في إشارته الأخيرة على أساس .

منذ قرن من الزمن كانت شريعة بني لام لها في الصحراء سلطان لا ينكر . وكانت الفضائل الكريمة التي أفشتها هذه القصص ومثلها ، كالإباء والكرم والشجاعة والتضحية ، تراعى وتحترم . إلا أن بني لام قد أخذوا في السنوات الأخيرة بمزفون عن الضرب في الصحراء . وترفع شيوخهم عن أن يستمروا رعاة وأصحاب قطعان من الماشية ، وأخذوا يستخرون بزرعون الأرض . واستحوذت عليهم الراحة والرغبة في الغنى كما

ركبهم الشره والطمع. وهكذا دب فيهم الفساد. ولا يلقى اللوم في ذلك على الأتراك أو على الإنجليز وإنما المعلوم هم العرب أنفسهم الذين هجروا شريعة الصحراء. ويضاف بعض اللوم في ذلك إلى الحكومات العراقية الماضية منها والحالية. فهي في سياستها الرسمية تسعى إلى إسكان البدو، ولا بد أن يترتب على ذلك انحلالهم. لأن البدوي، كما أعرف، لا يكاد يفقد بدويته حتى يفقد معها فضائلها. ومن قبل، كان البدو يحملون لأهل المدن ما كان يجعلهم، حين يهبطون إلى القرى الصغيرة في حواشي الصحراء ليتاجروا، يشمخون بأنوفهم ويودون لو سكنت حركة أنوفهم عن أن تتنفس هواء المدن العفن. ترى أنهدبهم فطرتهم إلى حكمة هي خير من حكمة أولئك الذين يفرونهم بهجر الصحراء...؟!

حيانا الشيخ فهد نجة الماء وانصرف إلى خيمته. كان رجلاً مثالياً، وقف حياته للدفاع عن مثله وقد هزم ولكنه لم يستسلم. إنه أبدأ رجل عظيم، ولكن بعضاً من العرب قد قسوا عليه حين قالوا «سيفه من الرصاص يلمع ولكنه لا يقطع».

الفصل الثالث

الحج

بعد أن قضينا وقتاً طويلاً في جداول ضيقة ومتعرجة دخلنا في مجرى ماؤه صاف وقد طفا على سطحه الكثير من النباتات المائية التي هي وإن كانت تضايق أصحاب القوارب ذات جمال أخاذ. وقد تعاونت بأزهارها ذات الألوان المختلفة على تلوين المستنقع وإكسابه بهجة. ثم دلفنا إلى مجرى آخر لم نجد فيه لمثل هذه النباتات وجود فأدركنا أنه مطروق ويكثر مرور القوارب فيه. وفي أثناء تقدمنا رأينا مجذافاً قد غرس في القاع إشارة إلى أن صاحبه قد ألقى هناك ببعض السم للسماك. كما رأينا شبكة منصوبة لصيد الطيور. وكان النسيم يحمل إلينا أصداء أصوات بعيدة، كما حمل من مجرى مجاور محجوز عنا بحائط سميك من القصب غناءً شجياً ترددته امرأتان وهما تجذفان في طريقهما إلى القرية. والفتاة من المعدان تتمتع بمميزات ليست لفتيات الطبقة التي تلي طبقتهما رقباً. فهي تمشي سافرة ولها ما للفتاة الإنجليزية في أخذ زينتها وتمشيط شعرها لملاقاة حبيبها حين تواتي فرصة اللقاء. وكلما ارتفع المستوى أخذت عزلة المرأة تشتد وتقوى. فالشيخ الغني مثلاً يجعل حاجزاً من القصب أو حائطاً من الطين حجاباً حول نسائه. والشيخ في قبائل الصحراء يعلق حين يرتحل بعض الأقمشة الملونة على البعير الذي يتقدم الإبل ويعد ذلك بمشابة تحذير للرجال الآخرين بأن يتجنبوا الطريق الذي تمر فيه نساء

الشيخ. وكلما زاد كبر الشيخ كانت عزلة نساه أشد وأحكم. ويبدو الأمر غريباً أيضاً في المدن من الطبقة الغنية. فامرأة هذه الطبقة تكون تامة الحجاب. ونسبي إلا نرى خطيبها وألا يراها إلا في غرفة العرس حيث يكشف كل منهما في صاحبه عن الصورة التي نقلتها إليه الخاطبات. وقد يحدث أن تكون الصورة التي رسمتها الخاطبات قد زخرفت بالقول ورمتها الهدايا التي أعطيت لهن.

كانت إحدى المرأتين المجنبتين في المشحوف في المجرى المحبوب عا نعي قاتلة :-

ليها قلب ذو الصبغة الخضراء
والذي صبغ قلعه حديقاً بالحناء
لموت بسيف لبي خير من أن يكون له
وكانت المرأة الأخرى نعي الأخت التالية:

لا لجد لملاح يتكفني إليه
ولا لي القردة على السبلعة
سقطت في هذا الجنب كالمسمومة اقترنح في حبه.

وأثار هذا الغناء مشاعر جهلولة فصاح، وهو يضرب بالمجانيق ضربات سريعة، - هاه... هاه... ألف هلا... ألف هلا... عني بعد... ولكن الصمت كان جوابه.

وبعد قليل، أشرفا على رجل يقطع القصب بمنجله وقد تمرى أو كاد فبرزت عضلاته تحت جلده. وحياء الحاج ركان عند مرور قارينا به، - الله يقيوك - فرد عليه الرجل، - الله يحفظك - ثم صاح بعد أن ابتلعنا عنه قلباً، - الخطر في طريقكم - فرد الحاج ركان مسرعاً، هاه... وكان رد الرجل بالتأكيد، على والله... وقد اتضح أن هناك جماعة من «البنات»

الذين في نار مع عشيرة الحاج ركان قد سبفونا إلى القرية التي كنا نحن متجهين إليها للميت .

تردد الحاج ركان قليلاً ثم قال مقترحاً ، بيت السواد . . ؟ فكانت إجابة قاطع النصب شالوا كانت الإجابة محرنة لنا ، كما كان الحاج ركان يرغب في أن ينجب بأي ثمن مواجهة أعدائه من البشاعة . ولهذا حزمنا أمرنا على أن نتجه إلى الايشان الذي هجره بيت السواد لتنام فيه في الأقل إذ ليس هناك مكان آخر أقرب إلينا منه .

ووصلنا إلى الجزيرة المهجورة والليل مظلم . وانهمك بهلول وجهلول في إلقاء النار وطهي الطعام وإن كانت أيديهم لم تعود الطهي من قبل . أما أنا والحاج ركان فقد أخذنا نتحدث عن الثارات التي كانت السبب في قضاء ليلتنا بهذه الجزيرة الموحشة . ثم انتقل الحديث بنا عن الثارات عامة وعن قواعد الفصل المنحة بين القاتل لعلها .

يقول «داونتي» في بعض كتاباته ، إن الأطفال من البنات في الطبقات المسلمة الفقيرة صبه له منعت البسيرة . وفلك لأن الآباء في النهاية لا يعطون إلا مبالغ ضئيلة حين يتصلون عنهم بالزواج . ومع ذلك فإن هذه المبالغ التي تعطى بمثابة صداق تمثل تعويضاً زهيداً للآباء الذين يكون الفصل مصير بناتهم .

وبين العرب ما زال القانون الذي وضعه الإسلام نافذاً ، فالنفس بالنفس والعين بالعين والسن بالسن والجروح قصاص . فلكل ضرر تعويضه . والتوقف عن الأخذ بهذا القانون هو الذي يؤدي إلى إثارة الحروب ولباقة الدماء . وبحول القتل من جريمة بشعة إلى واجب حتمي . وسبب في هذا أن يحدث قبلة أو يحدث في معركة .

على أن التعويض عن الضرر في جسم الإنسان أو شرفه أو في ماله يختلف كثيراً في قبيلة عن قبيلة أخرى . ففي واحدة منها مثلاً يكون الفصل

في قتل كلب بتغطية جسمه كله بالحبوب بينما لا يكون في أخرى بأقل من امرأة.

أما حالات القتل فيكون الفصل فيها عند القبائل جميعها بالنساء، باثنتين أو بأربع أو بست . . . ويزيد العدد أو ينقص بمقدار قيمة القبيلة وبمقدار العلاقة بين القاتل والمقتول. فإذا كانا من عشيرة واحدة يكون التعويض أكبر مما لو كانا من عشيرتين مختلفتين لا تربط بينهما صلات الدم. وتتبع طرق الفصل في إنهاء الثارات بين القبائل أيضاً. فبين القبيلتين المتحاربتين يدفع الفصل للقبيلة الموتورة التي يزيد عدد قتلاها عن قتلى الأخرى. ويكون بتقديم اثنتين أو أكثر من النساء عن كل قتيل من العدد الزائد.

والمرأة المفصول بها تكون سيئة الحظ. إذ تنزع من بين أهلها، ما دامت قد بلغت سن الزواج وهو الثانية عشرة، وتسلم إلى القبيلة الأخرى المعادية. أما إذا كانت سنها أقل من تلك السن فتبقى عند أهلها حتى تبلغه ومن ثم يجب أن تسلم إلى القبيلة المفصول لها بها. وإذا حدث أن كانت عقيماً امتهنت بردها إلى أهلها والمطالبة بأخرى بدلاً منها. وفي بعض القبائل يجوز للمرأة المفصول بها عند إنجابها طفلاً للعشيرة الموتورة أن تترك طفلها وتعود إلى عشيرتها، بشرط أن يرد إلى زوجها السابق ما أنفقه عليها.

وتصبح المرأة المفصول بها متاعاً سائغاً لمن دخلت في حوزته. وكثيراً ما تسوء معاملته لها وقل أن تحسن. وفي كل حالة، ليس من حقها أن تطلب الانفصال عنه. وهي في هذا لا تتميز عن الأمة الرقيقة إلا في ناحية أن صاحبها لا يجوز له أن يقتلها. فإن قتلها وجب عليه أن يعرض أهلها بتقديم امرأة أخرى بدلاً منها. وقد يبدو غريباً للعقلية الغربية ألا يستبدل بالفصل بالنقود الفصل بالنساء. ولكن العرب قد عرفوا بخبرتهم

الطويلة أن هذا الفصل الأخير أبعد أثراً في تأكيد إقامة الروابط الودية بين القبائل المتعادية من الفصل النقدي. ومع ذلك، في الفصل بالنساء امتهان كبير لكرامة المرأة ولمشاعرها. فهي قد أصبحت كالنقد، أو أصبحت كالماشية لا رأي لها وهي تنقل من يد مالك إلى يد آخر، تدفع تعويضاً عن جرائم يرتكبها الرجال. ويطلب منها بالإضافة أن تسير فوق مستوى خلقي معين يقع فوق مستوى الرجال. وإذا هي انحرفت عنه ولو قليلاً عرضت نفسها للموت. بل إنها تتعرض للموت، على مجرد الشك، من أقرب الناس إليها. وإذا انحرفت المرأة أو جرى حولها همس بالشك في سلوكها لا يكون الزوج مسؤولاً عنها إلا إذا كان ابن عمها. أما إذا كان آخر فليس له إلا أن يبعثها إلى أهلها ليتولى أبوها أو أحد أفراد أسرتها تنفيذ الجزاء عليها. وكثيراً ما تؤخذ إلى بقعة مهجورة لنسب وتعزر ثم يجهز عليها الخنجر أو نحوه. ويقطع القاتل يدها اليمنى دليلاً على أنه قد قام بغسل شرفه فلا يتعرض لأن يعيره أحد بعد.

وقد يكون الرجل رقيق المشاعر ومع ذلك فإن الرأي العام، بالقول أو بالإشارة، يرغمه على أن يقوم بما يوجب العرف عليه أن يقوم به. والعرف على أن عقاب الفاجرة الموت ولا يحول دونه أي رباط عائلي. فهذان الأخوان التوأمان بهلول وجهلول قد تحابا وربطتهما رباط الأخوة المتين. وكذلك كان الشأن بينهما وبين أختهما التي رأيتها معهما منذ بضع سنوات. ومع ذلك علمت من الحاج ركان أن بهلولاً قد قتلها بيديه لأن جاره قد غمزه بها في ساعة اختصام وقع بينهما. والقصة، كما يقول الحاج ركان، أن بهلولاً عاد إلى صريفته فأخبره أخوه الصغير أن «جحيط» ضربه. واندفع بهلول في سورة غضبه إلى جحيط. وجرى الكلام بينهما حاداً عنيفاً حتى قال جحيط، - أكل هذا من أجل ضربة طفل صغير على ظهره؟!... أكل هذا وأنت تسكت عن أختك وهي تدنس شرف عشيرتنا مع «راضي»؟!... واحتبس بهلول عن الكلام وعاد مسرعاً إلى صريفته أمه فوجد

أخته «فريجة» جالسة. فقال، ويده مرفوعة نحوها بخنجره، - الموت جزاء الفاجرة... - وطعنها به طعنتين.

أفزعتني هذه الفعلة الوحشية من بهلول، وزاد منها أنها لمحض تعبير أو سب في ساعة خصام، وربما لا يكون لها أساس من الصحة. ولكن الحاج ركان أجابني، - لا... لها أساس... لأن جحيط ما كان يجسر... ولو أنه كان مفترياً على فريجة لألزم بتقديم خمس نساء بدلاً منها لأنه سبب قتلها بغير إثم. وقد قام بهلول بما تقره العشيرة عليه وتكبره، لأنه حافظ بفعله على شرف جميع أبنائها... - وأقبل بهلول نحونا بالعشاء فخشيت أن يهيج له الاستمرار في الحديث شجون نفسه فأسرعت أديره وجهة أخرى بقولي، حجي ألا تحدثني عن حجك إلى مكة؟ فقال وهو يحرك الشاي بقطعة من القصب، مكة...!؟ مكة المشرفة... بل الكعبة... - ثم صاح وهو يعتدل في جلسته ويرد طرف كوفيته إلى الوراء، - ايشلون رحلة... ايشلون جراً...، أي ما أصعبها رحلة وما أشجعه في الجسارة عليها. وقال بهلول مصداقاً على قول خاله - إي والله... - واستمر الحاج ركان في حديثه يقول، وحياة ربنا رحلة جريئة... إي وحياة علي بن أبي طالب... أستطيع أحد غيري أن يترك المأوى والسلامة مشجعاً، - ولهم الحق في أن يخافوا... فمن الذي غادر الهور ثم رجع إليه؟... ألا يذكرون عبيد بن بكر...؟ ولكن الحاج ركان قاطعه بقوله، بلى يا ابني... قصته أولى من غيرها بالذكر... الله يرحمه...

- كان عبيد صياد سمك ويبادل ما يصطاده بالتمر والتبغ مع موسى الخنايب وهو مثلي يتجول بتجارته. وحدث أن التقى عبيد بصابئي حداد ينتقل من قرية إلى أخرى ليصلح المشاحيف، وتحدث معه فهزى الصابئي من قلة التمر والتبغ التي يأخذها مقابل سمكه من موسى وقال لو أنك تذهب بسمكك إلى سوق العمارة لكان ربحك منه أضعافاً مضاعفة. وفعلت عبارة الصابئي فعلها في نفس عبيد. فجذّ هو وإخوته وأبناء عمومته ليل نهار

حتى إذا امتلأ القارب بالسّمك انحدر إلى العمارة وراح، ولكنه لم يرجع... - وعقب جهلول على قصة عبيد بقوله، - وتنسى يا خالي عمتي؟ - فقاطعه خاله وهو يلتفت إلي بقوله، - يقصد «خديفة»..

وفي تلك اللحظة أقبل بهلول بماعون الأرز وبأرغفة خبز خبزها بنفسه. وجلسنا حول طعامنا، حتى إذا انتهينا منه وغسلنا أيدينا التفت نحو الحاج ركان وقلت، ما قصة خديفة؟ فقال، - خديفة امرأة عاشت بيننا سنين طويلة عاقراً ثم رزقها الله بنتاً أخيراً. وقد ساءها ذلك ولكنها أملت نفسها في أن تصبح يوماً أمّاً لأولاد كثيرين بابنتها هذه. وحدث أن تشاجر رجل من عشيرتنا مع رجل آخر من بني حرب، وهم رعاة إبل يضربون في الصحراء، ورفع صاحبنا خنجره وطعن به الرجل. وكان الفصل فأعطينا ثلاثاً من النسوة كانت إحداهن بنت خديفة. رأيت مثل هذا...؟! فمن يستطيع في بعدها أن يعزي خديفة وقد فقدت البنت وفقدت معها ما أملت من أولاد..؟

وشغلت خديفة بالبكاء والنحيب حتى مر بنا ذات يوم رجل يقول إن ابنة خديفة قد ولدت ولداً. فملأ الفرح قلب المرأة كما ملأه الحزن. فرحت لأن ابنتها صارت أمّاً وحزنت لأنها لا تملك أن ترى الطفل بعينيها. ثم بلغها أن الغريب عائد إلى موطنه الذي يقع على مسيرة ثلاثة أيام من خيام بني حرب. فأقبلت عليه وظلت تتوسل حتى قبل أن يحملها معه في مشحوفه. وأخذت ما لديها من نقود قليلة جمعتها واشترت بها قلادة من الفضة مرصعة بالفيروز لتقدمها هدية للطفل. وعند شاطئ النهر وعلى مقربة من الصحراء التي يسكنها بنو حرب تركها حسن بعد أن أعطاها شيئاً من التمر وقربة صغيرة من الماء. وودعها بقوله، - الله وياكي - وهو يراها تضرب منفردة نحو الخيام البعيدة التي تعيش فيها ابنتها. وختم الحاج ركان حديثه بقوله، - ومنذ ذلك الوقت لم ير أحد خديفة أو سمع خبراً عنها.

أخذ النهار الحار يولي ويتحول إلى مساء رطب. وكان الندى غزيراً حتى تبللت ملابسنا كما لو كانت من المطر. وليبالغ الحاج ركان في سبيل راحتي، أو هذا ما ظننته، أرسل الولدين ليجمعاً وقوداً نشعل به ناراً لتجفيف ملابسنا. وعندما ذهبوا اقترب مني وانحنى يحدثني بصوت هامس وقال، - بسبب صداقتنا لا يخفى شيء بيننا. وقد أبعدت الأولاد حتى لا يسمعوا القصة التي سأرويها لك. ولك وحدك أقول كل شيء - . ثم توقف قليلاً ليعطيني الفرصة لتقدير ثقته التي شرفني بها، وقال، - بسبب جنون زوج אחتي أصبحت أنا حجي، وإليك القصة. אחتي الأخرى، غير أم هذين الولدين، تزوجها طالب بن عبد الوهاب. وكان عبد الوهاب قد تزوج أربع زوجات وبقي لا ينجب أطفالاً، وتعرض لسخرية الناس بسبب ذلك. وازدادت سخرية الناس له عندما تزوج الخامسة. وكان الله رحيماً به فأنعم عليه أخيراً منها بولد. وأخذه عبد الوهاب ورفع فوق رأسه حامداً الله ومقسماً أن ولده طالب هذا سيزور العباس العظيم ويقدم قلادته وأقراط أذنيه نذراً له. وبينما الطفل لا يزال على صدر أمه مات عبد الوهاب. ونما الطفل وأصبح رجلاً وتزوج وأنجب أولاداً ولكن النذر الذي نذره والده بقي ولم يوف به. ومثل هذا النذر للعباس لا ينبغي نسيانه أو الاستهانة به.

وفي إحدى الليالي استيقظت אחتي فزعة من نومها على صوت طالب يصبح عليها، - مطيرة.. مطيرة.. . لقد حلمت حلماً مرعباً... العباس غاضب عليّ لأنني لم أوف النذر المقدس الذي نذره أبي - . وعكف على رأسها يقبله وأقسم أنه لن يحلق رأسه حتى يوفي النذر ويزور العباس. وطلع الصبح فتطلعت إليه אחتي فوجدته على غير طبيعته. وصار الناس يقبلون عليه فكان يستقبل كل زائر صارخاً، آه... العباس بن علي الحبيب سأوفي له نذره. وما كان طالب يؤذي أحداً حتى كان يوم خرج فيه مبتعداً في الهور فضربه شخص غريب عنا عندما هم به طالب يقبله ويحتضنه.

ومنذ ذلك الوقت قد جن جنونه فصار شرساً يضرب الناس ويؤذيهم، وصار الناس بدورهم يجافونه . ويتعدون عنه .

وظافت مطيرة بكل أقرانها نرجوهم وتتوسل إليهم أن يصحبوها في زيارة العباس . وقالت عن تكاليف الرحلة أنها ستبيع حليها وفراشها وتعطي من يرافقها كل ما تملك ، ولا تحتفظ إلا بليرة ذهب واحدة ليلقيها طالب بيده في صندوق العباس . . العباس الحبيب . . باعت الماء للعطشان . . سيففر لنا ويرجع طالباً إلينا سالمًا كما كان، ولكنهم ردوها وخيبروا أملها . ومن ذا الذي يرضى أن يترك مأواه في هذا القصب ويغامر معها في رحلة طويلة خطيرة؟ . لقد توسلت بدموعها إلي وأنا أخوها ومع ذلك رددتها في هذا الأمر ولم أكن معها أحسن من غيري . قلت لها : أنت عندي مثل عيني . ولكن كيف أستطيع ترك عشني وأسافر معك وهذه زوجتي أيضاً توشك أن تضع حملها؟ . ولم أقل لها غير الحق . فقد كانت امرأتي الأولى وكان قلبي وقتئذ معها . . وألقى الحاج ركان بعقب سيكارتة وحدث في القمر كأنما يستعيد إلى ذاكرته ما كان، ثم قال، - العجب . . العجب ممن تنمحي من ذاكرته صورة زوجه الأولى . إني أعرف أناساً ظلوا يلهجون باسم زوجتهم الأولى وهم في ساعة الاحتضار على فراش الموت . وكانوا يلهجون باسمها مع أنها كانت قد ماتت أو طلفت من عهد بعيد . .

- وأنا، سامحني الله، قد رددت مطيرة خائبة فجازاني الله على ذلك وهو سريع الجزاء . .

- نقلت زوجتي إلى صريفة أمها لأنها كانت تلد أول مرة . وقصدت الصريفة فسمعنها تستنجد صائحة، يا علي . . يا أمير المؤمنين . . وأمير المؤمنين هو المعين للنساء في ساعة المخاض . وعرفت أن ساعة الفرج قريبة فانتظرت وطال انتظاري أن أسمع صيحات الفرح من الجدات فأدركت أن المولود بنت وانصرفت مهموماً محسوراً .

وحين أوشك النهار أن ينتهي سمعت نحيباً يتزايد ويتعالى، وجاء رسل يريدون أن يقولوا لي شيئاً فأدرت وجهي عنهم وانصرفت وأنا أدري بما عندهم. لقد ماتت الأم كما ماتت الطفلة..! وبعد أن وارىت زوجي وطفلتها في التراب بدا لي المستنقع موحشاً بغيضاً. فذهبت إلى أختي مطيرة وعرضت عليها قبولي مرافقتها هي ومرافقة زوجها طالب إلى العباس. وفرحت واستبشرت حين قلت لها: سيكون طالب في رعايتي وسيعود من الزيارة سالماً موفور العافية..

وتبددت سحابة الغم من وجه الحاج ركان وانبسبت أساريره حين أخذ في تذكر رحلته التي قام بها خارج الهور. كان قد مضى عليها عشرون سنة، ومع ذلك كانت أحداثها في ذهنه كما لو كانت بالأمس. كان يتوقف ويفض في أدق ما حصل له في أثناء الرحلة حتى كان الحدث التافه يتحول إلى مغامرة جسيمة خطيرة.

وسار الركب صوب كربلاء حين وفق الأخ والأخت في حمل المسكين طالب على أن يقوم بالرحلة معهما. واستطاعا أن يدخلوا السرور إلى نفسه فظل القارب هادئاً. وجاوزوا حدود الهور وصعدوا في النهر ولم يحدث في الرحلة ما يعكر صفوها. وباقترابهم من المزار صار يزداد عدد الزوار. وأخذ يجتازهم بين الحين والحين جثث قد حملت على خيل أو على بغال وجيء بها لتدفن في رحاب الضريح الطاهر. وقاربت الرحلة نهايتها حين لاحت لهم القبتان الذهبيتان، فكانتا بمثابة إنعاش لنفوس الزوار الذين أتعبهم السير. وأخيراً خطوا الرحال في كربلاء.

على أن الحاج ركان قد لقي في المدينة المقدسة ما خيب أمله فيها. هذا صاحب الخان قد أعطاه منه زاوية صغيرة وطلب منه أجراً كان في نظر الحجي يزيد عن ثمن الخان كله. وعندما ألح عليهم الجوع وخرج لشراء ما يأكلونه بدت له أسعار المأكولات خيالية. ويقول، - إنه قد أطل

المساومة، والجوع القاتل وحده هو الذي أرغمه على قبول تلك الأسعار. وعاد إلى الخان وهو يحمل في ذهنه عن المدينة المقدسة فكرة سيئة. وثبت في ذهنه تلك الفكرة أن وجد من أدياء الدين ما هو شر مما وجدته من صاحب الخان وتجار الطعام. فهذا يقبل عليه بلطف وبشاشة ويسأله أين خمس الله؟.. أين حصة الإمام؟.. وذاك يمسك به ويقول، ألا تدفع شيئاً لرد المظالم؟.. ودخل الضريح المقدس فتعلق به أحد الخدم يقول، - ادفع لكيس العباس -. وما إن تركه هذا حتى أمسك بكتفه آخر وبادره قائلاً، - ادفع يتضاعف ثوابك سبعين مرة. وما إن تركه هذا حتى أمسك بشيابه ثالث وهو يقول: ادفع لكيس جدّي النبي.. وخلّوا سبيله بعد أن بلغوا منه ما أرادوا، وإذا هو قد نفّض جيبه وأفلس. فراح وقد برح به الغيظ ينوسل إلى أخته أن تسارع إلى زيارة العباس حتى يعودوا أدراجهم مسرعين إلى مأواهم الأمين في الهور.

- وعدنا إلى الهور فخرجت عشيرتنا لاستقبالنا فرحة تهوس وتطلق النار. لقد خيل إليها أننا يوم سافرنا قد ودعناها إلى الأبد. وأراد أحد أعمامي أن يمازحني فناداني يا حجي. وهكذا علفت التسمية بي ولو أنني لم أنقل خطوة واحدة إلى مكة. وقد شجعتني على الاحتفاظ بها أن وجدتتها تضفي عليّ هيبة ووقاراً في معاملاتي ولاسيما ما كان منها في خارج الهور. كما وجدت أن الشيوخ قد نسوا وأن الشبان لا علم لهم بالحقيقة. وإني والله - ليخيل إلي أحياناً أنني حججت فعلاً -.

ولمعت عينا الحاج ركان ولكنه ما لبث أن عاد إلى وقاره وقال: - كلّ الناس الآن تناديني بالحاجي. وأنا لصداقتي القوية بك قلت لك وحدك الحقيقة. ونظر إليّ ليرى كيف كان وقع اعترافه في نفسي، فقلت، يا حجي.. وماذا كان من أمر طالب؟ أشفاه العباس من جنونه؟ وبدا عليه الاستغراب من مداومتي على ندائه بالحجي بعد اعترافه لي ثم ابتسم وقال: - بالله عليك.. أي سؤال هذا..؟! ألم أقل لك إن الخدم قد أخذوا كل ما

معنا؟، فكيف يرضى العباس، وهو أبو «الرأس الحار» لنفسه بليرة
واحدة...؟! لا... لا... لا.. لقد رجع طالب بجنونه كما ذهب، وبقي على
جنونه حتى مات والله يرحمه ..

الفصل الرابع

علي الشرقي

لشد ما عجبت من طلب الحاج ركان أن يكون نزولي عند الكميت المدينة الصغيرة، مع أنها تقع على مبعدة من الهور بنحو خمسين أو ستين ميلاً. على أنني قلت لنفسي سأعرف السبب بعد قليل. فالبخرة التي كنت أركبها كانت تجري نازلة في نهر دجلة مسرعة في تيار فيضان الربيع. وها هو ذا يلوح أمامي دغل الصفصاف كما تلوح النخلة الوحيدة التي يتميز بها مدخل الكميت.

كان الفيضان عالياً لا كمادته. وقد لاحظت في طريقنا الزراع على جانبي المجرى في أكثر من مكان منهمكين في تغطية الضفاف وتقويتها بالأتربة ليأمنوا على زروعهم من طغيان المياه العاتية عليها. ونظراً للانحدار السريع لسطح الأرض من الجوانب فإن حدوث كسر واحد في جسر من جسور النهر، أو وجود منطقة منها غير معلاة أو غير مقواة يعرض مساحات واسعة من الأراضي المزروعة بالغلات الشتوية إلى طغيان المياه عليها. وسمعت ونحن نقترّب من الكميت صراخ طائفة يائسة من الزراع كانت تعمل جاهدة بمساحيها ذات الأيدي الطويلة. كما رأيت امرأة تجري على ضفة النهر المقابلة وتلوح بيديها متوسلة. كان من الواضح أنهم مرتعبون، خافوا أن تؤثر الأمواج التي تحدثها الباخرة على السدة التي يقومون بتقويتها. ولكن صراخهم وتوسلهم كان عبثاً فقد تغلبت الأمواج العاتية على

سدتهم في نقطة الضعف فيها. ولا أدري مقدار الضرر الذي حدث فإن المنظر سرعان ما اختفى عن بصري.

وصلت الباخرة إلى الكميت واستقبلني الحاج ركان مرحباً، وراح يقبلني قبلات عديدة على خدي. ولم لا، ألسنا صديقين قديمين...؟ وأخذنا نشق طريقنا بين أكوام عالية من جلود الأغنام وخلال الجمع الصغير الذي وقف يشاهد وصول الباخرة. وقادني الحاج ركان إلى «الشاية». وفي هذا القارب الصغير ألقينا بأنفسنا على صدر نهر دجلة الشاثر. وما إن صعدنا في النهر قليلاً حتى عرفت السبب الذي من أجله أراد الحاج ركان أن يكون لقاؤنا في الكميت. ذلك أنه كان معتاداً أن يقوم كل سنة برحلة أو رحلتين إلى بعض القبائل في صحراء بني لام التي تمتد وراء المستنقع الذي تغذيه أخوار الطيب ودويريج المنحدرة من تلال إيران. وكان يختار الطريق الذي يمر على مقربة من ضريح علي الشرقي حتى يجمع بين التجارة وبين الواجب الديني بزيارة الضريح. ولذلك جعل مقابلتنا في أقرب مكان تصله الباخرة من ذلك الطريق. ولما كنت مضطراً أن أقضي ليلة مع صديقي القديم الشيخ «ناصر» الذي كنا بقاربنا نتجه نحو خيامه فقد اقترح الحاج ركان أن يتركني هناك في صباح اليوم التالي ويقوم هو وحده بزيارة الضريح.

ورأيت القبة الزرقاء بارزة تعلو أشجار الصفصاف النامية هناك. وفي منظرها إنعاش للمسافر في النهر بعد أن أجهد عينيه في مسافات طويلة منظر الجسور النرابية الذي لا يتغير. وتحت ظلال الأشجار التي تضخمت سيقانها وانتشرت أغصانها تبثر زوار الضريح من الحجاج الذين قدموا من اتجاهات مختلفة استجابة لاعتقاد عام يجمع بينهم. وقد استطعنا رؤيتهم عند مرورنا بهم جالسين في جماعات صغيرة داخل خيام، وتبدو كل جماعة منهم مؤلفة من أربع عائلات أو خمس، وحولها الأطفال والدجاج ومواعين الطعام وخروف واحد أحياناً أو خروفان. وبينما كان الرجال جالسين على

جانب يَدْخَنون في صمت أو يتحدثون كانت النساء مشغولات في طهي الطعام بوقود جمعه من شوك الجمل. وعلى ضوء النيران المشتعلة بدت ملابس النساء الحمراء منها أو الخضراء غير منجمة مع «شيلاتهن» القائمة السوداء على رؤوسهن. وكانت أجسام العراة من الأطفال سمراء تلمع في ضوء اللهب ويحمل الهواء الساكن إلينا صدى أصواتهم التي لا تنقطع. وفيما عدا ذلك، كان هناك بجانب الشاطئ صف طويل من المشاحيف التي جاء بها بعض هذه الجماعات.

على أن ضريح علي الشرقي، مع ذلك، ليس بالمكان المبهج دائماً لحجائه. وذلك لأن له ناحية أخرى خطيرة. فبين أبناء العرب كما هو بين أبناء الشعوب الأخرى يوجد كذابون. وقد يغالي هؤلاء، دون رادع، فيحلفون كذباً بشرفهم ومقدساتهم الأخرى. إلا أنه في المحيط العربي مع ذلك توجد بعض أضرحة لها قداسة خاصة، وتواترت عنها إشاعات تناقلتها الأجيال بأن لها من القوة ما يمنع أي عربي من أن يحلف بها كذباً، ومن بينها ضريح علي الشرقي.

ولعلي الشرقي وضريحه احترام لا حد له بين العرب، وإن لم تكن له صورة تاريخية مهمة واضحة. وليس من السهل العثور على أشياء كثيرة عن حياته. ومعظم ما يعرف عنه يقوم على ما ينسب إليه من كرامات. وترجع شهرته المدوية فيما يبدو إلى ما ينعكس عليه من الشهرة الكبيرة التي لأخيه علي الرضا ذي الضريح المكرم في إيران والذي يحج إليه سنوياً عدد كبير من الناس. كما ترجع إلى شهرة أبيه العظيم الذي أعطى اسمه لجامعه المشهور في الكاظمية، ضاحية بغداد.

عندما ابتعد بنا القارب عن ضريح علي الشرقي أبدى الملاح ملاحظة لم أستطع فهمها تماماً. ولكن الدفاع الحار الذي أخذ به الحاج ركان خيل إلي أن هناك بعض الشك في مقدرة علي.

وعندما انصرف البحار عنا إلى عمله بأفكاره غير الورعة اقترب مني الحاج ركان وأخذ يدافع بحماسة غير عادية عن ولي الله الذي سيقبل ضربه غداً بكل إجلال واحترام، دون اعتبار لما يبدو من عدم تجانس بين الرسوم الفجة والمرايا الباهتة والساعات المكسرة التي تزين حوائطه. فقد كان اعتقاده البسيط بقدرة علي الشرقي على أن يقضي في الحال على كل من يحلف به كذباً حقيقة لا تقبل الشك. إذ كان من الحقائق الشائعة المعروفة أنه لا يوجد من بين القبائل فرد واحد يقبل أن يحلف كذباً أمام الضريح مهما كان الخطر الذي يتعرض له إذا لم يحلف. وأخذ الحاج يقص علي قصة شهداها بنفسه ليؤيد بها حقيقة ما ذهب إليه من شهرة علي الشرقي وسرعته في الانتقام ممن يحلف به كذباً. وتتلخص قصته في أنه شاهد لُصاً يقبض عليه وتكتشف سرقة لا شيء غير محض اسم علي الشرقي. والحاج ركان مغرم بالقصة ولو تركناه يقصها بنفسه ما ترك صغيرة ولا كبيرة إلا ذكرها لتزيد في وزن دفاعه عن اعتقاده.

ومجمل قصته أنه في مرة من المرات التي اعتاد فيها أن يزور المدينة الصغيرة لبيع ما يفيض عن حاجته من الأرز نزل ضيفاً على الحاج سعد شيخ القرية المجاورة. وقد استيقظ في الصباح المبكر على أصوات حانقة غاضبة عرف فيما بعد سببها. فقبل قدومه ببضعة أيام حضر «جعفر» من أهالي البصرة إلى قرية الحاج سعد ليشتري جاموساً. وكان في كل ليلة يضع تحت رأسه عند النوم ما يحمله من نقود مقدارها أربعمائة ليرة. ولكنه استيقظ في ذلك اليوم ليجد مكان كيس نقوده الحار قطعة من الطين البارد. وعندما تبين له أنه لا يستطيع استرداد نقوده المفقودة، غادر القرية وهو يتوعد الحاج سعد بأنه سوف يقدم شكوى ضده عند حاكم المنطقة. ولم يكن تهديده فارغاً، فلم تمض بضعة أيام قليلة حتى قبض على الحاج سعد وسبق إلى سراي الحكومة. وهناك فرض عليه القائم مقام: أن يدفع إلى البصري المبلغ الذي سرق منه، لأنه مسؤول عما يحدث في قريته. فاحتج

الحاج سعد على الحكم قائلاً: - أهذه عدالة؟ يا سيادة القائممقام، أنا خادم الحكومة الأمين وكل أوامرها على رأسي. ولكن كيف أستطيع، وأنا رجل فقير دفع هذا المبلغ الكبير؟ ألا يكفي ما لحقني من عار بسببه؟. وكما يعلم جنابكم أنه لو كان جعفر أمن ثروته عندي، كما هي العادة، ما حدث شيء من هذا. ولكنه لم يفعل، فهل من العدل بعد ذلك أن يصيبني الخراب؟ يا جناب القائممقام أنصدق قصة يقولها لسان كاذب؟ لا شك في أن هذا الرجل البصري قد خسر الثروة في المقامرة في المقاهي ثم نشر قصته ليحمي نفسه من سيده الذي أعطاها له.

ولم تكن عبارات الحاج سعد بلا نتيجة، فقد أطلق سراحه وسمح له بالعودة إلى قريته حتى تظهر نتيجة التحريات الرسمية عن اللص. وقام الحاج سعد من جانبه بإرسال بعض رجال قبيلته لتسقط الأخبار في المناطق المجاورة وقد جاءوا إليه وأعلنوا أن شخصاً يدعى «دغار» من عشيرة «مطاغر» مشكوك في سلوكه رني في الجهات المجاورة للقرية في اليوم السابق للسرقة. وقد اختلف في أمر دغار هذا، فمن الناس من قال إنه مات منذ زمن، ومن قال إنه عبر الحدود إلى إيران، ومن قال إنه شخصية خيالية ولم يولد من عرف بهذا الاسم.

ولما لم تعثر الشرطة على قرينة تدل على السارق لجأ القائممقام إلى التجربة التي لم تفشل. فاستدعى شيوخ قبيلة مطاغر في حضور سعد وشهوده ومن بينهم كان الحاج ركان، وقال لهم - دغار بن مكّي من عشيرتكم سرق أربعمائة ليرة من قرية الحاج سعد. - فأقسم واحد منهم قائلاً: - والله وبالله وتالله إنني لا أعرف شخصاً بهذا الاسم. - وقال آخر: - تحل بي اللعنة إن كنت أعرف شيئاً عن دغار هذا. - فقال القائممقام: - اسمعوا.. إما أن تحلفوا على قبر علي الشرجي بأن ما قلتموه هو الصدق أو أحبس واحداً منكم حتى تحضروا اللص والمال المسروق..

تلا قول القائم مقام صمت. وأخيراً قال أحدهم بذلة، - نحن لا نستطيع الحلف.. إننا نخاف.. - فأجاب القائم مقام، - ابق أنت في السجن وارجع الباقي لإحضار المطلوب.. ولكن واحداً آخر من الشيوخ تقدم وقال، - أنا أبقي مكانه.. فسأله القائم مقام - لماذا؟. فأجاب الشيخ، - لأن دغار ابن عمي وعندما يعلم أنني سجنتم سيرجع النقود بسرعة. وكان هذا اعتراف حاسم.

وختم الحاج ركان قصته قائلاً بصوت مرتفع حتى يسمع البحار، - وفي الحقيقة، من يقدر غير علي الشرجي أن يدبر أمراً كهذا؟. الحكومة فتشت عن اللص عبثاً. القائم مقام كان في حالة يأس. وباسم علي الشرجي رد الذهب إلى البصراوي الذي ما كان يتصور أنه سيراه ثانية.

ويبدو أن أسلوب الحاج ركان قد أثار الملاح فصاح قائلاً، - وهل أنا أنكر..؟! أنا الذي يعيش في الكميت على مرأى من الضريح. ثم التفت إلي وقال، - إنني في مقابل كل قصة يعرفها الحاج ركان أعرف عشرين. واسمح لي بأن أقص لك قصة.. قصة حقيقية.. قصة الرجل الأصلع، أتعرفها يا حجي؟.. لا؟. أنا أذكر جيداً تلك الليلة. لأن «سكر» كان نائماً في منزل عمي. وعندما حضر الطبيب لإخراج الجثة ذهبت معه إلى القبر.. وانهمك البحار في سرد تفاصيل طويلة.

ومجمل قصته أن قرية «رزيفة» النائمة استيقظت ذات ليلة على صراخ امرأة تصيح، - الأصلع.. الأصلع.. الأصلع.. ثم انقطع الصوت فجأة. فجرى رجال القرية إلى الكوخ الذي خرج منه الصراخ فوجدوا صاحبها مقتولاً كما وجدوا زوجته تحتضر. وكان ظهرها مغطى بدماء تفجرت من طعنات خنجر وكان من الواضح أنها قد ألقت بنفسها على زوجها محاولة أن تحميه. وبينما كان معاون الشرطة في طريقه إلى القرية ماتت المرأة وضاع بموتها الشاهد الوحيد للجريمة. وبعد أن فحص معاون الكوخ

الذي قتل فيه «مرهون» وزوجته جلس في مضيف الشيخ يلقي الأسئلة ويتبع الدافع إلى ارتكاب الجريمة. وقد اكتشفت بعد ساعات تتبع طويلة أن مرهون تشاجر في يوم زواجه منذ عشر سنوات مع «سكر» أحد أفراد قبيلة تسكن على مبعدة بضعة أميال. فأرسل يستدعيه. . . ولقد ناقشت الملاح في أن عراقاً كهذا قد مضت عليه هذه المدة الطويلة يبدو حجة نافهة ليقوم عليها الشك في القتل. ولكنه اعترضني قائلاً، - لا. . . بين العرب لا ينسى أي أذى أو ضرر. . . وحتى لو مضى على الأخذ بالثأر عشرون سنة فإن العرب يقولون لقد أسرع في الأخذ بثأره. . .

كان الوقت مساء عندما حضر سكر. فقطع المعاون مناقشته لامرأة عجوز كانت تقص له قصة مبهمة عن مشحوف يحركه ثلاثة رجال رأتهم يغادرون القرية عند منتصف الليل، وأخذ يلقي بعض الأسئلة على سكر. ثم خطا فجأة عبر الغرفة ونزع الكفية عن رأس سكر فإذا هي كالبيضة، صلعاء. وكان هذا كافياً في نظر المعاون، فقبض على سكر وسجنه في سجن العمارة. ولكنه عاد في اليوم التالي مطأطئ الرأس. فقد استطاع سكر أن يبرهن على وجوده بعيداً عن مكان الجريمة وقت وقوعها، وبين أن سبب نزاعه مع مرهون ليس من الأسباب التي تؤدي إلى ارتكاب مثل هذه الجريمة.

وعادت قصة المرأة العجوز التي أهملت عندما جاء سكر تسترعي من جديد اهتمام المعاون. ودلت التحريات على أن المشحوف رثي ثانية في قرية تبعد أميالاً قليلة أسفل المجرى وأنه مر بقرية أخرى في أثناء النهار حيث عرف أن الرجال الثلاثة من قبيلة «رحيل». ثم انقطع الأثر. ولكن البحث في منطقة رحيل أعاد الأثر ثانية وأمكن تتبعه مرحلة فمرحلة إلى رأس قناة «دفة» ثم انقطع نهائياً. وكل ما عرف هنا أنه يعيش عند ذنائب القناة الشيخ عبد الهادي ويلقب بأبي «كرعة» لأنه كان أصلع.

واستمرت التحريات ولكنها لم توصل إلى حقائق تنير السبيل . وكان الدليل أمام المتصرف واهياً . فالمرأة المقتولة كانت تصيح ، الأصلع . وهناك رجل أصلع في الجهات المجاورة سبق أن تشاجر منذ عشر سنوات مع مرهون . ثم القصة الغامضة عن المشحوف الذي كان يحركه ثلاثة رجال ربما كانوا من أتباع الشيخ المعروف بأبي گرعة . ووجد المتصرف حلاً للمشكلة أن يأمر بأن يحلف كل من سكر والشيخ عبد الهادي أمام ضريح علي الشرجي . ولما كان سكر ضعيفاً بالنسبة للشيخ عبد الهادي فقد كان عليه أن يحلف أولاً . وإذا ثبتت براءته كان على الشيخ عبد الهادي أن يحلف في اليوم التالي .

ودخل سكر إلى الضريح ومعه بعض أقاربه وخادم الضريح ووضع يده على جدار الضريح وأقسم بصوت عال ثلاث مرات ، - وحق هذا علي الشرجي إنني لم أقتل مرهون - . وغادر الضريح كما دخله ونحن نلاحظه ، فلم يمزق ملابسه كرجل مجنون ولم يزحف على الأرض وبعض التراب أو ينبع كالكلب ، وإنما عاد بحالته الطبيعية إلى الكميت وذهب إلى بيت عمي حيث نعى ونام ولكنه مات في أثناء الليل .

وهنا صاح الحاج ركان منتصراً ، - الله أكبر . . أليس الحق معي عندما أخبرتك بأن علي الشرجي بصرع كل من يكذب عند ضريحه . . ؟ !

وبدا ضوء عابس في عين الملاح ولكن الحاج ركان استمر يقول ، - كل أفنديات الحكومة لم يعرفوا القاتل ، وعلي وحده كان يعرفه وقد أماته لما حلف به كذباً . .

فقاطعه البحار قائلاً ، - لم تتكلم ؟ أنت لك لسان وغيرك له أيضاً
الا أستطيع أن أكمل قصتي ؟ . أنت مثل المجرشة لا تسكت أبداً . . إذا كان الأمر كما تقول فيكون علي الشرجي أخطأ وأما البريء

سحب الحاج ركان عباءته على رأسه ووضع يده على لحيته ، فالقصة

قد أخذت وجهة لا ترضيه. وجلس صامتاً كاظماً غيظه والبحار يكمل حديثه.

- بسبب موت سكر نسب كل الناس إليه جريمة القتل. أما الشيخ عبد الهادي فقد رجع إلى مكانه حيث لم تعد هناك حاجة لأن يحلف ويبرئ نفسه. ولكن بعد بضعة أيام جاء دكتور من العمارة إلى الكميت وسأل عن قبر سكر فأراه أحدهم الطريق وتبعه آخرون وكنت أنا من بينهم ..

- أمر الدكتور بحفر الأرض وأخرج جثة سكر من جدها. والله يسامحه فإن ما أمر به حرام. كما أمر بحل حصيرة القصب التي كانت تلفها، وبحل الكفن أيضاً. وبعد ذلك، يا رحمن يا رحيم، قام هو بشق الجثة. ثم تركنا، ولم نسمع شيئاً حتى مضت بضعة أيام فتواترت إشاعات غريبة... جثة سكر وجدت مملوءة بالسم.. والسم جلب من بغداد.. وتبين أن أحد عبيد الشيخ عبد الهادي قد بعث إلى هناك. وأخيراً علمنا أن المتصرف أمر بإحضار الشيخ عبد الهادي ولكنه هرب إلى الحويزة عندما عرف أن جريمته قد كشفت. أما ما أخبرك به الحجبي...

صاح الحاج ركان مقاطعاً له - واش واش.. سننزل هنا.. - وعندما نزلنا كانت الشمس قد غربت ولم يبق من آثارها إلا شفق باهت. وأمامنا عند حافة النهر كان ضوء يتحرك دلنا على وجود خيام قريبة.

حينما فردوا تحيتنا وأخذ المصباح يتحرك أمامنا هنا وهناك لينير لنا الطريق. وسرنا وراءه إلى خيمة تجمع فيها عدد غير قليل من رجال القبيلة وقد جلس في وسطهم مضيفنا الشيخ ناصر بجسمه العريض وقامته المعتدلة، وضوء المصباح ينعكس على الخيوط الذهبية التي زين بها رداءه الحريري الأزرق وعباءته الصفراء الفضفاضة. كما ينعكس من محابسه المرصعة بالفيروز التي يزين بها أصابع يديه.

وعندما كنا في المضيف أخذت أسائل نفسي عما إذا كان

الجيل القادم من الشيوخ سيكون مبعجلاً وممتلئاً رجولة كما كان حال الشيوخ الماضين وكما هو حال هذا الشيخ الذي يمثلهم. فناصر ومن ماثله لم يصبحوا شيوخاً بفضل كونهم أولاد شيوخ فحسب وإنما صاروا بفضل شجاعتهم وقوة شخصيتهم أيضاً. وبهاتين الصفتين ونحوهما استمر ناصر قابضاً على زمام شياخته نحو أربعين سنة. فهو القائد المبرز في المعارك كما تدل آثار الجراح في وجهه. وهو المتكلم في مجلس القبيلة. وهو أيضاً صاحب الخطط العميقة في تدبير المكائد والمقالب إذا ما دعت الظروف. ولا شك في أن أولاده سيكونون أكثر منه تحضراً وأفضل تعليماً ولكن، أتكون لهم مثل قيادته وقوة شخصيته؟ من يدري؟.. المستقبل وحده هو الذي يستطيع الإجابة.

وبعد أن تبادلنا عبارات التحية والترحيب ساد السكون لحظة غادرنا في خلالها الشيخ. فاقتربت من الملا لأتحدث معه. والملا فرد من طبقة خاصة في المجتمع العربي يقترب أوان انقراضها. ولكنه في الوقت الذي نتحدث عنه كان شيئاً ضرورياً للشيخ، لا مفر منه. لأن معظم الشيوخ أميون، والقليل منهم من يستطيع أن يكتب رسائله بنفسه. ويستطيع الملا بورقة ينشرها على راحة يده وبقلم من القصب يمسك به في يده الأخرى أن يكتب ما يمليه عليه الشيخ ثم يوقع الرسالة ويدمغها بخاتم الشيخ الذي يلبسه في إصبعه.

في الماضي، عندما كانت الحروب والغارات بين القبائل قائمة كقاعدة، لا استثناء، كان الشيخ دائماً بين كر وفر، لا يتوفر لديه وقت يهتم فيه بتعليم أولاده شيئاً آخر غير فنون الحرب وامتطاء صهوات الجياد واللعب بالسيف بدل القلم. ولذلك أصبح للملا، ككاتب للشيخ وكاتم لأسراره، قوة كبيرة. وفي بعض الأحيان كان له ما للشيخ من سطوة ونفوذ.

وكننت أتحدث مع الملا عن الغلات الزراعية عندما وقف كل من بالمضيف من العرب باحترام عندما دخل رجل طويل هرم يلبس عباءة خشنة بالية وحول وسطه حزام عتيق من الجلد وينتعل صندلاً قديماً. وبدأ لي للوهلة الأولى كزراع بسيط. ولما تحققت عرفته في مضيفنا الشيخ ناصر نفسه.

جاء الشيخ ناصر ليعتذر عن تركه لي بسبب حدث مفاجيء وقال: - إن ابنه خادمي على استعداد لأن ينفذ كل رغباتي. - وذكر أن رغبته ضروري، إذ حدثت كسرة خطيرة في سدة على مسافة بضعة أميال أسفل النهر. وختم حديثه معترساً بقوله، - ماذا تظن؟ أأست أنا أبو الكسرات؟ ثم استأذن وانصرف.

التفت إلى الملا متسائلاً، أهو يدعى أبو الكسرات؟ فأجاب، - نعم، أطلق عليه هذا الاسم مذ كان صبياً. وهناك من يدعوه «أبو الميتين» -.

وفي خيام العرب السوداء حيث لا تزال الأخبار تروى بالغم بدلاً من الجرائد والكتب يكون عمل القصاص محترماً. والملا بصوته الجهوري الرنان كان جديراً بأن يقص أروع قصص البطولة.

وبدأ الملا حديثه قائلاً، - في السنة التالية لموت غضبان في قتاله ضد الحزبيات، أراد زوج أختي أن يؤجر أرض الخزينة من الشيخ ناصر. وكانت أرضاً خصبة خالية من الأملاح ولكنها كانت مع ذلك معرضة في كل سنة تقريباً لأن يفيض عليها النهر من فوق ضفته أو بكسر السدة التي تحميها ويفرق القسم الأكبر منها. ولهذا السبب كانت تؤجر بربع قيمتها الحقيقية. وعرض عبد الله زوج أختي إيجاراً لها منتي ليرة ولكن الشيخ ناصر رفض وأصر على دفع ستمائة ليرة. وكان ذلك، لأن إنتاج الغلات في السنتين الماضيتين كان قليلاً، كما كان هو في حاجة ماسة إلى النقود ليدفع للأتراك الذين كانوا يضغطون عليه.

وقال عبد الله، - لو كنت متأكداً من أن المحصول سينجو من الغرق لدفعت لك المبلغ الذي طلبته، ولكنه كما تعلم لا يكاد ينجو من الغرق مرة كل خمس سنوات -. فأجابه ناصر - هذه ستكون السنة الخامسة - وسأله عبد الله، - اتعرف مبلغ ارتفاع النهر قبل أن تسقط الأمطار وقبل أن يذوب الجليد من فوق الجبال العالية؟! - فأجاب ناصر، - في هذه السنة لن يطغى الماء على أرض الخزينة ولا.. أنا ناصر.. سأبني سدة عظيمة تحمي المحاصيل، وللنهر أن يرتفع كما يشاء.. - وقال عبد الله ليزداد ضماناً، - وإذا كسرت السدة -؟ - فأجابه ناصر، - لقد قلت.. - ثم أقسم أيماناً مغلظة بالله وبنبيه وبشرفه أن ستبقى الأرض في تلك السنة سالمة من الغرق.

وتوقف الملا ناشراً يديه وهو يستعيز بالله ويستغفره من هذا الحلف لاعتقاده أن كل شيء بأمر الله ثم قال، - وعلى هذا تم الاتفاق. فأخذ عبد الله الأرض وحرثها وبذرها واخضرت بنات الحنطة إلى حدود الصحراء.

أما الشيخ ناصر فقام ببناء سدة ضخمة من الطين وشوك الجمل استغرق عملها من رجال القبيلة عدة أيام. ثم جاء الوقت المعتاد في الربيع وأخذت مياه النهر ترتفع حتى حاذت الضفاف وقاضت عليها وامتدت إلى السدة العريضة القوية التي بناها ناصر وأخذت ترتطم بها. وكان ناصر متذكراً لقسمه فأقام عليها حارساً. وفي تلك الليلة حذر الحارس بأنه إذا نام وحدث ضرر ما فإنه سيقطع يده اليمنى.

وكان الحارس مهدي بن لازم. واستمر حتى منتصف الليل يتمشى على سطح السدة ملاحظاً إياها ورآها أعلى وأقوى وأضخم مما اعتاد أن يرى في السداد. وعندما ازدادت برودة الجو حمد الله أن شيخه قد بناها هذا البناء المحكم. وجلس وراءها ليحتمي من البرد وغلبه النعاس فنام. وفي أثناء نومه تحول اتجاه الريح وأخذت تدفع مياه النهر السريعة وتحولها إلى أمواج طاغية تضرب بها السدة بعنف. ونظراً لأن السدة كانت حديثة

البناء وترابها لم يكن قد استقر تماماً بعد فقد استطاعت المياه أن تجد لنفسها طريقاً في نقطة ضعف فيها. وأخذ الماء ينساب من جحر صغير لفأر كما ينساب اللبن من ضرع الناقة. هذا بينما كان مهدي نائماً. وعندما استيقظ في الفجر رأى الماء يجري سريعاً في مجرى يخترق السدة فانخلع قلبه فزعاً وهو يتصور السكين تقطع يده. وأسرع إلى قريته وجمع عائلته وأثاث بيته وعبر النهر ليحتمي بالشيخ طاهر عدو ناصر.

وأبلغ الحادث إلى الشيخ ناصر متأخراً، بعد شروق الشمس بنحو الساعة فسب مهدي وجدوده، وأرسل من يحضره. وأرسل رسلاً آخرين لاستدعاء كل رجال القبيلة ونسائهم ومعهم حيواناتهم التي تستخدم في النقل وأسرع هو والموجودون من إخوته وأقاربه وغيرهم إلى هناك حيث وجد زوج أختي واقفاً يحملق في الكسرة بينما كانت زوجته يضربن صدورهن ويعفرن رؤوسهن بالتراب.

وقال عبد الله، - يا محفوظ.. أهذا وفاء قسمك؟.. فأجاب الشيخ مهدياً بصوت مخيف، - سأقتلع عيون مهدي الذي غشني.. ولكن عبد الله قال، - عيون مهدي وعيون عائلته لن تنقذ غلاتي. وسيأخذ سد هذه الكسرة عدة أيام.. ويومان وليلتان من هذه مشيراً إلى المياه العاتية، ستدمر كل شيء.. فأجابه ناصر باقتضاب، - الغلات لم تدمر بعد.. وأضاف، - هل أقسم لك ثانية نفس القسم الذي أقسمته من قبل بالله وبنبيه وبشرفي أن ستنجو هذه الأرض من الغرق؟ لا.. وإنما أقسم لك بهذه الحبوب الطيبة التي سوف تحصد محاصيلها بالتأكيد أن هذه الكسرة سوف تسد قبل غروب شمس الغد.

وأرسل رسلاً أخرى لإحضار كل فرد من أفراد القبيلة حتى ولو كان امرأة عجوزة أو طفلاً صغيراً. وقسم الموجودين أقساماً. وجه النساء لجلب شوك الجمل وشجيرات الطرفا والأعشاب الأخرى والحشائش التي

تنمو بجانب النهر. ووجه الرجال لنقل التراب، فيما عدا الأشداء منهم فقد احتفظ بهم معه لصد جريان الماء. وأوقف نصف هؤلاء على أحد جانبي الكسرة وأوقف النصف الآخر على جانبها الآخر. وبكلمة منه اندفعوا إلى الماء وظهورهم إلى التيار مرتكزاً كل منهم على ميشة ثبتها في القاع أمامه. وبهذا حاول صد اندفاع الماء وإيقاف اتساع الكسرة. وكان التيار عنيفاً، وتفشي الميшат المرتعشة مدى ما يكابده الرجال في الاحتفاظ بوقفاتهم. أما في وسط الكسرة حيث كان التيار أشد عنفاً فإن أحداً منهم لم يستطع الثبات بوقفته برهة وجيزة. فكان الواحد ينكفيء وراء الآخر ويجرفه التيار.

وفي ذلك الوقت كان ناصر في الثلاثين من عمره طويلاً عريضاً وفي أوج قوته لا يدانيه أحد. فخلع ملابسه وأمسك بميشته واندفع إلى الماء نادياً إخوته أن يتبعوه. ووقف في وسط الفتحة صاداً الماء بظهره كما يفعل الآخرون. وهكذا أحكم صف الرجال عبر الكسرة وتعرقل اندفاع الماء خلالها. فتمكن الآخرون من أن يقيموا سدة عندها وسدة أخرى خلفها أشد منها وأقوى. كانت حزم الأشواك والأعشاب تلقى وعليها يهال التراب والطين. وعندما جاء المساء، كان القمر بحمد الله بدرأ في تمامه فاستمر العمل دون توقف إلا ما كان يحدث من استبدال الرجال الواقفين في الماء بغيرهم. وحتى عندما جاءت ثلاث إبل محملة بالتمر كان الكل يملأ فمه بالتمر ويعمل. الرجال ينقلون التراب والطين بينما ينقل النساء والأطفال الأشواك والأعشاب. كان العدو رهيباً. الرياح تهب وقوة الماء تبدو في تزايد مستمر. وعند الفجر جاءت قافلة من الإبل والبقر تحمل أحمالاً من الشعير الأخضر حش من أرض الشيخ لدعم السدة. وعندما رآها قال، - أفقد كل شعيري ولا تنكسر كلمتي -. وعند الظهيرة كانت السداد قد أحكمت وألقى الرجال المجهدون بأجسامهم الزرقاء على الأرض وناموا.

ألقى الملا بظهره كما لو كان جسمه قد انحل من تعب ذلك اليوم. وتوقف لحظة قبل أن يقول، - كلهم ناموا فيما عدا ناصر وعبد الله. وقال

ناصر لعبد الله، - انظر - مشيراً إلى العمل الذي كان يبدو في وقت من الأوقات فوق طاقة البشر. - انظر إلى وعد شيخك - وتطلع الاثنان وبلا إنذار تداعى قسم من السدة الأمامية وترك تياراً عنيفاً يندفع ليضرب السدة الأخرى. ووقف الرجلان مشدوهين يراقبان ويتساءلان مع نفسيهما، أتقاوم السدة؟. ولم تقاوم إلا قليلاً ثم استطاع الماء أن يكون لنفسه مجرى، بدأ صغيراً ثم أخذ يتسع. صرخ الشيخ وقفز إلى النقطة الضعيفة وصاح على الرجال النائمين يطلب المساعدة. ولكنهم كانوا في سبات عميق. كما أن صوته كان مبحوحاً من صراخه الذي لم ينقطع طوال اليوم السابق لتشجيع الرجال على العمل. وبدأ الماء يتدفق وفي دقيقة أصبح فوق سيطرته. ماذا بعد ذلك عن قسمه؟ وما العمل؟ التفت إلى الأشباح النائمة بجوار السدة وبقوته الهرقلية التقط اثنين منها وألقى بهما في الكسرة وأمسك بهما فيها. بينما أيقظ عبد الله بعض رجال القبيلة الذين أطاعوا شيخهم وأخذوا يهيلون التراب على الأجسام الحية. وبهذا سدت الكسرة وتوقف الماء عن أرض الخزينة وأنقذ الشيخ ناصر شرفه. وبحركة تمثيلية أنهى الملا قصته. ولما سأله عما حدث للشيخ عندما عرف ذلك عنه أجاب ببساطة، - يا طويل العمر.. هذا حدث في عهد الأتراك..

الفصل الخامس

المصّب

كان القارب الفاخر الذي يحملني مع صاحبه الشيخ زامل مضيئي بالأمس يسير بسرعة كبيرة لا يعرفها القارب المتواضع الذي يملكه الحاج ركان. كان يندفع إلى الأمام في سلسلة من القفزات كلما ضرب العبيد الأربعة الأقوياء الماء بمجاديفهم.

كانت مقدمة القارب مخروطية رشيقة تشمخ صاعدة في الهواء، ونحوها تعكس قطرات الماء أشعة الشمس عند كل ضربة من ضربات المجاذيف الأربعة المطلية بلون أزرق. وكانت جوانبه الداخلية مزينة بكثير من رؤوس المسامير الحديدية الضخمة ومطلية بلون أخضر زاهٍ، بينما كان سطحه الخارجي مطلياً بالقار الأسود. وكذلك كانت تتباين سواعد العبيد ووجوههم السوداء كالأبنوس مع ملابسهم البيضاء كالحليب.

كنا في طريقنا إلى القلعة البيضاء حيث كنت على موعد مع الحاج ركان. وكان المنظر إليها على طول الأراضي التي يتلوى خلالها مجرى القناة لا يتغير إلا بما يرى من وقت لآخر من أكوام تعلو قليلاً فوق الانبساط المزعج لهذا القسم الجنوبي من أرض العراق. وتمثل هذه الأكوام بقايا من آثار الماضي. وكانت في عصور لاحقة تستخدم كعلامات للقوافل التي أصبح وجودها نادراً. أما عرب الوقت الحاضر فيستخدمونها

أحياناً لدفن موتاهم . وعندما مررنا بواحدة منها سماها الشيخ زامل بالمصّب . واستدعت التسمية الغريبة فضولي فسألته عن السبب في تسميتها بهذا الاسم . فأجاب من خلفي صوت قبل أن يتمكن الشيخ من الرد قائلاً ، - أبوس إيدك .- فالتفت لأرى المتكلم ، فكان زنجياً عجوزاً تفضّن وجهه وزينت أطراف لحيته بالحناء . وألقى بمجذافه جانباً ليوجه اهتمامه الكلي إلى سرد قصته . وقال ، - سأقص لك القصة فإنني أعرفها جيداً . وقد سمعتها من أمي ، وأضاف قائلاً باعتزاز كما لو كان واحد من أجداده قام بأعمال رائعة مع قائد مظفر ، أمي التي اشتراها فيصل العظيم بخمس وعشرين ليرة .

لمعظم شيوخ القبائل في العراق عبيد وإماء راضون عن أحوالهم ، يعاملهم سادتهم معاملة حسنة وينادي الواحد منهم أو الواحدة سيده يا عمي . ويبلغ الرجال عادة مراتب لها بعض الاعتبار الخاص . أما الإماء فيقع عليها عادة عبء العبودية الثقيل . فسيدها قد يعطيها لمن يرغب فيها لكي يزيد في عدد عبيده ، حيث إن طفلها يعود إلى سيدها . وحتى لو تزوجت زواجاً شرعياً من عبد آخر فإن الطفل الناتج يتبع سيد الأم . على أن وضع الرقيق قد تحسن كثيراً في الوقت الحاضر . ويبدو أن هذا الرجل العجوز الجالس خلفي والذي كان يجذب بنشاط وجد في الرق ما يرضيه ويقنعه . وكان على ما يبدو على أحسن الصلات مع سيده فقد ترك مجاذيفه بحرية كاملة ليشارك معنا في الحديث الذي راقه .

وبدأ الرجل حديثه بقوله ، - في أيام فيصل العظيم كان - البو محمد - كما هم الآن زراع شلب ، ولكنهم لم يكونوا عشيرة حرة ، فقد كانوا يدفعون جزية لبني لام . وكان فيصل شيخ البو محمد شاباً معتزاً بنفسه ، اعتبر من العار أن تدفع قبيلته جزية لأحد . وفي سنة من السنين اعتذر ولم يدفع الجزية المقررة . فجاءته بعد بضعة شهور رسل شيخ بني لام تأمره بأن يدفع جزءاً من الواجب عليه ، فردهم باحتقار رافضاً الاعتراف بسيادة بني لام عليه .

وكان مذكور شيخ بني لام مثله رجلاً معتزاً بنفسه . فجمع عند «بهاثا» رجال قبيلته لتأديب تابعه الذي خرج عن طاعته ، وقام فيصل كذلك بجمع كل رجال قبيلته . وجاءت الأخبار بأن مذكور يقوم ببناء حصون عند بهاثا فضحكنا من ذلك وهزئنا عندما تصورناه قد خاف أن ينزل إلينا ويحاربنا . ولكن ضحكنا كان سابقاً لأوانه . فقد عرفنا أنه لم يجمع فقط المحاربين من رجال قبيلته وإنما جمع معهم الفلاحين الذين يعملون في حقوله ليشاركوا جميعاً في بناء سد عظيم على الكحالة التي نشرب منها ونروي حقول أرزنا .

أنجز مذكور فعلته دون قتال أو أن يخاطر بالنزول إلى أهوارنا . ولما وجد فيصل نفسه عاجزاً عن أن يهدم السدة بسبب القلاع الحصينة التي تحميها فُضِّل أن يدفع بدلاً من أن يفقد كل محصوله من الأرز وهو يعادل عشرة أمثال الجزية المقررة . ويذكر من كان حاضراً في تلك الليلة أن الصمت كان مخيماً على الجميع ولم يكسرهُ إلا الشيخ وهو يقسم بأن إذلال هذه السنة سيكون آخر سنوات إذلاله وعبوديته .

وغاب فيصل بعد ذلك عدة أسابيع لم يره فيها أحد . فقد حبس نفسه في قلعته ، وكل ما سمع عنه أنه أمر ألا تشرب القهوة في مضيف القبيلة حتى تمحى لطخة العار هذه . ومرت الأيام والمضيف بارد لم تشعل فيه نار أو تقدم فيه قهوة حتى أخذ الرجال العجائز الذين كانوا معتادين على الجلوس فيه كل ليلة يتذكرون المعارك والغزوات التي اشتركوا فيها في شبابهم ينقطعون عن المجيء .

ثم خرج فيصل من غيبته وهو يتسم ابتسامة الظافر . ولم يعرف أحد ما هي خطته . وكل ما عرف أنه أرسل رسلاً بنقود إلى بغداد البعيدة ثم عاد الرسل وبرفقتهم رجلان غريبان هما السيد غفوري وصالح الجقمقجي . وبعد أن أقام فيصل لهم وليمة أمر الملا بجمع جميع المواعين والأدوات

النحاسية من البيوت وإحضارها إليه . وصدرت الأوامر لكل الناس فأسرعوا مطيعين يحضرون قدور الطعام وأواني القهوة من الدلة الصغيرة إلى القمقم الكبيرة . كما أحضروا الصوابي والمشخات . ولم يدخروا في ذلك وسعاً ، لأن فيصل شيخهم ويجب تنفيذ أوامره بسرعة ، ولأنه انتشر بينهم أن شيخهم يريد أن يعمل من النحاس سحراً لبني لام .

واختار فيصل الأيخان الذي مررنا به وسماه الناس بالمصب ليحضر إليه أبناء القبيلة ما عندهم من النحاس . وهناك ، حيث توفر له الأهوار المحيطة أماناً له من عدوه ، أخذ يعمل في بناء فرن هائل . وكانت مشاحيف كثيرة في حركة دائبة منذ الصباح المبكر حتى المساء تنقل البردي والقصب من المناطق المجاورة . كما كانت هناك مشاحيف أخرى كثيرة تنقل الأواني النحاسية من أنحاء القبيلة .

وكان يقود العمل السيد غفوري وصالح . فعلموا بعض الرجال كيف يحفرون في الطين الجاف أشكالاً معينة ليصبوا فيها النحاس المصهور . بينما كان الآخرون بدورون حول الحفر يهوسون مشيدين بدهاء فيصل ورافعين سيوفهم وحرابهم .

كان الشيوخ والأفراد ينتظرون بلهفة «الطوب» الذي قال السيد غفوري بأنه يصنعه لهم من نحاس الأواني . ولكنه فشل في عمله . ومع ذلك فإن هذا الفشل لم يثن فيصل عن عزمه وأمر بأن يشعل الفرن من جديد وأن يصهر النحاس مرة أخرى . فهو صاحب الفكرة في ذلك ويجب ألا تفشل . وفي هذه المرة أمر بذبح شاة تقرباً إلى الله ، ولكن النتيجة مع ذلك لم تكن ناجحة . فبدأ الهمس بين الرجال وأخذ الواحد منهم يسأل الآخر كيف لنا ونحن سكان أهوار أن نعمل مدفناً كذلك الذي يستعمله الأتراك في حروبهم مع الأمم الكبيرة . وتقدم منهم من قضى في العمل وقتاً أطول يرجون أن يسمح لهم بالعودة إلى أهاليهم واستبدال غيرهم بهم .-

- وازداد فيصل لجأاً وإصراراً، ورفض السماح لأحد بالعودة، وأمر أن يزداد الأمر ويتضاعف وأن يشعل الفرن مرة ثالثة. وأخذ مئات من الرجال يجرون هنا وهناك يجلبون الوقود بينما وقف فيصل يشجعهم بعبارات التشجيع. وبفضل الله نجح العمل في هذه المرة ورفع المدفع من مسبكه. وأخذ بعض الرجال يصقلونه بقطع خشنة من الحديد بينما أمر فيصل البعض الآخر بعمل البارود ..

- وأخذ الناس يتحدثون بهذا العمل العظيم في كل مكان حتى سمع به بنو لام وأدركوا نوايانا العدائية نحوهم. فجمعوا جموعهم رافعين راية الحرب لقتالنا. وكان فيصل قد عزم على مهاجمتهم ليحرر نفسه من نيرهم إلى الأبد. وكان تجمع فرسان بني لام عند «أبو الحسينية» على السدة الضخمة التي تحمي أراضيهم من فيضان نهر دجلة. ولما رأى رجال البو محمد القادمين في مشاحيفهم التجمع الضخم لعدوهم ترددوا في النزول إلى البر وقالوا - إنهم وإن لم يرهبوا عدوًا ينزلهم في أهوارهم إلا أنهم لا يأملون في أن يتساووا مع بني لام فوق أراضيهم المكشوفة. فشجعهم فيصل واعدأ إياهم بخيل أسرع من خيل عدوهم. وقد وفى بوعدده فإنه بمدفعه الذي نقله معه في القارب ساق بني لام عن سدتهم العظيمة ..

سألته، كم كان عدد القتلى؟. فأجاب الزنجي وهو يتطلع نحو حفيد فيصل العظيم، - أطلق البو محمد النار مرة واحدة .. فقال له الشيخ، - تكلم .. احكي .. . فاستمر الزنجي يقول، - لم يطلقوا النار إلا مرة واحدة ثم تحطم المدفع كالرقبة الزائدة النضج. والذين قتلوا كانوا من بين رجالنا ومع ذلك فقد أطلق بنو لام العنان لأنفسهم من الرعب. وأخذ البو محمد يهدمون السدة بفؤوسهم فاندفعت المياه إلى الأراضي الجافة مدركة خيول بني لام. وهكذا يا أفندم حررنا فيصل من العبودية.

ورفع الزنجي مجذافه وعاد إلى التجذيف وهو يدندن بصوت خافت

أهنية تثير الشجن من تلك التي تغيبها الأمهات من الزوج لأطفالهن في قلب إفريقية.

هزنتي القصة حقاً. فهي تعطي صورة رائعة للبطولة. إرادة رجل واحد تتغلب على عقبات بدت في نظر الجميع أنها لا تغلب. ولا يكاد المرء يصدق أنه منذ قرن مضى فكر شيخ أمي من شيوخ الأهوار في مشروع كهذا وقام بتنفيذه ونجح فيه. ولقد كنت في حل من أن أشك في القصة لولا أنني سمعتها من قبل من أفواه كثيرين. كما سمعت أيضاً بما جرت به فيما بعد على القبائل هناك من مشاكل وصعوبات. فقد كان الأتراك يجاملون القبائل الكثيرة المتشعبة على ضفاف دجلة فيما بين بغداد والبصرة حتى إذا سمعوا بقصة مدفع البو محمد داهموا تلك القبائل وشدوا قبضتهم عليها. ومن يدري، ربما كان حطام مدفع البو محمد موجوداً بين حطام المدافع التي تركها الأتراك في بغداد بعد انسحابهم منها.

حملنا القارب إلى مقاطعة الأرز التي كانت في أيام فيصل جزءاً من الهور. ووجدنا القرية تتألف من صفين من أكواخ القصب تتعرج مع حافتي النهر وتمتد إلى نحو ميل مع مجراه وقد فتح أحد الصفين أبواب أكواخه في مواجهة النهر على حين أعطى الصف الآخر ظهره له. فمن الضروري أن تفتح جميع الأبواب نحو اتجاه واحد هو اتجاه مكة. وكان يقطع القرية أجزاء عدد كبير من الجداول أو النهيرات الصغيرة تخرج من المجرى الرئيس وتنقل معها إلى أراضي الأرز كميات كبيرة من الغرين. والغرين أو المدحلة كما يسمى ينظر إليه زراع الأرز بنفس النظرة التي ينظر بها زراع الحنطة والشعير إلى المطر.

ومن هذه الحقول الخصبة الواسعة حصل الشيخ زامل على ثروته الطائلة التي مكته من المبالغة في ضيافته في الليلة الفاتية. كما مكته من جعل مضيفه أكبر مضيف وقعت عليه عيناى. إذ كان طوله مائة وثمانية أمتار

وعرضه ثمانية عشر متراً وكذلك كان ارتفاعه أيضاً، لا يقل عن هذا العدد الأخير. وقد بناء من القصب كما هو شأن غيره من المضاهف، ولكنه تأنق في بنائه حتى جعله نموذجاً رائعاً لأبنية الأهوار.

يتألف بناؤه من واحد وعشرين قوساً. ويتألف كل قوس من حزمة من القصب قد تراصت وتراصفت ثم ربطت بحبل مجدول من الحلقات. وراحت تتصاعد إلى أعلى مائلة حتى تلتقي بمقابلتها المتصاعدة من الجهة الثانية فتشد معها بحبل. وقد قطي السفن والأجزاء العليا من جوانبه بحصائر من القصب على نحو دقيق محكم. أما الأجزاء السفلى من الجوانب فقد عملت من القصب أيضاً ولكن على نحو متشابك يسمح للهواء بأن يمر خلاله ويتجدد.

وكانت الأرضية مفروشة وراء المدخل بحصير من القصب. وفيما وراءها، نحو الوسط، أقيم موقد النار والفهوة. أما المصدر فقد فرش ببسط وسجاجيد عربية وغير عربية وفرفها طرحت حشايها. وفوق اثنتين أو ثلاث من هذه الحشاي طرحت كومة من الوسائد الحريرية تباينت ألوانها القرمزية والصفراء والحمراء والبرتقالية فأكسبت بساطة المضيف روعة وبهاء.

وهناك جلسنا. وكان المساء صحواً دافئاً. ومع ذلك، أقبل أحد العبيد بموقد نحاس تتلألأ فوقه جمرات وتنبعث منه رائحة البخور. وتلاه عبيد آخرون بملابس أبهى من ملابس غيرهم يتقدمون بالشاي والفهوة ولقائف التبغ.

والمضيف مخصص لجلوس الرجال فقط. ومع ذلك فقد أجلس الشيخ إلى جانبه طفلة الحبيبة إلى قلبه ولم يكن عمرها يتجاوز التسع سنوات. وقد أضفى وجودها على المضيف سحر الطفولة العربية الرائع. ولقد أسفت مع ذلك إذ وجدت هذه الطفلة البريئة تقلد نسوة الغرب فتلبس

قبعة مزينة بالريش كما تلبس حذاءً يربط بالأزرار. ولعل أباهما الشيخ زامل يريد أن يرينا مظهراً آخر من مظاهر ثروته الطائلة.

ومن هذه الثروة ينفق الشيخ بسعة على شؤونه البيتية الخاصة. وهو مسلم متزمت لا يسمح له دينه بأن يحتفظ بأكثر من أربع نساء في عصمته في آن واحد. ولكن الدين مع هذا لم يحدد الحد الأدنى للمدة التي يجب على الرجل أن يقيمها مع كل امرأة منهن. ولهذا كان باستطاعة الشيخ متى أراد أن يطلق واحدة من الملكات الأربع ويبعثها إلى أهلها ويأخذ بأفراح العرس من واحدة أخرى جديدة تأخذ مكانها في قلبه الذي ما كان يعرف الاستقرار.

ولم تمض ساعتان على وصولنا حتى مدت على الأرض البسط المزركشة وبدأت مظاهر العشاء. ولقد كان في وسع الشيخ أن ينافس أمراء العرب الذين تروي القصص بأنهم يقدمون لضيوفهم الطعام في صحن من الذهب ولكن هذه الخاطرة لم تخطر له على ما يبدو مع الأسف. فقد كان طعامه لا يختلف عن طعام غيره من العرب إلا بتعدد ألوانه وكثرة خدمه.

دخل الشيخ يحمل صحنًا وضعه بلطف وعناية فوق البساط الممدود. وجاء خلفه صف طويل من العبيد يحمل كل واحد منهم صحنين وضعهما على المفروش ثم ينتحي ناحية ليخلي الطريق لغيره حتى غطي البساط كله بالطعام. وكان الأرز أكواماً عالية غطيت بالدجاج المحمر والبط وحولها صحنون من العسل والفطائر المشربة بالدبس. و... وظل صف العبيد يتوالى، يحمل الطعام ويعدل وضع الصحنون ليفسح المجال لصحنون أخرى. وهكذا حتى امتلأ سطح الفراش كله بالطعام.

وفي ضوء المصاييح التي تثير المضيف كنت أنظر بين الفينة والفينة فأرى أكداس الأرز والخراف المشوية وكاسات عديدة ومواعين تحوي الكثير من الطعام وأتذكر وجبات طعامنا مع الحاج ركان حيث كنا ومعنا

ابنا أخته نقعد أربعتنا على حصير واحد ونمد أيدينا سوية في قصعة واحدة ونأكل وكأننا أبناء أسرة واحدة. ومع ذلك فإن الوقت الطويل الذي استغرقه إعداد هذه الوجبة قد حول كل إناء بما فيه إلى مثل قطعة الحجر من البرد.

وبعد الظهر من اليوم التالي انحدرنا مع النهر وراحت ضفافه تنخفض تدريجياً حتى تلاشت واختفت. وقد خيل إليّ أننا دخلنا قلب الهور إلا أن الشيخ زامل قال، - في قاع هذا، مشيراً إلى الماء، تقع أخصب أراضي. وها هنا نزرع شتلات أجود أنواع الأرز، ننقلها من أعالي النهر ونغرسها في هذه الأرض المملوءة بالغرين.

ونظرت قدماً فرأيت من فوق حائط القصب الممتد أمامنا أبراج قلعة الشيخ زامل المسماة بالقلعة البيضاء. وكان بياضها يتلألأ في الشمس حتى توهمته رخاماً مصقولاً قد بنيت به حيطان القلعة. ولشد ما كانت دهشتي حين دنونا فلم يكن ما خلته رخاماً إلا طيناً مجففاً بدائي الصنع.

واستأذن الشيخ زامل وتركني وحدي أصعد إلى برج من أبراج القلعة. وكان الصعود شاقاً لأن القلعة قد صممت حصناً للدفاع. فكان على الداخل إليها أن ينحني في مدخلها، يحبو على يديه ورجليه، حتى إذا تقدم بعض الشيء لاقاه سلم من القصب القوي يصعد عليه. ويستطيع إذا أراد أن يسحبه إلى أعلى بعد استخدامه.

ومن فوق البرج وقفت أنطلع شرقاً فإذا بي أرى أجمة القصب تمتد إلى أميال ينحسر فيها البصر وهي تهتز متراصة لامعة كأنها الرماح قد لمعت عذباتها وبرقت في الشمس كأسنة الفضة. كنت أرى هذا فيخيل إليّ أن الملاحاة خلالها مستحيلة حتى لمحت من بعد قارباً صغيراً أسود ينساب هادئاً من مجرى خفي بين حيطان القصب متجهاً نحو الايشان الذي تقوم عليه القلعة البيضاء وعندما تبين عن قرب عرفت فيه قارب الحاج ركان.

أما نحو الغرب فقد كان الماء مكشوفاً إلا من تجمع صغير للقصب

كان يبدو كجزر سوداء لمعاكسة أشعة الشمس الغاربة له. ومن وراء هذه الجزر استطعت أن ألمح قارب الشيخ زامل على صفحة الماء كهلال صغير أسود. ومن وراء ذلك كله استطعت أن ألمح أيضاً عند الأفق الأكواخ المحدودة التي يعيش فيها زراع الأرز. وهي وحدها تظهر الحياة البشرية فيما تقع عليه العين في هذا القسم الكبير من الهور.

وصعد الحاج ركان إلي وبادرني بالقول - هذه القلعة البيضاء يسكنها نحو عشرين من حاشية الشيخ يسمون بالحوشية ووظيفتهم حفظ الأمن. على أنهم أكثر اهتماماً بجمع المكوس من القوارب المارة منهم بحفظ الأمن. ولا تقل لي كيف عرفت هذا فأنا نفسي قد عانيته. كما أنني عندما كنت شاووشاً في زمن الأتراك كنت أفعل مثل ذلك.

وقعدنا أنا والحاج ركان في أعلى القلعة نراقب الشمس وهي تحتضر مفرقة نفسها في بحر من الذهب. ثم ولت وأخذ الشفق يدلهم ويتحول إلى ظلام. وأشرق القمر وأنا أصغي إلى الحاج ركان وهو يقص علي ذكرياته، لا مرتبة كما وقعت وإنما كما تمليه عليه ذاكرته، حادثة تجر وراءها حادثة. ومع الأسف إن ألفاظ اللغة لا تستطيع أن تعبر عن ملامحه وإيماءاته المعبرة التي كان يزين بها قصصه ويزخرفها فتكسبها رونقاً وطلاوة.

الفصل السادس

حصن الكسارة

حدثت أول خطوة خطاها الحاج ركان في سلم الشهرة كنتيجة غير مباشرة «للحرب الكبرى». ويقصد الحاجي بهذا التعبير القتال المتقطع طويل الأمد الذي حدث في شبابه بين القبيلتين الكبيرتين اللتين تسكنان على دجلة الأدنى، قبيلة بني لام وقبيلة البو محمد. ويلخصها الحاج ركان بقوله، خسرت بامرأة حية وكسبت بامرأة ميتة...! وبعد أن ألقى هذه الخلاصة المتناقضة التي تسرعني الانتباه، تطلع إليّ بابتسام ينتظر مني الطلب الذي لا مفر منه وهو التوضيح.

بدأ الحاج ركان القصة بقوله، - ثمانية آلاف... لا... بل عشرة... قتلوا في تلك الحرب التي قامت بحماقة رجل واحد... عندما ذهب ابن مذكور شيخ بني لام إلى المحمرة وترك قطعانه الكبيرة في حراسة «ضماد» من عشيرة كنانة. وبينما هو في غيبته تصرف ضماد في قطعانه كما لو كان هو صاحبها. فباع أصواف الأغنام وتصرف في ثمنها، واستولى على ما أعطته من لبن وزبد، كما ذبح أيضاً بعضاً منها. ولما عاد ابن مذكور ورأى ما فعل ضماد ملأه الغضب وقام بعزل ضماد عن مشيخته واستولى على أملاكه، وكان ما قام به عقاباً قاسياً في الحقيقة.

ومن أجل ذلك هرب ضماد وعبر النهر إلى الشيخ صيهود شيخ البو

محمد دخيلاً عليه يتوسل أن يقوم بالوساطة عند ابن مذكور كي يرد له أمواله . وتوسط له . ولما لم يستجب ابن مذكور لرجاء صيهود بدت بوادر قيام الحرب بينهما وأخذ كل منهما يستعد للمعركة . ولكي يثبت الرجال أنفسهم ويصلبوا قلوبهم للمعركة ، أخذوا يدورون حول الرايات المنصوبة رافعين سيوفهم ورماحهم يهزونها وهم يهزجون بأهازيج الحرب وهوساتها . ولكن ، بينما كان صيهود يستعد هذا الاستعداد للحرب كان ابن مذكور منصرفاً إلى أمر آخر ، كان مشغولاً بعروس جديدة تزف له .

وظل اسم سعدة محبوباً ومشهوراً بين بني لام حتى صاروا يتنادون فيما بينهم بإخوة سعدة . وسعدة هذه هي التي شغلت ابن مذكور بزفافها بعد أن خطبها من أبيها الشيخ ريشان وهو بدوي يخيم مع قبيلته عند سفوح التلال . وكان جمال سعدة مضرب الأمثال حتى لقد خلبت لب ابن مذكور وأذهلته عن قبيلته التي تستعد للحرب وصرفته عن أعدائه الذين كان استعدادهم لقتاله يجري على قدم وساق . وعاد لا يسمع أهازيج الحرب التي ينشدونها لإثارة الهمم وتثبيت القلوب . وقد نبهه رجال قبيلته إلى الخطر الذي يحدق بهم لوجود النهر وراءهم وحثوه على أن ينهض ولكنهم لم يلقوا منه اذناً واعية .

وعندئذ تقدم أبو سعدة وكان صلب العود بدوياً فظاً وقاسياً . . عربي ابن عربي . . انتهز لحظة خروج ابن مذكور من خدرها ودخل عليها . وبعد أن قبل عينيها أعطاها خنجراً صغيراً يده من العظم المطعم بالفضة ثم تركها وخرج . فأسرعت وراءه تتعلق بردائه إلى باب الخيمة وتقول حائرة بصوت هامس ، - لم هذا؟ . . أليدي أن تطعنه وأنا زوجته؟ . . فأجابها ريشان وهو يغادر الخيمة عابساً ، - أنت علة ما نحن فيه . . أنت سبب الهزيمة التي تحديق بنا . . . شيخنا ينبغي أن يموت . .

وعاد ابن مذكور مسرعاً إلى ذراعي زوجته ، ولكن صرخته روعت

الحي، فأقبلوا مسرعين إليه. فإذا بسعدة تشتلب من طعة حنجر في جنبها وتوشك أن تموت. وظلت تحتضر وظل ابن مذكور معها ليل نهار يراقب الروح التي تريد أن تنطلق من جسمها.

كانت النساء من حولها تبكي وتولول. وكانت هي تشكو بصوت واهن، - وای.. وای.. أنا ضعيفة لا أساوي شيئاً. لم أقم أظعن نفسي الطعنة القاضية.. ایه.. ما الفائدة وهذا ابن مذكور ما زال يجلس بجانبی؟!.

وجاءه رجال قبيلته فقال لهم، - ما أكثرنا وما أقلهم.. وفروا الخيول وهاجموهم على أقدامكم. ولما جاءت الرسل بأخبار الهزيمة لم يقدروا أيضاً خيبتها وقال، - دعوا بني لام يكرروا عليهم بخيولهم.

وراح القوم يفكون أربطة خيولهم. بينما كانت امرأة من ابو محمد تذكي نيران الحماسة في قلوب رجالها. ولما رأت بني لام قادمين على خيولهم، خافت أن يدب الرعب في قلوب أهلها. فرفعت ثيابها إلى نحرها وتجردت وهي تجري في اتجاه الخيل القادمة وتصيح، - يهتك عرضي بنو لام أو ينقذني ابو محمد.. لقد كانت «مكية» أخت الشيخ صيهد. وما إن رآها ابو محمد حتى اندفعوا وراءها يقاتلون بعنف وشدة حتى انتصروا وولى بنو لام أمامهم الأدبار.

وأيقظت الأخبار المزعجة ابن مذكور من أحزانه فأسرع إلى سعدة يحملها بين يديه إلى القارب ويأمر خدمه بنقلها إلى الجانب الآخر للنهر. وأسرع هو إلى ميدان المعركة، ولكنه جاء متأخراً. كان بنو لام قد أخذوا بالهجوم المحموم الذي قام به عليهم بنو لام ولم يجدوا النجاة إلا باللقاء أنفسهم في النهر فلم ينج منهم إلا القليل. وغنم ابو محمد كل ما خلفوه وراءهم من خيام وأسلحة وخيول وماشية... وبالاختصار، لم يسمع أحد بنصر كامل كهذا ولا بهزيمة منكرة كهذه.

وعلى الضفة الأخرى للنهر كانت سعدة في النزح الأخير . فقد فتحت الحركة السريعة في نقلها جراحها وأخذت تنزف . وكانت وهي في هذه الحالة تنادي بصوتها الضعيف أباه وترجو صفحه . كما كانت تندب حظها وتقول ، - آه . . يا لي من شقية . . أموت ، وموتي لا يجلب النجاة لبني لام .

وانفضّ النسوة من حولها حين أقبل حصان يركض وجوانبه المرتعشة تقطر ماءً ، وكان راكبه ابن مذكور عارياً وبه مائة جرح تنزف . وألقى بنفسه عنه وركع بجانب سعدة وأخذها بين ذراعيه وهو يقول ، - وحياتك يا سعدة لن أسكن حتى أرى بني لام وقد تجمعوا ثانية بعد تشتتهم وأصبحوا أعظم قوة مما كانوا . . وحبك يا سعدة سافعل هذا . .

وقال الحاج ركان وهو يشير بيده ، - لقد نفذ وعده . . والله وحده يعلم كيف كان ذلك . لقد استطاع بجسارته وشجاعته وبدسائسه أيضاً أن يجمع حوله بني لام . كما استطاع أن يكسب إلى جانبه حلفاء . وبحسن إدارته وتدبيره استطاع أن يعوّض قبيلته ما خسرت في تلك المعركة وأن يشتري لها الأسلحة ، و . . . ولا أطيل عليك فانت تعرف كما أعرف أن النتيجة كانت هزيمة البو محمد . .

ولم يتأثر الحاج ركان في قريته النائية داخل الهور بالأدوار الأولى لهذه المعارك لأن الأتراك لم يهتموا بها حيث كانوا يتبعون سياسة فرق تسد . ولم تتدخل الحكومة إلا عندما تعرقلت الملاحة في نهر دجلة وجرح الرصاص المتبادل الكثير من المارين . وكانت أولى الخطوات التي اتخذتها في هذا السبيل ، تقوية الحاميات في الحصون الطينية الصغيرة المقامة على جانبي النهر . وتحقيقاً لذلك اضطرت إلى نقل الحاميات من الحصون القائمة أسفل النهر في مناطق الأهوار وتركتها دون حماية . وعند ذلك واثت الحاج ركان الفرصة فتقدم تشجعه حخته إلى كربلا وزار البوزباشي

قائد الجندرمة المحلية في قلعة صالح أكبر مدينة على النهر في منطقة الأهوار. وكسب منه بحجته أذنًا صاغية. فعينه شاووشًا لحصن الكسارة الطيني وطلب إليه أن يجند قوة من ستة أفراد. وأعطاه هو وأفراد قوته مرتب شهر واحد. وكان المبلغ الذي أخذه هو الأجر الوحيد الذي حصل عليه طوال مدة قيادته التي استمرت ثلاث سنوات ومع ذلك فقد كان راضياً.

كان مسروراً حقاً، لا لأن لقب الشاوش وحده يرضي غروره البسيط الذي لا زال يطبعه في شيخوخته، ولا لأنه كمعيدي من الأهوار قد بلغ من بين نظرائه مرتبة رفيعة وراء حدود هوره، وإنما كان أيضاً لأن هذا المنصب يعطيه فرصة واسعة لكسب النقود وجمعها. وهو، كما هو شأن غيره، لا يترك الفرصة تفلت من يده.

كان يدرك أنه يستطيع التماذي في غيّه وهو آمن، فإنه ما دامت السلطات التركية في قلعة صالح تأكل مرتبه ومرتب رجاله الست فإن عليها أن تغض الطرف عن سيئاته وأن تغض الطرف عن كل شكاية تقدم ضده. كما كان يدرك أن سكان الأهوار أجبن من أن يتقدموا بالشكاية ضده ويعرضوا أنفسهم بسببها لغضب الحكومة.

وتقع الكسارة التي يقوم عندها حصن الحاج ركان على مسافة أميال قليلة من قبر العزيز حيث ينصبّ جدول من الماء الصافي الآتي من الهور إلى نهر دجلة. وقد اتخذ الحاج ركان من موقعه عند المصب محطة جباية مكوس. فلم يسمح لدنج أو بركاش أو مشحوف أو طراة أو شلية بالمرور إلا بعد أن تدفع ضريبة على ما تحمله سمكاً كان أم قصباً أم حصراناً أم ريشاً أم طيوراً برية أم غيرها. وكان الحاج ركان يقدر قيمة الحمولة بنظره الذي ما كان يعرف القناعة.

وأخذ الحاج ركان يزداد غنى. على أنه لما ازداد ضراوة نتيجة

الحصانة الطويلة التي تمتع بها جلب السقوط على نفسه .

في يوم من الأيام وصلته رسالة من اليوزباشي يخبره فيها أن لفة ثمينة من الحرير سرقها عرب الأهوار عندما أغاروا على إحدى السفن المارة في النهر . وطلب إليه أن يقوم بأبحاث كاملة عنها وأن يتصل في الحال برؤسائه عندما يتوصل إلى معلومات تؤدي إلى القبض على اللصوص . وأجاب الرسول بمرح قائلاً ، - على عيني وراسي - . كان مرحاً لبساطة القضية التي كلف بها . فما عليه إلا أن يصغي إلى «تيل» القصب منسقطاً الإشاعات . ولو عرف أن الأمر لا يهم اليوزباشي وحده وإنما يهم معه أيضاً عدداً كبيراً من الموظفين ذوي الرتب العالية لنظر إليه نظرة أخرى . كانت اللفة لشركة بريطانية لحقتها خسائر في حوادث مشابهة فتقدمت بشكواها إلى القنصل البريطاني في البصرة الذي أحالها بدوره إلى المقيم البريطاني في بغداد . ولما كان هذا المقيم البريطاني يتمتع بمركز ممتاز فقد أسرع والي بغداد وأصدر أوامره المشددة لمتصرف المنطقة باكتشاف الحرير المسروق في الحال . وكانت الأوامر من الشدة والتهديد بحيث أزعجت الموظفين المحليين وأخافتهم على مراكزهم المريحة .

ولم يكن الحاج ركان يدري شيئاً عن هذا الاهتمام الذي أبدته الدوائر العليا . ولذا قضى عدة أيام ينتقل بقاربه في أنحاء الهور يتسقط الأخبار من هنا ومن هناك . وكانت الإشاعات نشطة كما هي العادة . فسمع من أكثر من واحد قصة أنارت له الطريق . وعلم أن اللصوص مختبئون في ايشان أم دبس الذي يقع على مسافة قصيرة من الهور ، وأنهم يأملون في تلك الليلة أن يعترضوا طريق قارب شراعي منحدر مع النهر لبيعوا لصاحبه ما لديهم من أسلاب .

ووجد الحاج ركان نفسه في حيرة ، أذهب إلى اليوزباشي بهذه القصة التي سمعها وقد يضيع الوقت ويوفق اللصوص في بيع ما سرقوه ويهربون .

وهو مع ذلك لا يعرف مدى صدق القصة وليست لديه أدلة مقنعة. وقد تكون كاذبة فيضيع اعتباره بها. ومن جهة أخرى إذا استطاع هو وحده أن يسترد المسروق فقد يفتح أمامه الطريق إلى الرقي والمكافأة. وتغلب أخيراً على الحاج ركان طموحه. ورتب أن يتولى الأمر بنفسه. فأرسل حسين، أخاه غير الشقيق، للتجسس على اللصوص ويعاونه رضا من رجال الحامية.

ويقول الحاج ركان إن لفة الحرير كانت تدور برأسه وهو جالس يفكر في المكوس التي سوف يحصل عليها من قارب كان يتجه نحوه متباطئاً. ولما اقترب منه ولم ير أحداً يحركه صاح على أحد الصبية وأمره بإحضاره. واستطاع الولد بضربات سريعة من مجاذيف قاربه الصغير أن يصل إليه. ولكنه ما لبث أن صرخ صرخة مفزعة وعاد أدراجه كالمجنون وهو يصيح دم.. دم.

قام الحاج ركان ومعه ثلاثة من رجال الحامية إلى المشحوف فوجدوا في قاعه جثتين ملطختين بالدماء. ورأوا في واحدة منهما خنجراً طويلاً معقوفاً. وفيما بين الجثتين كانت لفة من الحرير الأصفر الثمين قد حل قسم منها وتلطخ بالدم وبدا كما لو كان صراع قد قام عليها. أما طياتها الباقية فما زالت على جمالها تلمع في ضوء الشمس.

وعندما رفع الرجلان من القارب وجد أن الخنجر مغروس إلى قبضته في جنب رضا وقد مات. أما حسين فقد بدا حيّاً عندما تحرك من مكانه وتأوه. ويقول الحاج ركان، - حملناه إلى منزله وزوجاته بصرخن ويولولن. - وكنت أعلم أنه لن يعيش طويلاً. وعندما جلست بجانبه سمعته بهمس، - أخي.. أخي.. إنني أموت.. اسمع القصة حتى تأخذ بشاري. أخذنا أنا وال... رضا نقرب من ايشان أم دبس ورحنا نتلصص من وراء القصب فعرنا أن الإشاعات صادقة ورأينا اللصوص هناك. رأينا اثنين منهم نائمين

بينما كان الثالث ممسكاً ببندقية بحرس المجرى الوحيد الذي يوصل إلى الايشان. وبعد أن رأينا كل ما أردنا رجعنا بهدوء مسافة بعيدة ثم وقفنا نتناقش في أفضل طريقة نحصل بها على الحرير. وقد بدا لنا عسر ذلك. أنصعد في المجرى؟ إن الحارس سيصيبنا ببندقيته مهما أسرعنا. أنزحف إليه خلال القصب؟ إن حركة القصب لا بد أن تسمع فيتوجه إليها انتباهه. وأخيراً قال رضا، - كلما كانت الضجة أصغر كان الخطر أكبر. أترى معي أن نعمل ضجة كبيرة كما لو كنا جواميس ترعى؟ وعلى هذا اتفقنا وأخذنا نحرك القصب محطمين بعضه ونحن نتقدم نحو الايشان آنأً ونتأخر أخرى. ولكننا كنا نقرب منه شيئاً فشيئاً حتى لاحت لنا الفرصة فهجمنا واستطعنا قتل اثنين من اللصوص بينما استطاع اللص الثالث الهرب. ولم نفكر في اللحاق به، إذ وجدنا الحرير في بطن مشحوفهم. وأسرعنا عائدين ما وسعنا الإسراع مخافة أن يعود اللص الهارب بنجدة حتى إذا وصلنا إلى النهر نزلنا مع تياره منحدرين.

وحل رضا ونحن ننحدر مع التيار بعضاً من الحرير فبدا جميلاً ناعماً براقاً كخد العروس. ورأى ذلك رضا فقال، - أنخاطر بحياتنا لنرجع إلى الدولة حريراً كهذا وهو يساوي ثمن عدد من النساء.. وراح يفك قسماً آخر من اللفة وهو يقول، - من الخبل أن نترك هذا.. ألسنا نحن الذين نملكه حقاً؟ وهل يعرف ذلك أحد؟ فأجبت، - ألا ترى فيما لو أخذناه عاراً على الحاج ركان؟ ولكن رضا رد صائحاً بعنف، - لعنة الله على أبيه..! نحن وحدنا اكتشفنا مخبأه.. هذا الحرير نصفه لي ونصفه لك. ورفضت الإصغاء لكل ما قال. فازداد غضباً وخطف الحرير فظننت أنه يريد أن يقفز به إلى الماء وتشبث به. وعندما التفت إليّ كان كل منا قد شهر خنجره....

وقال الحاج ركان، - لم يستطع أن يقول أكثر مما قال، ولكنه كان كافياً، وقيل الفجر مات. وقمت أنا إلى اللفة فأخفيتها منتظراً الوقت الذي

أقوم فيه بتسليمها إلى اليوزباشي . وكنت في كل يوم أنطلع إليها وأذكر في أنه من المؤسف ألا يستفيد أقارب حسين منها وقد دفع حياته الغالية ثمنًا لها . . ! ورات زوجتي الحرير فخیل إليها أن عینہا لم تقعا من قبل على ما هو أجمل منه . كانت تطيل النظر إليه وتحسس نعومته . ولما عرفت أنني أفكر في تسليمها إلى اليوزباشي بكت بدمع غزير لأنها كانت تريد لها لزيتها . فقلت لنفسي لم أحرماها؟! وهب أن اليوزباشي سمع أنني وجدتها ألا أستطيع الإنكار؟! وربما كان في الإمكان اقتسامها معه . وهبه طمع فيها كلها ، فما خسارتي أنا؟ إنه لا يجسر على أن يعاقبني لأنه ما زال يلحس الدهن من ذقني . . .

وأصغى الحاج ركان إلى توسلات زوجته فأخذ لفة الحرير وأخفاها تحت كومة الأرز ليجيل نظره فيها عند المساء تحت ضوء المصباح حين يخلو الجو له ولزوجته ويصبحا في مأمن من عيون الناس .

ومر الزمن والحرير لا يسأل عنه أحد . وأخيراً لاح لعين حادة من عيون أحد رجال الحاج ركان قارب مدير ناحية قلعة صالح يتقدم بهدوء نحو الحصن . وفكر الحاجي آتياً في إلقاء الحرير في الماء ولا سيما وأن إلقاءه في الماء لا يتلفه ، ثم من يفكر في البحث عنه في قاع النهر . . ؟! . وأسرع يصف رجاله على الشاطئ وفي أيديهم أسلحتهم ليحيوا المدير تحية عسكرية بإطلاق النار في الهواء . وبالاختصار - لم يهمل شيئاً قد يؤدي إلى إزعاج مزاج جميل أفندي . .

والتفت نحوي الحاج ركان وهو يقول مترفعًا ، - تعرفه تمام المعرفة - فقلت ، جميل . . ذاك؟ . فأجاب ، نعم . . هو نفسه . . وأنا أعرف جميل أفندي تمام المعرفة . إنه أحسن ما يكون الموظف التركي . إنه شريف رقيق ويشوش . وقد خدم الحكومة التركية زهاء نصف قرن . ومع أنها كانت بسخافاتنا تسوق أي موظف إلى السرقة أو الاستقالة أو الموت كمدًا ، فقد

بقي جميل أفندي مع ذلك، لا يرتكب شيئاً من ذلك. واستطاع، دون أن يلقى تشجيعاً، أن يسلك طريقه سنة بعد أخرى. وها هو ذا الآن يشغل وظيفة مدير ناحية قلعة صالح مثلما كان في ذلك العهد.

وليس من عادة الشرقي أن يعلن الغرض من زيارته سريعاً وبصورة مباشرة. ومع ذلك فقد كشف جميل أفندي عن الغرض من مجيئه إلى الحصن بلهجة رقيقة حين قال، هم يقولون إن الحرير في بيتك ومع أنني والله أعلم كذب ما يقولون إلا أنهم أصدروا إليّ الأمر بالتفتيش. وأنت لا بأس عليك، والمسألة بسيطة.. سأقوم بتفتيش صوري ثم أنصرف.. ويكون رؤساؤنا قد رضوا عنا كلياً.

ويقول الحاج ركان، - إذا كان التفتيش الذي قام به جميل أفندي صورياً فما عسى أن يكون التفتيش الحقيقي إذن.. ١٩٠. لقد أخرجوا كل ما لنا في داخل أكواخنا، وفكوا الحصران الملفوفة، ونبشوا القصب المحزوم لغذاء الجاموس. وفعلوا مثل هذا في البردي المخزون للوقود. ثم بحثوا في السقف عن مكان يمكن إخفاء الحرير فيه. وأخيراً قلبوا أرض الكوخ فلم يعثروا إلا على ثروة صغيرة أمضت زوجتي العمر في ادخارها، ولكنهم بعد أن رآها المدير أعادوها إلى مكانها. وكان البحث جارياً على حين كان جميل أفندي يقف صامتاً ومن حوله دائرة من الأطفال العراة. وكان لطيفة قلبه يربّت على رأس أحد الأطفال تارة ويمنح آخر قطعة صغيرة من العملة. وعاد الكاتب وأخبره أن البحث لم يأت بطائل. وهكذا سار الاثنان ببطء على ضفة النهر يتحدثان والأطفال في أثرهما.

ولشدهما دهش الحاج ركان عندما رأى المدير يلتفت إلى الأطفال يسألهم فيتصدى من بينهم ابنه للإجابة. وأسرع الحاجي متجاهلاً إجابة ابنه يقول، فدوة الك - ولكن الأفندي كان قد عرف كل شيء بمكره وخداعه. فلم يكن من العسير على جميل أفندي بخبرته في طبيعة النفوس البشرية التي

اكتسبها في حياته الطويلة كموظف عمومي، أن يظهر الحقيقة باستنطاق طفل عار من أطفال الأهوار.

استحوذ الخوف على قلب الحاج ركان حين رأى الكاتب يقترب من المهيلة الراسية عند ضفة النهر ويسحب مرساها ذا الجبل الطويل والأسنان المعقوفة. ووقف الحاجي على مبعدة يلاحظ عملية السحب. وعندما سمع صياح الساحبين، خلع عباءته ولفها بعد أن وضع فيها مرساه، ثم وازنها على رأسه وانسل بهدوء إلى الماء. وأسرع في السباحة حتى وصل إلى الأمان في القصب على الجانب الآخر. وراح الحزن يعلأ قلبه بعد أن فقد وظيفته كما فقد كل ثروته وأضحى أفقر مما كان يوم تقدم لخدمة ملك الملوك.

الفصل السابع

مجيء الإنكليز

كانت السنوات التي تلت فرار الحاج ركان مريبة عليه لأن العرب لا يعطفون كثيراً على التعساء وعلى الأخص من كان مثل الحاج ركان لقوا منه الكثير من الظلم والتعسف عندما كان شاووشاً. وهو لذلك لم يلق ترحيباً وإن كانت حقيقة كونه هارباً من وجه الحكومة المكروهة قد أكسبه شيئاً من العطف.

كان الحاج ركان يباهي دائماً باطلاعاته الواسعة ولكنه أضحي مغلولاً وعاجزاً عن استخدامها. كان يعرف أن وراء الهور مجالاً يستطيع فيه أن يستغل مواهبه في حين يجد نفسه ليس محصوراً في داخل الهور كهارب من وجه العدالة فحسب بل إنه أيضاً عندما عاد إلى قبيلته كان لا يملك شروى نقير. ولو عاد إليها ببعض النقود لاستطاع بذكائه أن يحصل لنفسه بين أبنائها على شيء من النفوذ والجاه. أما الآن فماذا يجديه ذكاؤه الفطري بعد أن عاد لا يملك سوى عباءة خشنه من الصوف وسوى لباس رأسه ونعاله ومسدسه. وحتى هذه الأشياء سرعان ما اضطر إلى استبدالها بما هو أرخص منها حتى يتوفر له بعض المال يسد به حاجاته الملحة. وكان هذا الذي حل به، لأن رجال الجندرمة قد استولوا على كل ما في كوخه عندما هرب على أثر اكتشاف جريمته. وحتى النقود التي كان قد ادخرها أيام سلطانه استولوا عليها. بل إن جاموسه الذي كان لسوء حظه يرعى في

المنطقة المجاورة أرشدت عنه زوجة أخيه حسين ، لأنها كانت تعتقد أن مصرع زوجها يرجع سببه إليه .

وبعد أن مضت بالحاج ركان سنوات وهو بهذا البؤس والشقاء أخذ يفكر فيما إذا كانت جريمته قد طواها النسيان . وفيما إذا كان يستطيع أن يغامر مرة أخرى في العالم الفسيح وراء الهور . وفيما هو كذلك بدأ لفظ محبب يصل إلى الأذان في الأهوار يقول بأن معاملة الأتراك لجميع الناس أخذت تتحسن ، وأن الشيوخ في دهشة للخلع التي خلعت عليهم وللأوامر التي صدرت بتأجيل دفع الضرائب التي طالما ألحوا في طلبها .

ويقول الحاج ركان : عندما سمعت هذه الأخبار أحسست بالأمل يجيش في صدري . وقلت لنفسي أبشري . . ها هي الحرية قد وصلت أخيراً . ولكنني كنت متسرعاً في تفاؤلي . إذ بينما كنا نتحدث فيما حدث ونعجب له ، جاءت رسالة تدعونا إلى الجهاد . فقد جاء الإنجليز الكفار في البحر ووصلوا إلى البصرة . وسرعان ما عرفنا بأنها الحرب الحقيقية . فقد كنا نرى سفناً مملوءة بجنود الأتراك تنحدر نحو الجنوب .

كانت تصلنا إشاعات تقول إن الأتراك طردوا الإنجليز إلى البحر . وكانت تصلنا أخرى تقول العكس . . الأتراك هزموا وذبح الإنجليز قائدهم . وما كنا ندري أين الصدق . كنا نرى بأعيننا سفناً كثيرة تحمل جنوداً من الأتراك وفرقاً من أبناء القبائل . كما كنا نرى أيضاً فرقاً أخرى تمر بنا سائرة على جسور النهر في طريقها جنوباً . ثم سمعنا أن معركة كبيرة تدور رحاها في منطقة القرنة . ونقل إلينا أخباراً عن المعركة جاشا بن شامخي وهو رجل صدق نعرفه ، إذ إنه حامل لواء فالح شيخ ابو محمد .

قد سمعت صوت المدافع قبل ذلك . ولكنني لم أسمعها مطلقاً بمثل هذا الدوي الذي كان يأتي من جهة البحر . كانت كالرعد القاصف وكادت أن تصيني بالصمم . وقد ألقيت بنفسي في مجرى الماء أجتني منه . ورايت

الناس يجرون وقد أخذهم الفزع يبحثون لأنفسهم عن ملجأ. ولما سمعتهم يصيحون كيف نحارب هؤلاء المسيحيين وبينهم عيسى هبط من السماء يساعدهم، رأيت نفسي أجري وراءهم وأنا أقول لنفسي، من أنا حتى أحارب نبيًا؟!

ودارت الدائرة على الأتراك وفر المجندون من أبناء القبائل إلى أهليهم كما فر الجنود الأتراك وانتشروا مبعثرين وقد أخذ بهم الهلع حتى كان باستطاعة نساء الهور الحصول على كثير من البنادق.

وأخيراً سنحت للحاج ركان الفرصة التي انتظرها طويلاً. ففي يوم من الأيام شحطت مدرعة تركية كبيرة قرب الكسارة التي كان فيها شاووشا والحاكم بأمره. وكان هناك مئات من الأعين تنلصص عليها من فرجات القصب وهي تلقي بأضوائها الكاشفة على ما حولها في محاولة لتشق لنفسها طريقاً خلال المياه الضحلة. واستطاع الحاجي أن يميز من بين رجال المدرعة اليوزباشي الذي سبق أن عينه شاووشا.

كان من الواضح أن الأتراك في متاعب جمّة، والوقت ليس مناسباً لأن يتذكروا تلك اللفة من الحرير. وحتى لو تذكرها اليوزباشي ألا يتذكر أيضاً رواتب الشهور العديدة التي يدينها بها الحاج ركان عندما كان شاووشا تحت رئاسته. وعلى كلٍّ لقد تغيرت الظروف والوضع الحالي يحتم على اليوزباشي أن يدفع. قلب الحاج ركان في ذهنه هذه الأفكار ثم تقدم بقدم ثابتة إلى السفينة وحيى اليوزباشي باحترام بالغ. وكان الرد على تحيته حاراً. وبدا كما لو كان هو نفس الرجل الذي يبحث عنه اليوزباشي. فقد استدعى الضباط الآخرين وجرت بينهم مناقشة حماسية باللغة التركية فلم يستطع الحاج ركان لجهله بها أن يفهم منها شيئاً.

وأخيراً تكلم اليوزباشي باللغة العربية قائلاً، - ألا يرغب الحاجي في أن يكسب بعض النقود؟ - وأعطاه عدداً من الليرات الذهبية ليأخذ لنفسه

منها خمسًا ويوزع على كل رجل من الرجال المساعدين له ليرة واحدة. واستمر البيوزباشي يقول، هل ترى الصواري العالية لتلك السفينة الواقفة جنوب العزيز؟ إنها مملوءة بالذهب لدفع رواتب الجنود الإنجليز. وإذا أمكن قتل بحارتها والاستيلاء عليها قبل الصباح يكون لك خمس ما بها من الذهب. أما إذا بقيت كما هي الآن إلى شروق الشمس فإن مصيرنا سيكون الهلاك والموت.

وجدها الحاج ركان عملية لا يخسر فيها شيئاً بينما يكسب كل شيء. وعلى ذلك قبل العرض الذي عرض عليه. فالإغارة على السفن النهرية عملية ليست جديدة على عرب الأهوار. فما على الواحد منهم إلا أن يتعري ويدهن جسمه العاري بالشحم حتى يستطيع الإفلات ممن يحاول الإمساك به. ويلقي بنفسه إلى الماء بهدوء وينساب مع التيار حتى يصل إلى الباخرة فيتستر بظلالها ويساعده أيضاً على ذلك جسمه الداكن الذي لا يسهل تمييزه عما حوله. وهناك ينصت وينتظر حتى تأتي اللحظة المناسبة فيسلق بخفة إلى السطح ويستولي على ما يستطيع الاستيلاء عليه. ثم يلقي بنفسه في الماء وينساب مختفياً في القصب. وهذه هي الصورة العادية للخطوة التي يتبعها عرب الأهوار لمثل ذلك. وقد رسمها الحاج ركان للبيوزباشي مكبرة قليلاً.

وفي مساء تلك الليلة وبعد أن احتجب القمر انساب نحو المائة من عرب الأهوار عراة الأجسام إلى الماء. وكان كل منهم يمسك خنجره بين أسنانه ويدفع أمامه حزمة من القصب والحلفا لتساعده من جهة على الطفو ومن جهة أخرى لتستر منظر الرأس البشرية المستدير الظاهر على سطح الماء.

وتقدم الجميع بفودهم الحاج ركان نحو المدرعة الإنجليزية التي كان الصمت يخيم عليها. وفجأة انبعثت منها الأضواء الكاشفة، أنارت سطح

الماء وكشفت ما عليه . ويقول الحاج ركان ، - كان الشعاع قوياً حتى خلته ينبعث من عين الله نفسه . . ! أي والله . . ودب الفزع في قلوبنا فانقلبنا نحو الشاطئ ولكن بعد فوات الأوان . فإن مدافع السفينة أخذت نضربنا وهي تتبع الضوء الكشاف في حركته منتقلاً على سطح الماء من جانب إلى آخر . وبعد فترة قصيرة عاد كل شيء إلى سابق هدوئه بعد أن اختلط ماء دجلة بالماء .

ونجا الحاج ركان من الطلقات التي كانت تنزل كحبات البرد ، وقد أقنعتة هذه المخاطرة والنتائج المؤسفة التي ترنبت عليها بأنه ليس أهلاً لمحاولة سلب السفن الحربية . وانطلق يجري من الفزع دون أن يفكر في مصير المدرعة التركية التي فشل في إنقاذها . ويقول ، إنه عرف فيما بعد من بعض العرب أن الأتراك فضوا الليل كله وهم يحاولون تعويم باخرتهم ولكنهم فشلوا . وفي الصباح هجرها بحارتها بعد أن صوبت إليها المدرعة الإنجليزية نيران مدافعها وأشعلتها . وقد شجع ما حدث عرب الأهوار على أن يتقدموا لسلب ما يستطيعونه من الباخرة المهجورة ومن بحارتها الذين تبعثروا بعد فرارهم . وتبدو هذه الصورة لأخلاق عرب الأهوار الذين أتجول الآن بينهم مع الحاج ركان غير سارة ومع ذلك ، فإنه مما لا شك فيه أن أكثر صفات المعدان همجية قد انكشفت لكلا الجيشين المتحاربين .

رجع الحاج ركان إلى مقره في الهور بانساً واجفأ . ولكن الوقت والظروف المحيطة به كانت مع ذلك مثيرة جداً بحيث تدفع رجلاً مثله لا تعرف نفسه الهدوء والاستقرار ، لأن يسعى إلى الاستفادة منها .

كان يبدو لعرب الأهوار أن قوارب الأنهار في العالم كلها قد جمعت في نهر دجلة . ولم يحدث أن تولد الإغراء في نفوسهم في يوم ، بل ساعة منه ، كما حدث في ذلك الوقت . كانت الفرص سانحة أمام اللصوص للإغارة على القوارب التجارية وهي تشق طريقها ، بطيئة صاعدة في أكثر

أجزاء النهر ضيقًا، محملة بالمواد الغذائية وبعلف الحيوان وبالذخائر والمواد الطبية وغيرها من متطلبات الجيش. وكانت «الدواب» المحملة بالأمثلة، وهي تسير قوافل تحت حماية إحدى المدرعات، يكاد بعضها يتغرس في المياه الضحلة قرب أحد الشاطئين أو يشحط في القصب الطويل على الجانب الآخر. وكان اللصوص، وهم يتطلعون من فرجات سجن القصب، يرون في ذلك فضلاً عليهم من الله ونعمة. وكانت الطلقات القليلة التي تطلق من وقت لآخر لحماية طريق المواصلات لا تزيدهم إلا جرأة واستخفافاً. فأصبحوا لا يكتفون بالغارات الليلية بل أخذوا في وضع النهار أيضاً يتسللون إلى «الدوبة» المارة أمامهم ويسلبون منها ما يقع تحت أيديهم ثم يقفزون إلى الماء مستهينين بالطلقات العديدة التي كانت تصوب وراءهم.

ولكن عمليات النقل النهري، التي كانت تبدو في نظر المعدان لا نهاية لها، أضحت لا تستطيع سد حاجة الجيش المستمرة في الزيادة. وأخذت جماعاتهم تراقب القطار في دهشة وهو يسير على طول الشريط الوحيد الممتد في الأرض الثابتة التي أمكن مد خط سكة الحديد عليها. ولما تغلبوا على الذعر الذي ولده في نفوسهم الهيكل الحديدي الضخم، أصبحت عربات الشحن في مؤخرة القطارات مصدراً مألوفاً آخر للكسب، إلى جانب مصدر الدواب النهري.

كان القطار الطويل يضطر أن يهدىء من سرعته عند المنحنيات العديدة في الخط الحديدي. وبذلك كان يسهل على اللص أن يتسلق إلى إحدى عربات البضائع ويلقي منها ببعض أكياس الحنطة أو السكر. واضطرت السلطات العسكرية لمقاومة ذلك أن تقيم على عربات البضائع حراساً شاكبي السلاح من الهنود. لقد أخاف ذلك اللصوص إلى حين، ولكنهم توصلوا بعد ذلك إلى حيلة ناجحة. كانوا يأتون بفالاتهم ذات الأسنان الخمسة ويربطونها بحبل طويل ثم يقذفونها إلى عربات البضائع

ويسحبونها بما تكون قد صادفته. وفي بعض الأحيان يحدث أن يكون الصيد أحد الحراس الهنود. ولما لجأت السلطات إلى تغطية العربات بشباك متينة وعجز اللصوص عن التغلب عليها عادوا كرتهم إلى النقل النهري يشتدون بضغطهم عليه.

ويقول الحاج ركان، إنه لم يشترك في تلك الغارات، وإن كان قد وجد فيها فرصة ليستغل مواهبه فيها بصورة غير مباشرة. ويوضح ذلك بقوله، - في تلك الأيام كان هناك كثيرون يحصلون على أشياء قيمة ولكنهم لا يعرفون كيف يستفيدون منها فكنت أبادلهم إياها بأشياء أخرى يحتاجون إليها.

وأخيراً جاءت فرصة مدهشة أدخلت الحاج ركان في القوات النظامية. كانت الغارات على السفن والقطارات لا تزال مستمرة ولكنها أصبحت متقطعة وعلى نطاق ضيق، ومع ذلك فقد كانت متعددة وتتطلب مقاومتها جهوداً مبعثرة. وقد شغل هذا بال السلطات العسكرية، ذلك لأن احتياطي المؤن والذخائر قد بلغ حداً خطيراً من النقص بلغ الحد الذي لم يعد الجيش بعده يستطيع أن يتحمل أقل خسارة فيه. فكانت أجراس التلفون تدق باستمرار يطالب الموظفون الإداريين الإنجليز الذين حلوا محل المتصرفين والقائمقامين الأتراك أن يقوموا بأعمال حاسمة لمقاومة تلك الغارات.

وقد حدث، في يوم من الأيام، أن كان الحاج ركان يمشي في سوق قلعة صالح مشية الاعتداد التي مرن عليها منذ أن صار عريضاً، بعد أن أخفى قاربه المحمل بالبضائع المسروقة بجانب حقل من حقول النخيل المجاورة للبلد، فأوجس خيفة عندما رأى أحد المدنيين يشير إليه وهو يتحدث إلى أحد رجال الشرطة قائلاً: هذا هو الحاج ركان.

ويقول الحاجي، - عندما رأيت ذلك قلت أشهد أن لا إله إلا الله.

وأحسست لأول مرة بالكراهية لإنسان يساعد من ليسوا من أبناء جلدته وأمسك بي رجل الشرطة وهو يقول، : الحاكم يريدك. ويعني الحاكم: الضابط السياسي. وقادني إلى شاطئ النهر إلى حيث رأيت المشحوف حاضراً وبحارته بجانبه ينتظرون. وبجانبه إنجليزي يتحدث إلى عريفه. كانت لغتنا غريبة عليه، ثقيلة على لسانه فما كان يستطيع النطق بها. فانتهزت فرصة وخاطبت الكاتب الهندي الذي كنت وقفت بالقرب منه وقلت له: - إنني أرسلت إلى بيته ست دجاجات، وكانت كذبة مني، والله يغفر لي. ثم سألته، ماذا يريد الحاكم مني فأجاب بلغة عربية ركيكة، القائد صب جام غضبه على الحاكم بسبب السرقات العديدة التي ارتكبها المعدان. وهو الآن يريد أن يقوم بحملة تأديبية على بعض اللصوص من «بيت خافي». ويقال إنهم عند «أبو رمل» في داخل الهور. وقد سمع عنك أنك رجل تعرف مسالك الهور جيداً فطلب أن تكون برفقة ترشده إليهم.

ورأيت الحاكم يلتفت نحوي يناديني. وكان الوقت بفضل الله ملائماً للصلاة فانتهزت الفرصة وأقمت الصلاة حتى أوفر لنفسي بعض الوقت للتفكير. وعندما كنت أركع تحدثت بصوت خافت إلى واحد أعرفه كان يقف بجانبني وطلبت أن يسرع إلى أولاد عمي في المشحوف يخبرهم بأن «بيت خافي» في خطر. وتوقف الحاج ركان لحظة ثم أضاف، - الله أكبر.. قبل أن أتم صلاتي وجدت نفسي في لمح البصر جالساً في المشحوف بجانب الحاكم. وأخذ رجاله الأربعة يجذفون بسرعة كبيرة نازلين في النهر مع التيار. وحمدت الله عندما مررنا ببستان النخيل ولم أر مشحوفي هناك. وكنت أعرف أن بني عمي يعرفون طريقاً قصيراً إلى ايشان «أبو رمل» لا يعرفه بحارة الحاكم، وما كنت بالطبع أريد أن أدلهم عليه.

وابتدأ الكلام ونحن لا نزال نضرب في الهور وظللنا كذلك سواد الليل، حتى وصلنا إلى قرية «زكية» وهناك استرحنا نحو ساعتين بينما كان قائد المشحوف يتجول في القرية يتسقط الأخبار. ثم جاء يسراً بها أذن

الحاكم . ومن نظراته العابسة خمنت ما سمع . إن بيت خافي قد تركوا جزيرتهم . ولكن الحاكم أصر على الذهاب إلى «أبو رمل» . وانطلقنا مع شروق الشمس وجلست مكان القائد أدير القارب بينما جلس هو وراء الحاكم وبندقيته مهيأة حاضرة .

كنت واقفاً في المقدمة عندما اقتربنا من الايشان فاستطعت أن أرى ، والفرح يملأ قلبي ، أن الجزيرة مهجورة وأن رسالتي قد بلغت إليهم في الوقت الملائم . وقلت لنفسي لقد أصبحت الآن في حل وأستطيع التخلي عن وظيفتي هذه . ولكنني قبل أن أتمكن من التعبير عما خالج نفسي وجدت الحاكم يقول بلهجة مقتضبة ، - إلى «أم الخايس» دون أن يوجه كلمة إلي . و«أم الخايس» هذه جزيرة كانت مسكناً آخر لبيت خافي . لم أستطع التلفظ بكلمة اعتراض لاعتقادي بأن قائد المشحوف لا بد أن يكون قد سمع في القرية عن علاقتي ببيت خافي هذا من جهة . ومن جهة أخرى كان لا بد لي أن أتدبر الموقف وأستفيد من كوني مرشداً إليه . كانت المسافة طويلة ، والحاكم اختار رجالاً لا يعرفون التعب ، ومع ذلك فكان علي أن أشاركهم في التجديف واستعمال المردى .

ويبدو أن بيت «خافي» بعد أن هربوا ظنوا أنهم قد نجوا . وربما يكون التعب قد حلّ بهم نتيجة هربهم المفاجيء . فإننا عندما وصلنا وجدنا الجزيرة محاطة بالمشاحيف . وهكذا نزلنا دون مقاومة وهناك لم نجد غير كوخ واحد قد نصب حديثاً . وناديت على أهله فخرج الشيخ صاحبه ، وقد بهت وبدا عليه الفزع حين رأى الحاكم ينزل من المشحوف .

ومشى الحاكم بقدم ثابتة إلى الكوخ لم يعترضه أحد . وأسرع أحد الرجال إلى المشحوف وأحضر منه بساطاً فرشهُ ، وجلس الحاكم صامتاً لا ينبس ببنت شفة . وكذلك فعل الشيخ ، ويبدو أنه كان مذهولاً ففاته الترحيب بعبارات التحية العادية . وخارج الكوخ تجمع رجال القبيلة يتهايمسون . ومن

بينهم دخل ثلاثة من الرؤساء وجلسوا بجانب الشيخ . وبينما نحن كذلك دخل علينا قائد المشحوف، لا ربحه الله! وهو لابس ملابس جندي إنجليزي ويحمل في يده أشياء أخرى جعلت جريمة بيت خافي واضحة لكل ذي عينين . وعندئذ تحدث الحاكم مخاطباً الشيوخ الأربعة وقال، - غير خاف عليكم أن الحكومة البريطانية العظيمة ترغب في أن تعيش كل شعوبها في أمان وسلام، وأن النهب والسلب من الأمور الممنوعة ولكن بيت خافي لا يزالون مع ذلك لصوصاً ونهايين .

وكان مهاوي أول من تكلم من الشيوخ وقال، يا حاكم الله يطول عمرك.. بعض أعدائنا وشوا بنا لديك بقصص كاذبة، ونحن سكان أهوار لا نعرف لنا عملاً غير رعي الجاموس ونسج الحصر فكيف نستطيع أن نسرق حكومتك العظيمة؟! وبدت من الجموع المتزاحمة حول جوانب الكوخ مهمة الموافقة على ما قال . ولكن الحاكم أخرج من جيبه قطعة من الورق وأخذ يقرأ بصوت مرتفع قائمة بالأشياء التي سرقت من قارب بخاري منذ ليلتين سابقتين .

وعلق الحاج ركان على ذلك بقوله، - أما أنا الذي أعرف أشياء كثيرة خارج الهور، فإن معرفة السرقة التي حدثت سريعاً بواسطة البرق كانت أمراً مفهوماً . أما بالنسبة لبيت خافي فقد بدت معجزة من المعجزات، حتى أن الجموع خارج الكوخ لم تستطع أن تمسك نفسها من أن تتجاوب بصوت مسموع، - الله..! إنه يعرف كل شيء لا تخفى عليه خافية،.. الله يساعد لفنة وبربوتي .

وصاح مهاوي غاضباً في أفراد القبيلة طالباً أن يسكتوا، ولكن آذان الحاكم كانت مفتوحة فقال بصوت حاد، - قبل أن أغادر هذا المكان يجب أن يحضر أمامي لفنة وبربوتي . وأحدث قوله هرجاً ومال البعض إلى الطاعة بينما احتج البعض الآخر . وأخيراً انسحبوا ليتشاوروا فيما ينبغي عليهم

عمله . وسنحت الفرصة لأبين لمهاوي كيف حدثت رفقتي للحاكم ، فسألني كم جندياً معكم؟ إننا لا نرى أحداً آخر . فأجبته متصفاً الهزء بسؤاله ، وهل تتصور رجلاً واحداً يأتي بمفرده إلى قلب الهور يحمل رأسه بين كفيه...؟! . كنت أخشى أن أخبرهم بالحقيقة فيحسب دم هذا الإنجليزي عليّ أنا... .

ومهاوي رجل معروف بدهائه . وقد حاول أن يحرك عواطف الحاكم فقدم إليه صبيين وقال ، - ها هما لفته وبربوتي اللذان بطفولتهما الحمقاء تجاسرا على سرقة الحكومة البريطانية العظيمة الرحيمة . .

وأغاظ ذلك الحاكم فنهض غاضباً وجذب مهاوي من لحيته وأجلسه وأمر قائد مشحوفه «فضل» أن يطلق عليه النار إذا حاول أن ينهض . وصاح في الجموع يطلب إحضار المجرمين الحقيقيين . وكان الذهول قد ران على الجميع . فأبي إنجليزي مهما يكن لا يمكن أن يجسر على إهانة رجل يجذبه من لحيته ما لم يكن معه مئات من الجنود المسلحين لحمايته . وفي هذا الاعتقاد أحضروا المجرمين .

واعترف لفته كما اعترف بربوتي أمام الحاكم بفعلتهما . ولكن الحاكم أمر رجاله بأن يربطوهما في قائمة الكوخ حتى يجلد كل منهما ثلاثين جلدة . وعند هذا الحد عبت الوجوه واكفهرت وثارَت الكرامة في نفوسهم عندما تصوروا دماء أفراد منهم ستسيل . أما أنا فأخذت في نفسي العن الإنجليزي... . والجرأة الحمقاء التي وضعتني في هذا المأزق . فقد بدا لي وقتئذٍ استحالة نجاتنا بعد أن تطلعت إلى ما وراء الكوخ ورأيت القصب يتحرك وبين فرجاته بنادق مصوبة . وأسرعت إلى الحاكم أهمس في أذنه بأننا محاصرون . وما لم يطلق سراح لفته وبربوتي فإننا جميعاً هالكون . ولكنه لم يكثرث لما قلت . وكل ما فعله أن أمر مهاوي بالجلوس بجانبه ، حتى لا يجسر أحد أن يصبوب إليه مخافة أن يصيب مهاوي . وبينما كنت

جالسًا أنتظر المصير الذي سيتقرر، سمعت أقدامًا تجري ورأيت عددًا من الرؤساء يدخلون وقد فارقتهم شجاعتهم وسقطوا على ركبهم أمام الحاكم يقبلون يديه وقدميه وهم يصيحون: - دخالة.. دخالة. وعندما رأيت ذلك وسمعتة عرفت بأن الخوف قد تغلب فيهم على الشجاعة وأنا بذلك قد نجونا.

وعرف الحاكم ذلك أيضاً. وأدرك أنه قد أصبح في مركز يستطيع معه أن يملئ عليهم شروطه. فطالب بخمسة أمثال الأشياء التي سرقها بيت خافي. وقال: عقوبة الجلد يمكن التنازل عنها مقابل عشر بنادق تسلمها القبيلة. وأن على الشيوخ الأربعة أن يجذفوا في قاربه عند عودته ثانية إلى النهر، دلالة منهم على الخضوع. وعندما رأى إحجامهم إزاء هذا الشرط الأخير أعطاهم وعداً بأن يعودوا سالمين.

وفي خلال ذلك جمعت الغرامة وبدأنا رحلتنا في طريق العودة. وفي أثناء ذلك وجدت فرصة لأسأل أحد الشيوخ الذي دخلوا يطلبون الدخالة عن السبب في ذلك فأجاب، - نحن نعرف تماماً أن رجلاً واحداً لا يستطيع أن يواجهنا. وعندما رأينا خلال القصب بنادق جنوده تلمع من خلفنا أدركنا أننا محاصرون، فخفنا على نساءنا وأولادنا. وعندما سمعت ذلك ضحكت. فقد كان ما ظنوه بنادق جنود ليس إلا بنادق يصوبها نحونا شبابهم.

وعندما عبرنا النهر ووصلنا أمرنا الحاكم بأن نطلق نيران بنادقنا في الهواء فارتفع على أثر ذلك صراخ وعويل من الجانب الآخر. وكان ذلك لأن نساء الشيوخ الأربعة وبناتهم قد تبعونا غير واثقين بوعد الحاكم، فلما سمعن إطلاق النار ظنوا أنه أخلف وعده وقتل رجالهن..

وعندما علم الحاكم بذلك ضحك ضحكة مرحة أعادت الطمأنينة إلى القلوب. وأمسك بالبنادق وألقى بها في النهر. كما ألقى فيه أيضاً الصرة

التي جمع فيها الغرامة وكان مقدارها خمسمائة روبية . وضيف الحاج ركان متعجباً ، - لا شيء أعجب مما فعله الحاكم . . يلقي بخمسمائة روبية في النهر . ؟! وأمر الحاكم بعد ذلك الشيوخ بالعودة إلى أهلهم ، فقال أكبرهم بصوت خافت ، - بعد الذي حدث لن نسرق بعد اليوم فقد أصبحنا نخشى هذه الحكومة .

ولكي أرضي الحاكم قلت له : ما شاء الله ، لم أر من قبل فرداً واحداً يهزأ بأفراد قبيلة كاملة . فأجابني ، - أحقق . . إنهم لم يخافوا مني وإنما كان خوفهم من الحكومة البريطانية .

وختم الحاج ركان حديثه قائلاً ، - ومع ذلك فلم أكن أنا الأحق وإنما كان الحاكم . فإن بيت خافي لم يكونوا خائفين منه ولا من حكومته البريطانية ، وإنما كان خوفهم من بني عمومته ومن البنادق التي رأوها تلمع في القصب .

فقلت له ربما هم ، وأنت منهم ، قد رأيتم ما تخشى العين أن تراه . فأجابني غير مقتنع : الله العظيم وحده يعلم .

الفصل الثامن

راية العباس

لم يكن قد مضى إلا القليل من الوقت على المغامرة السابقة التي قام بها الحاج ركان حتى استدعي مرة أخرى. ولم يكن اتخاذ قرار في الأمر الذي عرض عليه سهلاً. لقد سئل فيما إذا كان يرغب في أن يصبح مرشداً للضابط السياسي في منطقة الأهوار. وقد قلب الأمر على وجوهه في ذهنه. فرأى من جهة أن الوصمة التي تناله من خدمته لحكومة كافرة قد تقلل من شأن الوجاهة التي اكتسبها بذهابه إلى الحج. ولكنه وجد أن المكافآت التي سينالها تعوض عن ذلك، لأنها ستكون مكافآت سخية بلا شك. فإن الذي يلقي في النهر بثروة كان باستطاعته أن يضعها في جيبه، يستطيع أن يدفع بسخاء. أما من الجهة الأخرى فقد كان يخشى أن يعود الأتراك بقوات أعظم ويطردوا الإنجليز الكفار إلى البر. ولكنه تغلب على خشيته بتقريره أن أمراً كهذا يبدو بعيد الاحتمال. وهكذا قرر الحاج ركان أن يفتنم الفرصة الجديدة عليها توفر أمامه ظروفاً أفضل يستطيع أن يستغل فيها مواهبه.

وقد أثبتت الأيام، كما سنرى فيما بعد، أن قراره كان صائباً. فقد استطاع في النهاية أن يحصل على ترخيص بذر ربحاً. إذ سمح له بأن يعمل متعهداً لتوريد الدجاج لجيش الاحتلال. وكان هذا العمل هو الذي وجه نشاطه نحو العمل الذي يقوم به حالياً كبقال متجول. ويقول الحاج ركان

إنه من بادیء الأمر أحسن براحة كبيرة عندما علم بنقل ذلك الحاكم . لأنه كان نارياً المزاج ، ولم يكن في أثناء اشتغاله معه يرضى عن اندفاعه وتهوره . بينما كان الحاكم (الضابط السياسي) الجديد من طابع آخر . إذ كان صغير الجسم وواسع الحيلة . وقد استطاع بسعة حيلته التوصل إلى نجاح كبير في مقاومة غارات المعدان . وكان من الواضح أن الحاج ركان يفضل اتباع الوسائل السلمية . فقد كان في حديثه يتحمس لهذا الضابط ويمتدح الوسائل التي اتخذها .

وبدأ الحاج ركان حديثه بقوله ، - قد يبدو ما أقوله لك بعيداً عن التصديق ، ولكن ، وراسك ، وأنت عندي أعز من أخي ، وأنا لا أحكي لك سوى الصدق . . . هل يتصور إنسان أن امرأة ورجلاً مجنوناً يستطيعان القيام بالعمل الذي يؤديه السيف والبارود؟ ثم استدرك وأضاف ، ولكن لا عجب ، فإن الحاكم لم يفعل أقل مما فعلا .

كانت أولى الخطوات التي خطاها هذا الضابط السياسي أن زود نفسه بوسيلة من وسائل النقل السريع الذي لا تستطيع وسائل الهور أن تنافس فيه ، كانت زورقاً بخارياً من تلك الزوارق العديدة التي جاءت من بلاد الإنجليز لسد النقص الخطير الذي أصاب النقل النهري في دجلة . كان زورقاً صغيراً ولكنه مع ذلك يستطيع أن يحمل من الرجال المسلحين ما يكفي لحمايته من غارات اللصوص وهجماتهم .

وفي يوم من الأيام ، بينما كان القارب يشق طريقه في مجرى ضيق محاط بأسوار عالية من القصب ، وكان الحاج ركان واقفاً على صدره يقوم بعمله مرشداً ، شوهد «بركاش» يلج الطرف الآخر للمجرى . وما كاد الراكبون فيه يلمحون الزورق البخاري حتى أمسكوا ببنادقهم وقفزوا إلى الماء الضحل مندفعين إلى القصب يلتمسون الاختباء فيه . فأثارت حركاتهم المفاجئة شكاً في نفس الضابط ، ذلك لأنه كان قبلاً يلاحظ أن المعدان

كانوا عادة يحملقون بدهشة وأفواههم مفتوحة كلما رأوا زورقه يمر أمامهم بسرعة شاقاً طريقه بنفسه. وأمر بسحب القارب، وكان محملاً بحزم القصب. وفتشوه فوجدوا في قاعه ستة من أعمدة الخشب مما يستخدم لمد أسلاك التلفون والكهرباء. وكان في ذلك رأس «الشيلة».

في دجلة الأدنى، وعلى الأخص فيما بين العمارة والعزير، توجد مناطق يضيق فيها المجرى كثيراً وتصبح الملاحة خلالها صعبة في النهار أما في الليل فتبدو مستحيلة. ولما كانت سفن النقل التابعة لجيش الاحتلال لا تستطيع التوقف عن سيرها ليلاً أو نهاراً، فقد قامت السلطة العسكرية بإقامة أعمدة وعلقت بها مصابيح كهربائية على مسافات على جانبي النهر هناك. وفي إحدى الليالي، لوحظ أن مسافة طويلة لا ضياء فيها وتبين أن عشرة أعمدة قد خلعت من أماكنها واختفت تحت بصر وسمع الحامية التي تحرس المنطقة.

أخذ القارب بما يحمل وسرنا في طريقنا حتى بلغنا أول قرية واجهتنا فنزلنا. وبدأت لنا القرية كما لو كان رجالها قد هجروها فلم نر إلا بضع نساء أخذن يحملقن في الزورق بدهشة. ثم جاءت من إحدى الأكواخ امرأة أخرى، هي «غواشة» زوجة الشيخ سليم وأقبلت على الحاكم وقالت، - باسم الله - تفضل - وقادته إلى بيتها ثم أخذت تعمل الشاي. وبينما هي كذلك دخلت «حبيبة» وأخذت تهمس في أذنها. ولم يسمع الحاكم ما دار من الهمس ولكنني أنا الذي كنت أجلس بالقرب منهما سمعته. كانت تهمس، بأن البركاش الذي أحضرناه معنا هو بركاش «سعيد وحبيب» من أبناء العشيرة وأنها خائفة على سلامتهما.

لم تجب غواشة، ولكنني لاحظت يديها ترتعشان عندما كانت تغسل مواعين الشاي. وبقيت صامتة حتى انتهينا من شرب الشاي. ولما نهضنا نهضت ثم تطلعت في وجه الحاكم وقادته إلى الطرف الأقصى للكوخ حيث

يرقد طفل صغير في مهده وقالت، جديد. وكنت أتعجب كيف تتغلب غريزة التباهي في الأم حتى في مثل هذا الوقت العصيب. ولم تفعل غواشة شيئاً سوى أنها أخذت تداعب الطفل. ربما كانت ترغب في إطالة الوقت حتى تتم وضع خطتها لإنقاذ فرينها من غضب الحاكم وثورته.

وطالت الوقفة هناك وظن الحاكم أنها تنتظر منه نقطة «هدية للطفل» فأخذ المنديل الذي كان مربوطاً حول عنقه وأعطاه إليها. وأخذته منه وبدأت فرحة به كل الفرحة. ثم أسرع نحو الباب حيث كنت واقفاً وأخذت تتطلع في الضوء إلى ألوانه الزاهية. وكانت تقربه من عينيها وتبعده وهي تهمس لي، - ماذا عن سعيد؟ فأجبته بخير. وماذا عن حبيب؟ فأجبته ثانية بخير.

وسمع الحاكم الهمس فاقترب من الباب حيث تقف غواشة وقال، - ماذا تقولون عن سليم؟ فأجابت بسرعة خاطر، - سليم زوجي ورئيس هذا البيت. فسأل، - أين هو؟ فأجابت، ذهب لأمر يخصني. فسأل، - وما هو هذا الأمر؟ فأجابت، - استرح وأنا أخبرك.

وجلس الحاكم على البساط المفروش، بينما وقفت غواشة أمامه ولا تزال تداعب المنديل الحريري، وقال، - نعم.. تكلمي. فجلست وأخذت تتكلم بصوت منخفض وتقول، - رجال هذه العشيرة فقراء، وأنا، مع كوني امرأة، أسوقهم أمامي كالقطيع. فقطع الحاكم عليها كلامها تهكماً وقال، - يبدو أنك سقتهم هذا اليوم من القرية، فلنني لا أرى أحداً منهم هنا. فأجابت غواشة، - لقد أرسلتهم جميعاً لينفذوا أمراً كلفتهم به. فقال الحاكم بحق، - ماذا؟.. احكي. فأجابت، - هل إذا حكيت تمنحني الأمان؟ فأجابها، - نعم، أنت آمنة. فقالت، - لقد ذهبوا للسرقة. فقال، - أهم الذين سرقوا هذه الأعمدة؟ فهزت غواشة رأسها علامة الإيجاب وقالت، - لقد أعطيتني وعد شرف.

ران الصمت على الكوخ بعض الوقت وكانت غواشة تراقب الحاكم دون أن يبدو عليها اهتمام بالحنق الذي كسا وجهه. بل ويبدو أن ما رآته قد زادها جرأة فقد اقتربت منه وقالت، - يا حاكم.. لقد قلت لرجال هذا البيت اسرقوا فسرقوا. وإذا قلت لهم لا تسرقوا. فلن يسرقوا. فإذا جنابك وعدت بأن تعطي كل طفل ألدّه نقطة مثل هذا - ونشرت المنديل - فإنني سوف أقول لهم لا تسرقوا.. وعندئذ ضحك الحاكم ووعدّها بما سألت. وقد ولدت مرتين ووفى بوعده فأرسل لها في كل مرة منديلاً من الحرير. ولكنها عندما ولدت طفلاً آخر لم تصلها الهدية لأنه كان قد نقل.

وختم الحاج ركان حديثه قائلاً بلهجة الاشمنزاز وهو ينفض يده، - حماقة، والله حماقة.. كان منديلاً من الحرير! ولكنها امرأة. فلكي يفاخر أطفالها الأطفال الآخرين ضحت بكل ما كان يجنيه أفراد عشيرتها من السرقة، وقد ظنت أن منديلاً من الحرير يساوي كل تلك التضحية.

وانتقل الحاج ركان يقص إليّ قصة أخرى. قصة «مسكيل» الذي استخدمه الضابط السياسي في حملاته ضد اللصوص بالرغم من حماقته التي أنزلته عن رئاسة بيت «ياسين»، وقال، - كان مسكيل رجلاً عجوزاً أشيب اللحية. ومع ذلك فقد كان يتخذ رفاقه من الصغار يقضي يومه يلعب معهم. ولم يره أحد مطلقاً بدون فصيل من الأطفال حتى أن بعض الأشقياء أطلق عليه تسمية «البيمباشي» فعلقت به وعرف بها في كل أنحاء الهور.

وحدث أن سمع البيمباشي عن الإنجليز وعن قصة الهدية التي أعطاها الحاكم لغواشة ووعدّه لها بمثلها في كل مرة تلد طفلاً. وفي حالة دهشته وتصورات ذهنه توصل إلى خطة... وعندما سمع بخطته بيت ياسين هزنوا به واعتبروه تخيلاً من تخيلاته. ولكنه كان يدبر طريقة ليحدث الحاكم بها. قابله ذات مرة فسأله، - أتعرف ماذا يفعل الأطفال من شروق الشمس إلى غروبها بل وحتى في أثناء الليل؟ إنهم يتعلمون السرقة التي احترفها

آباؤهم . إذ بينما هم يلعبون يرون اللصوص وقطاع الطرق في قواربهم وهم يخفونها . أو يتسللون منها بخفة إلى حيطان القصب حيث ينتظرون عند حافة النهر ما يسوقه إليهم القدر . فإذا استطعنا أن نكون منهم فرقة في وسع جنابك أن تطمئن وتأمين شر أولئك اللصوص . وأضاف ، - أي عيون أحد من عيون الأطفال؟ وإن في استطاعتي أن أضع تحت تصرفك مائة زوج من تلك العيون الحادة . نعم حادة . . إنها منذ أن تفتحت على هذا العالم وهي ترنو باستمرار إلى المياه ونحملك في القصب والبردي .

وعاد اليمباشي إلى القرية متصراً ، بعد أن أقنع الحاكم بحجته ، وفي يده كيس من التبغ . وأخذ بهمة وحماس يكون تحت لوائه فرقة من الصبية . وكانوا عراة كما ولدتهم أمهاتهم وهم يجرون وراءه في صعوده على ضفة النهر مع المجرى وفي نزوله عليها معه ، على طول المنطقة التي وكل إليه أمر حراستها . وكانوا ينشدون أناشيد الحرب التي وضعها لهم . فتارة كانوا يصيحون «نحن نرى مشحوف اللص شبيب» . وتارة أخرى يصيحون «ابش يفعل المردي بين البردي» . وبهذه التظاهرات العلنية أثبتوا وجودهم حتى ظهرت منطقتهم تماماً من اللصوص .

وعندما كان زورق الضابط السياسي يبدو قادماً في النهر كان الصبية يهرعون لمقابلته على الشاطئ وهم ينشدون ، «نحن عيون الوالي العالي» وأمامهم مسكيل يهرول ، وعباءته تطير خلف ظهره كما لو كانت أجنحة طائرة وكان «بشماغه» المرفوع على رأسه يبدو كالتاج . وبعد أن يمر الزورق ويأخذ في الابتعاد كان مسكيل يلتفت إلى فرقته ويقف وقفة عسكرية ويحرك يديه وهم يحركون أيديهم معها في حركات منتظمة وينشدون أناشيدهم بأصوات تبدأ واطئة ثم ترتفع . وفي بعض الأحيان كان الزورق يقبل عليهم عند الشاطئ فيتقدم مسكيل وفي عينيه بريق الفخر ليقرر عدم حدوث سرقات في منطقته ويتلقى مقابل ذلك تقدير الضابط السياسي وتهانيه .

ثم لقي المسكين حتفه ذات مساء. فبينما كان يقوم بحراسته كالمعتاد والظلام ينشر خيمته على الكون مر به زورق الرقابة صاعداً في النهر فظن الجنود أنه وفرقته عصابة من قطاع الطرق فأطلقوا عليه النار فقتلوه. وبقتله حلت فرقته وفقد الحاكم تلك العيون الحادة التي حرس له تلك المنطقة من اللصوص ردحاً من الزمن.

وأخذت الغارات النهرية تقل تدريجاً بمرور الوقت ثم توقفت تماماً. ويسلم الحاج ركان بأن مجهودات الضباط السياسيين كان لها بعض الأثر في الوصول إلى هذه النتيجة. ولكنه ينكر ويصر على إنكاره أنها ترجع بصورة كلية إلى مجهوداتهم. ويقول إن العباس أبو الراس الحار هو الذي يرجع إليه الفضل الأكبر.

في أثناء غارة من غارات المعدان جرح أحدهم يدعى «موسى» وألقى بنفسه في النهر مفضلاً ذلك على أن يقع في الأسر الذي لا يعرف نتيجه. وكان جرحه عميقاً استنزف قواه فلم يستطع السباحة وأوشك على الغرق. ورآه جندي بريطاني فألقى بنفسه في الماء ورائه وأنقذه. ونقل موسى إلى مستشفى العمارة وعولج حتى شفي. وظنت قبيلته أنهم ما اعتنوا به حتى أبل من مرضه إلا لبشيقوه. وأرسلت أمه ورائه إلى الضباط السياسي لتشفع له لديه.

وكان هذا الضابط نفس الضابط الذي أعجب الحاج ركان بدهائه وسياسته. ورجعت الأم الحزينة إلى قبيلتها تحمل قراره النهائي. وهو أن حياة ولدها الحبيب تكون في أمان وسيعود إلى قريته سالمًا بشرط أن يجيء رؤساء قبيلتها ويحلفوا اليمين الخطير براية العباس ألا يقوموا مرة أخرى بعد ذلك بأية محاولة للإغارة والسرقة.

وعقد رجال القبيلة فيما بينهم اجتماعاً. وبدأ عليهم التردد في أن

يقسموا اليمين الغليظ الذي يقيدهم أمام العباس بن علي وهو الذي فقد ذراعيه ثم حياته أثناء محاولاته الحصول على الماء للحسين وجماعته في ذلك اليوم المشؤوم بكربلاء. وبالإضافة، فهو معروف بأنه «أبو الراس الحار» لسرعته في الانتقام ممن يحلف به كذبًا. وفي الواقع، يخشى عرب الأهوار القسم بالعباس خوفًا من أنهم قد يضطرون إلى الحنث به فتحل نكبات عاجلة بهم أو بأفراد أسرهم.

وأخيرًا وافق «بيت النجار» على القسم. ولكنهم أبدوا خوفهم من أن يكون الحاكم قد نصب لهم فخًا عندما طلب منهم أن يقابلوه عند حافة الهور. كانوا مستعدين للقسم ما دامت حياة أحد أبنائهم في خطر على أن يكون ذلك في قريتهم. أما أن يكون ذلك خارج مامنهم فلا... ولا... وتبعًا لذلك طالت المراسلات حتى تمّ الاتفاق على أن يحضر رجلان منهم في مشحوف إلى حافة النهر حيث يكون في انتظارهم الحاكم ومعه الحاج ركان.

ويقول الحاج ركان، - إنني بخبرتي بأخلاق بيت النجار كنت أعتقد أنهم سوف يحتشون بقسمهم ويخلفون وعدهم. ولكننا عندما وصلنا إلى المكان الذي اتفقنا على أن يكون اللقاء عنده وجدنا في انتظارنا عليًا العجوز وابن عمه حسن.

وكنا في يوم أغبر تعصف فيه الرياح وتزمجر فتدفع أمامها القارب الصغير في المجرى الضيق فيترنح ذات اليمين وذات الشمال. وعندما زایلنا ذلك المجرى إلى النهر الواسع أخذت الأمواج في هديرها الغاضب تضرب جوانب القارب بلا هوادة فيندفع رذاذ الماء النافر منها يصفع وجوهنا بعنف. وقضينا نحو ساعة في كفاح مع العاصفة حتى وصلنا إلى مأوى بجانب أجمة من القصب، فتوقف الشيخ علي ليأخذ قسطًا من الراحة، بينما أخذ حسن، وكان جريئًا، يجاذب الحاكم

الحديث قائلاً؛ - هذه العشائر يا حاكم تستحق عقاباً صارماً فقد اضطرتك إلى القدوم إلى الهور في هذا اليوم العبوس. فأجاب الحاكم، - بلا شك، وأقسم بقسم إنجليزي. واستطرد حسن يقول: لقد حدثهم مرات عديدة عن قوة الحكومة البريطانية وعظمتها. وطالما بضرتهم بالعقوبات التي يتعرضون لها ولكنهم وضعوا أصابعهم في آذانهم. وهم في الحقيقة مجانين. إذ يصرون على النهب والسرقة بينما باستطاعتهم أن يحيوا حياة سالمة غائمة في ظل راية الحكومة العظيمة. إنهم يشبهون بلا شك قطعان الجاموس التي يرعونها.

ولم يصادف هذه القول هوى في نفس الشيخ علي فقام، رغم أنه لم يسترح إلا قليلاً، وأمسك بالمجازيف حتى يأخذ علي ابن عمه سبيل الحديث.

ووصلنا إلى بيت النجار. وفي كوخ يعلو قليلاً عن غيره من الأكواخ استقبلنا «غضب» شيخ العشيرة، وهناك انعقدت حلقة الاجتماع مع الرؤساء.

عندما جلس الحاكم أخذ «كاسب».. وهو والله حيال.. يخاطب رجال العشيرة بصوت واضح النبرات ضاعطاً على بعض المقاطع متانياً. وكان ذلك، خاصة، عندما كان يوضح السبب في قدوم الحاكم وأن عليهم أن يقسموا براءة العباس ألا يسرقوا مرة أخرى إذا رغبوا في أن يروا ابنهم موسى يعود إلى قبيلته سالمًا. وأخذ يهییء للقسم. فنهض علي على قدميه وأخذ يمهد الأرض في وسط الكوخ. وطلب من أحدهم أن يجلب له «قصبة» فأحضر له في مثل لمح البصر قصبة طويلة فأخذها وقطع منها جزءاً حتى تكون بمثل طول قامة الإنسان العادي. ثم مدها على الأرض وقال بصوت مرتفع: هذا سيف العباس أبو الراس الحار. وتطلع حوله حتى رأى أحدهم يلبس رداء أبيض فصاح به يا «عبید بن مکیت» هات «دشداشتك».

فأطاعه الرجل وخلعها وألقى بها بجانب القصة. وعندئذ صاح كاسب:
وهذه راية الله وراية محمد نبيه، وراية علي والعباس المنتقم. وأخذ يقسم:
هذه الراية علي وعلى عيني وعلى حياتي وعلى أولادي وعلى أهلي وبيتي،
لا شيء يخفى ولا شيء يكتُم والمنتقم هو العباس. وكان في أثناء قسمه
يعقد طرف الدشداشة حول القصة. وبعده تقدم كل واحد من الزعماء
الثلاثة الآخرين وقال مثلما قال وفعل مثلما فعل.

وهكذا أقسم الرؤساء الأربعة بأقدس الأيمان وأغلظها. ولكنهم بعد
أن أقسموا وعقدوا العقد أخذ القلق يراودهم واستبذ بهم. فأخذوا
يتهامون فيما بينهم بأنه ليس من العدل أن يقوموا وحدهم بالقسم نيابة عن
جميع أفراد العشيرة. وقد يرتكب أحدهم جريمة السرقة فلا يقع الانتقام
عليه وإنما على الرؤساء الذين حلفوا. ولكي يطمثوا، كان لا بد من أن
يحلف الآخرون ويعقدوا الراية على رؤوسهم.

وكان اللصوص خائفين من المثل أمام الحاكم. فأخذ الشيخ كاسب
يناديهم بأسمائهم الواحد بعد الآخر بصوت مرتفع. وعندما وجدوا أنهم لا
يستطيعون الاختفاء تقدموا مترددين يعقد كل منهم الراية على رأسه حتى
جاء دور «سلمان بن داود». فناداه الشيخ وكرر النداء دون أن يتقدم إلى
داخل الكوخ. وكان يقول، - إن لي ابناً وحيداً وأخشى عليه من انتقام
العباس. فرد الشيخ عليه قائلاً: لا تسرق بعد الآن ولا يصيب ابنك ضرر
ويقي سلمان متردداً حتى أقنعه الجميع، فاندفع إلى داخل الكوخ مع جماعة
اللصوص الآخرين متشجعين بجمعهم ليقسموا جميعاً. وكان بينهم، والله
العظيم، ذلك الشاب حسن الذي كان معنا في «البلم» يتحدث مع الحاكم
عن براءته ويلقي بالتهم على الآخرين.

وبعد أن انتهى القسم أعطى الحاكم للشيخ كاسب هدية ثم عدنا إلى
المشحوف راكبين في النهر. وفي الطريق قال الحاكم: إن شاء الله لا

يسرقون بعد الآن. فقلت، إن شاء الله. ولكن أمني كان ضعيفاً. لأنني أعرف بيت التجار من زمن بعيد. وكنت على حق. فإنه لم يمض وقت طويل بعد عودة الولد موسى إليهم حتى عادوا إلى أعمال السرقة وهم يقولون، إن قسماً فرضه كافر علينا لا يربطنا بشيء. أما العباس فكان على غير رأيهم..

كان بيت التجار على ثار مع بيت ياسين. وبعد زيارة الحاكم لهم بيضعة أيام انتهت مدة الهدنة المعقودة بينهما، ولم يرغبوا في تجديدها لأن دمهم كان حاراً. ولما قاموا بالهجوم على بيت ياسين لم يكونوا يعرفون بأنهم قد أقاموا المتاريس والاستحكامات لحماية أنفسهم على نحو ما يفعل الجنود الإنجليز. ولهذا كانت النتيجة أن أصيبوا إصابة بالغة وفقدوا اثني عشر رجلاً ومن بينهم الرؤساء الأربعة. نعم، وأقسم بالله، وحياة راسك، الرؤساء الأربعة الذي عقدوا راية العباس، فقد انتقم منهم سريعاً العباس أبو راس الحار.

وعندما انتشر النبأ بين عشائر الهور عرفوا أن العباس غضبان فخافوا وامتنعوا عن القيام بسرقة السفن النهرية. وهكذا توقفت الغارات وأعمال السرقة.

ولما توقفت الأعمال العدوانية ضد السفن الإنجليزية بقوة العباس غير الطبيعية، كما يقول الحاج ركان ويؤمن، لم تعد هناك حاجة ماسة إلى تقديم خدماته كمرشد في الهور. فأخذ يبحث لنفسه عن عمل آخر حتى وفق بمهارته ولباقته في الحصول من ضابط المشتريات في المنطقة على عدة عقود لتوريد البيض والدجاج للمستشفى العسكري في العمارة. فأخذ ينتقل من قرية إلى أخرى في قاريه الذي يحمل به بعض الحاجيات الثمينة التي يحتاج إليها السكان كالسكر والشاي والشحاط ونحو ذلك ويستبدل بها من السكان السذج يرضهم ودجاجهم.

وانتهت الحرب وبيانتهاها انتهت عقود الحاج ركان. ولكنه استمر يقوم بعمله بقالاً. وكثيراً ما كان يقارن بين عمله الحالي وبين عمله السابق فيتحسر على ما كان يربحه في تلك الأيام الخوالي ويقول: أجل في تلك الأيام كان الإنجليز ينثرون الذهب كما ينثر الرجل الحب من فم الكيس. أين أيامنا هذه منها!. في تلك الأيام كانت هناك نقود متوفرة للجميع وما كان أحد يعوزه شيء. ولما رحل الإنجليز سلك الذهب طريقهم. إنهم لم يأخذوه معهم إلا أنه اختفى وأصبح الواحد لا يجد نقوداً في كل أنحاء العراق من الشرق إلى الغرب. وحتى الحكومة أصبحت فقيرة فصارت تأخذ منا ضرائب. والله وبالله إنني راضٍ بهذه المعيشة بسبب واحد وهو أنني في فقر مدقع ولا أملك تكاليف الجنازة.

وحقيقة في تلك الأيام الذهبية التي كان فيها الحاج ركان يعمل «قنطرچي» أخذت أحلامه في جمع ثروة تتحقق. فكانت أرباحه ضخمة. وقد ساعده على ذلك لباقتة، كما ساعده مركزه العالي بين سكان الأهوار كحاجي ولكن نجم ثرائه أخذ في الأفول عندما ظهر له من بين اليهود منافس يفوقه مهارة وسعة حيلة.

كان الدجاج الذي يقدمه الحاج ركان يشتري منه بالوزن. وكان «الشاووش» الإنجليزي يقوم بوزن اثنتي عشرة دجاجة منه ويعطي معدلاً لثمن الدجاجة الواحدة. فلما لاحظ الحاج ركان أن الطريقة التي يتبعها الشاووش ثابتة ولا تتغير، أخذ يذرع الهور بحثاً عن الدجاج السمين يجمعه في قفص معين ليقدمه إلى الشاووش فيأخذ عليه معدل الثمن. وقد نجح في حيلته واستمر عدة أسابيع يأخذ حسابه بمعدل ذلك الدجاج الممتاز فازدادت أرباحه كثيراً وتضخمت.

ولكن الحاج ركان، رغم مضي مدة طويلة على انتهاء عمله «قنطرچي» لم يستطع أن ينسى تلك الحيلة التي لعبها يوسف اليهودي

واستفاد من ورائها الشيء الكثير. ويقول سأخبرك بواحدة من حيله. هل تستطيع أن تجعل رجلاً يدفع روبية وعشرة أنات ثمنًا لحقة (أقة) من الماء بينما النهر يجري وراء منزله، وحيث الأراضي حوله كلها أهوار؟! أو بعبارة أخرى أصبح حيث يمكنه أن يفتح البوري (الصنبور) فينصب الماء من الأنبوب الحديدي...! بلى... هذا فعله يوسف عندما كان متعهداً ببيع البقر والغنم للصاحب. كان قبل أن يقدمها للشاوش يعمد إلى حيلة شيطانية. كان يحجز الحيوانات ويمنع عنها الماء يومين بل وأحياناً ثلاثة إذا لم يكن الجو حاراً. فإذا كان وقت البيع أخذها إلى النهر لتروي عطشها الشديد. فتشرب من الماء كمية كبيرة تمتلئ بها بطونها. وبذلك كان يحصل عن كل حقة من هذا الماء على روبية وعشرة أنات. بالله عليك، أهذا الأمر يمكن أن يفوت؟! إن أي جندي تركي كان يدرك الحيلة، أما الجندي الإنجليزي فلا...! ومن يخدم حكومته على أكمل وجه؟ أهو الجندي التركي الذي يقضي سحابة يومه يساوم على الثمن وعندما يشتري الشيء بثمن أقل يضع الباقي في جيبه، أم هو الجندي الإنجليزي الذي لا يأخذ لنفسه شيئاً بل ويدفع أثماناً أعلى من أموال حكومته؟!

وانتهت تلك الأيام التي لم تكن بالنسبة للحاج ركان وأضرابه أيام حرب عابسة، وإنما كانت أيام كسب وثراء. فإن السفن التي كانت تصعد في النهر محملة بالرجال والذخائر، وتعود بسرعة للصعود بحمولات أخرى، أضحت على العكس تنزل بحمولات ثقيلة بينما تصعد فارغة. كما أخذت أعدادها تتناقص بسرعة حتى أن الأطفال الصغار في القرى المنتشرة على جانبي النهر كانوا يركضون إلى الشاطئ ويحملون بدهشة في تلك السفن الضخمة التي كانت بالنسبة لآبائهم أو لإخوتهم الكبار شيئاً عادياً لا يستدعي الاهتمام. وتوقف كذلك سير القطارات وإن لم تنزع قضبانها. كما تلاشت الخيام البيضاء ونزعت الأعمدة السحرية التي كانت تضيء شواطئ النهر والأسلاك الشائكة التي كانت مقامة للحماية من غارات العرب.

وعرضت للبيع تلك المباني التي كانت قد أقيمت على طول المجرى
كمحطات للرقابة. وتركت تلك الحداثق الجميلة وأهملت فحلت محل
أزهارها اليانعة الأعشاب وأشواك الجمل.

وصفوة القول أنه في بحر شهور قليلة أصبح الإقليم الذي يعرفه
الحاج ركان ولا أثر للإنجليز المستعمرين فيه.

الفصل التاسع

تغلب الروية

أخذ الحاج ركان يدمدم بصوت غاضب، - الله يخلصني من «هاي المرية» ويقصد زوجته. إذ كان يعتقد أنها تختلس بعض المواد التي يتاجر بها. وكنا آخذين في رحلة إلى مسيعة، إحدى المدن الصغيرة في منطقة الأرز وكان الحاج ركان يؤمل أن سيحصل منها على ما يعوض عن بعض ما سلبته زوجته. وفي اعتقادي أن مثل هذه السفرة لا يحصل منها الحاجي على الكثير الذي كان يمكن أن يحصل عليه لو قام بها بين سكان الأهوار. ومع ذلك فإننا ما كدنا نغادر قلب الهور وندخل في مناطق الأرز العظيمة التي أخذت تحيط بنا حتى أخذ عبوس الحاج ركان يتبدد ويعود إلى طبيعته مرحاً ثرثاراً.

وكنا نصعد في واحد من فروع الكحلاء التي تحمل في كل سنة، في فصل الفيضان، كميات كبيرة من الرواسب الغرينية الخصبة إلى مزارع الأرز الممتدة على جوانبها. وعندما غادرناه إلى مجرى آخر أكثر منه اتساعاً واعتدالاً كان التيار قوياً فأصبح التجديف شاقاً. ولهذا ترك الولدان، جهلول وبهلول، مجذافيهما وصعدا إلى الشاطئ يجران القارب بالحبال. بينما ترك الحاج ركان مكانه في قاع القارب وجلس في مؤخرته يدير دفته بالسكان.

وعلى جانبي المجرى، كنا نرى الرجال منهمكين في زرع الأرز وأرجلهم مغروسة في الطين إلى الركب. ونرى النساء ينتقلن ذاهبات آيات حاملات في سلال على رؤوسهن شتال نبات الأرز الأخضر إلى حيث يعيد الرجال زراعتها واحدة واحدة في تلك الأراضي الغنية التي تغطيها الدهلة (الغرين) بطبقة سميكة. ومررنا ببستان صغير من النخيل، كانت عراجينه تحمل أحمالاً ثقالاً من الثمر الأخضر. ومررنا «دانك» كبير يسير ببطء ويحمل عدداً كبيراً من الأطفال ومن النساء يغبين ويمرحن وهن في طريقهن على ما يبدو إلى أحد المزارات المحلية. وما كنا نرى في العدد القليل من قرى القصب التي مررنا بها سوى النساء، حيث كان الرجال يقومون بأعمالهم في حقول الأرز. وكان النساء بملابسهن الزاهية ذات اللون القرمزي المفضل عندهن يكشفن عن قوامهن الرائع وحركاته الرشيقة التي تشتهر بها نساء البو محمد. وفي الواقع، يجذب نساء البو محمد الأنظار بملامحهن الوسيمة. وبخصلات الشعر الفاحم المسترسل على جباههن، فوق عيونهن الكحيلة الواسعة. كما يجذبه برنة خلاخيلهن الفضية اللامعة حول أقدامهن الدقيقة الجميلة، وهي عارية.

كانت معظم حوائط الأكواخ مغطاة بأقراص مستديرة من روث البقر، تستعمل وقوداً بعد أن يتم جفافها بالشمس. كما كانت هناك أكوام مبعثرة من قش الأرز. وفي ظلال الأكواخ، كانت الحيوانات راقدة بأجسامها الداكنة. وفي كل قرية مررنا بها كانت الكلاب تنبح عندما ترى المشحوف الأسود بين الأكواخ المتألقة في ضوء الشمس. وكانت تنبح في أعقاب بهلول وجهلول وتتلاحق مكشرة عن أنيابها.

أما الحاج ركان الذي كان جالساً يقود القارب في كسل وخمول فقد أخذ يدندن بأغنية يكرر ألفاظها وألحانها حتى استطعت حفظها ..

تلبس نوبين والثالث احمر

ومن وراء الثوبين رأيت القمر
ليت أهلك سمحوا لي أن امر ببيتكم
كنت عندما أعود أكنس موقدها.

ولا أرى في ذلك ما يزري برجولتي.
ولما أحس الحاج ركان أنه قد اجتذب اهتمامي بأغنية ابتسم لي
ابتسامة عريضة وقال:

أغني لفتاة كاللؤلؤة.. بلا شك. أشهد بالله لؤلؤة.. بل حورية.
خدودها مثل الرقي الأحمر. وفمها مثل خاتم مرصع بالدر، بل أصفر..!
وأسنانها بيضاء مثل السكر... وعيونها كبيرة بقدر البيض.. أما عن نهديها
فمثل تفاحتين إيرانيتين.

أدهشني هذا الاعتراف ببعض الشيء، فلم أقل شيئاً لا لأن الحاج
ركان قد فاته تماماً ميدان الحب، وإنما لأنني لم أسمع منه شيئاً من ذلك
من قبل.

وصاح الحاجي، ليشجع الولدين على جر القارب، قائلاً - عزازي
بعد بيتي -. وقد أجابا نداءه فاندفعا في جره بخطوات سريعة منتظمة. ثم
التفت نحوي وقال، - سنصل الليلة إلى بيت «عليوي بن جاسم».. والد
«رياسة» التي أريدها... والله اليوم سافرتنا محظوظة. وقد وافقته. لأن
قضاء يوم في كسل بعيداً عن المشاغل، في زورق مع الحاج ركان لهو في
الحقيقة يوم سعيد. وأضاف الحاجي قائلاً بصوت الصديق الودود، - أما
أنت، فسوف لا أنساك عندما نصل إلى بيتها، لا.. سأوصلك أولاً لبيت
«مكية» شبيخة القبيلة التي نمر الآن في أراضيها.. «مكية» نفسها التي قادت
«البر محمد» في موقعة «صفيحة» وهزموا فيها بني لام... ستكون الليلة في
ضيافتها.. آخ. ! قادر على كل شيء!

واصطدم القارب بجانب المجرى بسبب انشغال الحاج ركان

بالحديث. وبعد أن عدل وانتظم سيره، ظل الحاجي ساكتاً حتى أخرجته بقولي، - وما بعد عن «رياسة»؟ فقال - نعم... لا يخفى عليك، أن ابن عمها له الحق الأول في أن يتزوجها. وحتى لو كانت تحب واحداً غيره فإن له الحق في أخذها بالقوة.. وحتى إذا كان لا يرغب في زواجها، فإن بإمكانه أن يمنع الآخر من زواجها.. وإذا دفع الحب الآخر إلى أن يتزوجها متجاهلاً إرادة ابن عمها، فإن من حق ابن العم هذا، بحسب شريعتنا، أن يقتله.

ومشكلتي أنني أحب «رياسة». ولرياسة ابن عم يريد زواجها. هل أتزوجها وأغامر...؟! وإذا كانت النتيجة ذبحي، فهل تستطيع رياسة أن تتحرر من أجلي فتؤنسني في قبري...؟!..

وسكت الحاج ركان لحظة ثم عاد لحظة وقال، - الحقيقة أنني لا أعرف إن كانت «رياسة» تحبني أو لا..؟! ولكن، لماذا لا تكون تحبني؟.. لحيتي لا تزال سوداء، ولم تصبح شهباء تماماً بعد. وبقرائين حنه ووسمه أبدو كالرجال الشاب.. ولكن، لا..! إنني أخشى أخذها بدون أن يرضى ابن عمها.

وانتقل الحاج ركان بالحديث قائلاً، - بعد أن شرفتنا في المرة الأخيرة، قتل «هداية» أفندي.. من أعيان العمارة.. وأنت تعرفه جيداً.. وإذا كان رجل عظيم مثله يقتل من أجل امرأة، فما يكون مصير تاجر متجول مثلي من المعدان...؟! إذا كنت لم تسمع بقصته سأقصها عليك...

وأنا أذكر «هداية» أفندي وأذكر غيره من الشخصيات الكبيرة التي استمتعت بضيافاتها وبحفلات الصيد التي كانت تقيمها. وكنت أشترك مع الرأي العام في أنه كريم مضياف، رياضي، ورفيق محبوب. ولكنه بعد أن قضى نحبه وزال خطرته، أخذت الألسن التي كانت تصفه بتلك الصفات

تصفه بصفات أخرى.. مرابي.. ظالم.. جبار، لا يعرف الرحمة.. فاسق، يحب الخمر مع الكفار.. وغير ذلك من نعوت مقذعة.. والغريب أنني كنت أسمع ذلك في العمارة من زملائه الذين كانوا يعتزون بصداقته.

كان هداية أفندي أحد الإقطاعيين في العمارة وكان هناك همس يدور بأن أباه، الذي كان موظفًا في دائرة الطابو، استطاع أن يسجل لنفسه مساحات واسعة من الأرض. وهي التي جعلت من ابنه ثريًا، مسموع الكلمة، ويعيش في قصر كبير على شاطئ دجلة.

ويقول الحاج ركان إن أخبار قتل «هداية» أفندي سمعت في العمارة في فجر يوم من أيام الصيف. وأن الناس، رجالاً ونساءً، أخذوا، فيما بينهم، يتحدثون عنها ويتناقشون في أسبابها، في الأسواق وفي المقاهي وفي الشوارع وفي البيوت. وفي كل مكان كانت تتواتر أخبار وتروى إشاعات، لا عن مقتل «هداية» أفندي فحسب، وإنما عن مقتل رجل آخر وامرأة عثر على جثتيهما. وما كاد اليوم ينتهي حتى كانت حقيقة القصة قد عرفت بتفاصيلها.

ففي حوالي منتصف الليل في تلك الليلة، سمع الحراس صراخاً حاداً مفاجئاً انبعث من الغرفة التي اختارها «هداية» أفندي لينام فيها مع زوجته الصغيرة التي ضمها أخيراً إلى حريمه. واستنرد الحاج ركان قائلاً في وصفه «كفحل بين النشبة». ثم أردف، واندفع الحراس إلى الداخل فوجدوا سيدهم ملقى على الأرض، مضرجاً بدمه، وقد فارقت الحياة. وركب بعض منهم وانطلقوا يطاردون القاتل الذي كانت دقات حوافر حصانه تسمع من بعيد. وبعد مطاردة عنيفة طال مداها في غبشة الظلام عثروا على جواد لا راكب عليه. وعند عودتهم، قبيل الصبح، التقوا بجماعة من الزراع يلتفون حول جثتين. كانت إحداهما جثة امرأة ميتة. أما الأخرى فكانت لشاب جريح يتزف منها الدم.

ونقلت في الحال جثة المرأة إلى المنزل حيث عرفت بأنها «فتنة» العروس، بنت الخمسة عشر ربيعاً، التي زفت إلى «هداية» أفندي قبل أيام قليلة. بينما حمل الشاب الجريح إلى مستشفى المدينة وقد عرف بأنه «علي ابن جحيط» ابن عم فتنة ومن قبيلة ترعى الغنم.

وفسرت العلاقة بين «علي وفتنة» السر في قتل «هداية» أفندي. فعندما تحدى «هداية» شريعة القبيلة وتزوج «فتنة» مع علمه أنها بحكم تلك الشريعة من حق «علي بن جحيط» قتله علي. لأنه لا يعرف قانوناً غير شريعة قبيلته التي درجت عليها الأجيال.

أما عن قتل «فتنة» فقد بدت أسبابه في بادئ الأمر غامضة. إذ كانت الدلائل كثيرة على أنها تزوجت «هداية» أفندي برغمها. وشريعة القبيلة، في مثل هذه الحالة، لا توجه للفتاة لوماً أو ازدراء. لأنها خضعت لإرادة أبيها. ومع ذلك فقد اتهم علي بالقسوة، ويأن حبه الغيور الأعمى قد دفعه إلى قتلها.

ثم عرفت الحقيقة من «علي» نفسه بعد أن قالها وهو على فراش الموت للطبيب الإنجليزي وللسيد مجيد الممرض بالمستشفى. ويقص الحاج ركان القصة كما سمعها من لسان السيد مجيد.

كان «علي بن جحيط» شاباً لا يتجاوز سنه العشرين عاماً ويشغل برعي الغنم. وقد قضى، بعد نقله إلى المستشفى يومين في شبه غيبوبة، ساكناً لا يتكلم. ولما أقبل الطبيب ليراه رجاء أن يدعه يقضي ساعاته الأخيرة في العراء، غير محاصر بجدران أربعة. وقد أجاب الطبيب رجاءه. فأمر بنقله إلى حقل مجاور ليموت، كما أراد، تحت قبة السماء. وترك للسيد «مجيد» الممرض أمر رعايته.

وفي المساء طلب «علي» من «مجيد» أن يساعده على أن ينهض قليلاً

من مضجعه . ثم أخذ يجمع قواه ويشحذ ذهنه ليقص عليه قصته العاطفية التي دفعته إلى قتل «هداية» أفندي .

كان رجلاً غنياً ، يملك قطعاناً لا حصر لها . وكان لا يعرف عدد خيله لكثرتها . وكان يأكل اللحم كل يوم حتى يمتلىء . وكان لا يلبس غير الحرير . كما كانت أطراف زوجاته مثقلة بالذهب ، وقصوره مملوءة بالخدم والعبيد . لم يعرف الجوع أو الظمأ . وكان عنده ما يقيه رياح الشتاء القارسة البرد وأشعة شمس الصيف الشديدة الحرارة . كانت كل رغباته رهن إرادته . وما كان ينقصه إلا شيء واحد فقط هو الإحساس بالرحمة والحنان . فقد كان لا يرق للرجل الفقير ولا يرأف بحاله ، وهو يسلبه حبوه أو قطعانه . وما كان يشعر نحوه بأي عطف أو رحمة ، وهو يسلبه كل شيء عزيز آخر .

ونحن أبناء القبائل قد لا نهتم كثيراً إذا سلبت منا غلاتنا التي تعبنا فيها ، أو أخذت منا أغنامنا العزيزة علينا . أما إذا اغتصب منا الزوجة التي هي لنا بحق المولد ، فهذه مسألة أخرى ، فلا رادّ لها في شريعتنا غير الموت .

إنه قد مات الآن . وقد أموت أنا أيضاً قبل أن تسحب الشمس آخر خيوطها . وهناك ستساوى ، فكلانا سينبش قبره «ابن آوى» .

وكان الحاج ركان ، في أثناء الفقرة الأخيرة ، يتحدث ببطء وبصوت هادئ كما لو كان نبياً من الأنبياء السابقين يعظ شعبه الخاطيء . وتوقف لحظة ليترك صورة المساواة الكاملة تنطبع في ذهني . ثم استطرد ، -

وقال «علي» ، - أصغ إلي ثم أخبرني فيما إذا كان هذا من العدل في شيء . . . إن شريعة آبائنا وأجدادنا تقرر أن تكون ابنة العم لابن عمها . وهذا حق مطلق لا يعارض فيه أحد . «وفتنة» ابنة عمي «صكبان» . وحقي عليها مضاعف ، حق المولد وحق الحب الذي يجمع قلوبنا . . .

وفي يوم من الأيام سمعت أن عمي قد عقد عقد فتنة «الهداية»

أفندي. فذهبت إليه وسألته في ذلك فقال، - الله قادر على أن يعميني إذا كانت عندي أدنى رغبة في أن أزوج ابنتي من ذاك الرجل. ولكن ماذا أفعل؟ الأمطار كانت قليلة والزروع ذبلت، كما تعلم. وأنا ككل المزارعين غارق في الدين له. وهو يضغط عليّ في السداد. يهددني بالأذى في كوشي ويأخذ حلاله وفرسي، إلا إذا زوجته «فتنة». وفي الحقيقة أن المبلغ الذي أنا مدين به له يفوق قيمة كل ما أملك. فلم أجد مخرجاً من ذلك إلا أن أقول له، هاك ابنتي خذها..!

وقلت يا عمي، عندي بندقية ثمينة مطعمة بالفضة. وعندي فرس أصيلة سريعة. كما أن عندي عشرين رأساً من الغنم. فلنضم ما أملك إلى ما تملك، ونبيع الجميع لعل الثمن يسد الدين للأفندي. وذهبنا إلى السوق، فوجدنا الجوع قد دفع غيرنا كثيرين إلى عرض حيواناتهم للبيع. ولهذا لم يكن المبلغ الذي حصلنا عليه كافياً لسداد الدين.

وأخذت المبلغ إلى «هداية» أفندي، وعرضت عليه أن أشتغل عنده في مزارعه حتى يستوفي باقي دينه علينا. ولكنه رفض. فقلت له إن «فتنة» لي بحق المولد. وحذرتني بأنني سأقتله بالتأكيد إذا أقدم على زواجها. ولكنه ازدراني ولم يأبه لتحذيري فأخذ مني عروسي.

وفي تلك الليلة اختفيت في حديقة منزله. وعند منتصف الليل تسللت إلى غرفته وأغمدت في قلبه خنجري إلى مقبضه. ثم أسرعت هارباً إلى حيث أوقفت الجواد الذي كنت قد استعرت من والدي. وبينما أهم بركوبه، أحسست بخطى تبعني. والتفت فوجدت «فتنة» ابنة عمي. فأردفتها خلفي وانطلقنا نحو الصحراء. ولكن رصاصة أصابتني فسقطت على الأرض. وألقت «فتنة» بنفسها عليّ وارتمت بين ذراعي. وقضيت الليل أقتل شفيتها وعينها وجيدها الرقيق الأليف. وقيل الصبح أحسست بها ترتعش وظننت أن البرد الذي يشد في مثل هذا الوقت قد ألم بها، فأشرت لها على

عباءتي كي تلتف بها. ولكنها قالت، - إنني لا أرتمش من البرد، وإنما أخشى الموت. فسألتها هل أصبت بجرح مميت أيضاً؟ فأجابت - ما بي جرح... ولكنهم سوف يقتلونني في الصباح عندما يجدونني بجوارك وقد قضيت الليل معك. فالى أين أهرب ولا منجاة لي؟ لا بد من أن أموت قبل شروق الشمس.. وإذا قتلتني بيدك فلأنني أموت ميتة سهلة وممتعة.

قلت مندهشاً، - أنا أقتلك...! كيف أستطيع قتلك وأنت حبيبتني وأفديك بروحي...؟! فأجابت، - أتريدني أن أقاسي العذاب من النساء اللواتي يكرهنني؟... اقتلني... اقتلني فسيكون الموت على يدك ممتعاً كالنوم للجسم المنعب المضنى. فقلت، - وكيف أقتلك، ولا سلاح معي...؟ فأمسكت بيدي براحتيها وأخذت تقبلهما بشغف وانفعال ووضعتهما حول رقبتها البضة الناعمة.

ويقول الحاج ركان، - وعند هذا الحد كان الانفعال قد أخذ من «علي» ما أخذه وهو يصور تلك المأساة المفجعة. فأخذ في النهوض وهو يصرخ في ثورة غاضبة، لا عدالة للرجل الفقير.. ولكنني انتقم من الظالم.. ثم سقط جسمه ونهاوت يداه وأسلم الروح.

وهكذا، كانت ذكريات تلك الفجيرة تجعل الحاج ركان يتلفت خلفه قبل أن يتقدم إلى رياسة. فقد كان لها أيضاً ابن عم. كان الحاج ركان يقول، أنستحق المرأة أن تضيف ثأراً جديداً إلى ما ينوء به هو وقبيلته؟... أيكون التروي في الحب أفضل جوابه...؟!.

وأخيراً وصلنا إلى أطراف قرية مكية التي سنقضي فيها ليلتنا. واستقبلنا بعض المزارعين مرحبين، باسم الله.. وكان الحاج ركان يرد عليهم بقوله، - بارك الله فيكم. ثم انفلت نحو أحد معارفه بينهم وأسر إليه أن يخبر مكية بوصولنا.

وهناك، عند ضفة النهر، وجدناها في انتظارنا بين عدد من أتباعها.

وحيتنا بوقار وبساطة. ثم قادتنا إلى مضيفها حيث قدم لنا شاي وقهوة.

وفي المضيف كان مجلسي مقابلاً لمجلسها. وقد رأيتها سافرة، تحكم اتباعها وتدير شؤونهم علانية. وهذا على عكس ما عليه نساء الشيوخ من خياء وعزلة. ولاحظت أنها عوراء بعين واحدة، وتلبس ملابس فضفاضة، وربما تكون قد تجاوزت الستين من عمرها. كما لاحظت أنها تدخن كثيراً، إذ كانت تشعل السيكارة الواحدة تلو الأخرى. على أن أبرز ما لاحظته كان ملامحها البارزة المشعة ذكاء وفطنة، ومظهرها العام الذي يحمل طابع إنسان اعتاد أن يحكم.

كنت أراقبها وهي تلقي أوامرها، كلمات قصيرة حازمة لهذا الخادم أو لذلك. دخل عليها «الملا» وهمس في أذنها كلمات قليلة فوجهته بكلمات سريعة إلى الطريق الذي يسلكه. ودخل رجل مسرعاً وقبل يدها وأخذ يشكو من معاملة سيئة لقيها فردته سريعاً بإشارة من يدها. ودخل آخر وسمع منها كلمات مقتضية جعلته ينصرف وهو يستمطر البركات على رأسها. كانت تتصرف نفس التصرف الذي رأته قبلاً من عشرات الشيوخ. ولولا ملابسها التي تفشي حقيقة كونها امرأة لحسبها الرائي شيخاً من الشيوخ.

وكانت الكلمات الأولى التي وجهتها إليّ، بعد عبارات الترحيب المعتادة، جافة، أشعرتني ببرودة الاستقبال. فقد جابهتني صراحة بقولها، - أنا أكره الإنجليز.. ولما سألتها عن السبب أجابت، - لقد أخذوا مني أحد عشر عبداً من عبيدي، هربوا إليهم ولم أستطع استعادتهم ثانية.. أليس هذا سبباً كافياً؟ وقبل أن أرد عليها، سمعتها تضيف على غير ما يتوقع، - ولكن... لعل أولئك الذين اكتووا بالحديد المحمى لا يلامون إذا هربوا...

وعلى غير ما يتوقع أيضاً سمعتها تقول، - وأنا، كذلك أحب

الإنجليز... أحبهم، لا لأنهم كرماء، فالكرم سهل على كل إنسان. ولا لأنهم شجعان، فإنني أستطيع أن أجعل من الجبناء شجعاناً... لا... أحب الإنجليز لأنهم أقوياء. فقد تغلبوا على العرب والأتراك. وربما كانوا أقوى من أي دولة أخرى على سطح الأرض.

وشجعني هذا الحديث المجامل منها. ولكنها توقفت ودخلت في صمت طال بعض الوقت. ثم قطعته سائلة إياي إذا كان يسرني أن أرى مضيفها الجديد. وكان هذا مبنياً من الطابوق. ومثله يفترخ به بين أكواخ القرية المقامة من القصب. وكان في موقع منعزل قليلاً. ولا يستخدم إلا في المناسبات الخاصة التي يراد فيها إكرام ضيوف معينين.

نهضت مكبة وقادت الطريق إلى المضيف. وكانت الغرفة الأولى التي قادتني إليها زاهية جميلة تفاخر بنوع فريد من الزينة. فعلى رف مد في أعلى حوائطها صف مئات من الأواني الخزفية المصنوعة في أوروبا. ومن بينها فناجين للقهوة وكاسات للطعام وأطباق ومواعين مختلفة. وفي أسفل الرف علقت صور على غير نظام وتناسق. فهذه صورة لواحد من عظماء الإنجليز وبجوارها أخرى لواحد من سلاطين الأتراك وتلك لحسناء إنجليزية وبجوارها صورة لأعضاء البرلمان التركي.

ثم انتقلت بي إلى غرفة أخرى بدت أكثر من الأولى ترفاً. فعلى رفوف عريضة واطئة، تحيط بجدران الغرفة، أكوام من المراتب الحريري وبجوارها أكوام من المساند بألوان زاهية. كما كانت هناك أيضاً، في نهاية الغرفة، أكوام من الألفحة الحريري لكل منها لونان مختلفان، وأكوام أخرى منها، ولكنها تبدو أقل قيمة وأقفر مظهراً، ولعلها مخصصة لاتباع ضيوفها العظام.

وكان الزهو الذي بدا من مكبة وهي تربيني مفتنياتهما بفشي حقيقة كونها امرأة قبل كل شيء. وكانت تنتظر مني متلهفة أن أبدي إعجابي

بنفائسها وأطري جمالها وحسن ترتيبها . ولكنها مع ذلك كانت تتظاهر بعدم الاكتراث وهي تقول، - أليس عجيباً ألا أستطيع أن أزود كل ضيف غنياً كان أم فقيراً، بما يريح رأسه ويغطي جسمه . . ؟!

وعدنا إلى المضيف في انتظار العشاء . وعلى ضوء المصابيح بدا لي وجه مكبة مغضناً . فأخذت أسائل نفسي عما إذا كان قد هاج في نفسها شعور نسوي آخر غير الشعور العادي بالزهو الذي تشعر به كل امرأة نحو نفائس بيتها . وعما إذا كانت العاطفة قد مست حياة هذه الشبيبة ذات العين الواحدة والصوت الغليظ الصارم .

وقد أخذت تضحك عندما وجدتها تجيب على أسئلتني الخاصة بضحكة مكتومة وتقول، - إي والله، كنت جميلة - كنت بنت «بداي» يتمناها كثيرون، وفي طلبعتهم «أبو ريشة» . . «أبو ريشة» العظيم . . وأردفت بزهو قائلة، - كان يحبني لجمالي . . لجمالي فقط . فلم يكن هناك شيء أستطيع إن أقدمه له . بل إن أبي كان عدواً له . كما أن قبيلته كانت حانقة عليه لإصراره على الزواج بي .

كانت رغبة أبي أن يزوجني للشيخ «خراج» حتى يكتسب صداقته ومساعدته ضد «أبو ريشة» ولكنني رفضت . ورفضت رغم تهديده لي بالموت . وأضافت ضاحكة، - كان شيخاً عنيفاً مستبداً، ويقول أبناء قبيلتي إنني أشابهه في ذلك .

وفي إحدى الليالي، ثار عليّ ثورة عنيفة حتى خشيت أن ينفذ فيّ وعيده . فأقدمت على فعلة قل أن تجسر امرأة أخرى على فعلها . ناديت أربعاً من إمائي وأمرتهن أن يعددن لي المشحوف . وفي هدوء الليل وتحت ستار الظلام تسللت إلى حبيبي وزفقت إليه . وعندما عرف الأمر في الصباح حنق كثيرون من أبناء قبيلته وأجمعوا على قتله لاستخفافه بالدماء المسفوحة بين قبيلته وبين قبيلتي . ولكن أيّاً منهم لم يجسر على تنفيذ ما أجمعوا

عليه . لأن «أبو ريشة» كان جسوراً مهيباً ويخشى بأسه الجميع . ولهذا أخذ حنقهم ، في بادئ الأمر ، مظهر التندر والاستهزاء بالمشحوف الذي حمل امرأة هاربة في جناح الليل .

وأخيراً دبّروا أمر اغتياله ، بالاتفاق مع سبع قبائل معادية له حتى يتفرق دمه ولا تقع التبعة على قبيلة واحدة بمفردها فتعرض للانتقامي ومن معي من أتباعه الموالين له . اتفقوا على أن تقدم كل قبيلة قليلاً من البارود وقليلاً من الرصاص . وبينما هو جالس بالمضيف أطلقوا النار عليه . أمسك واحد منهم بالبندقية وجذب ستة الزناد حتى تكون القبائل السبع قد اشتركت في قتله . وبذلك أمنت أن أحداً لا يستطيع أن يأخذ بثأره من سبع قبائل مجتمعة .

فسألتها ، - وهل استطاع أحد أن يثار له منهم؟ فأجابت وقد ازداد وجهها عبوساً وصرامة نعم - بالتأكيد . فخاطرت بسؤالها ، وكيف؟ فأجابت بعد صمت كانت دموعها في أثناءه تنهمر مغرقة وجهها الذابل ، - آه . . يا أبو ريشة . . لم أنتقم لك بعد . . إنني أكذب ، فلم أستوف ثأرك بعد - إنني لم أفعل أكثر مما تستطيعه امرأة ضعيفة . .

ثم عادت إليها روحها الفهارة الأمرة تعلن عن نفسها فقالت بصوت عميق ، - أية حماقة . . ألبكي زوجاً ميتاً . .؟! لا بد إذن أن أقضي أيامي كلها بلياليها في البكاء على الأزواج الستة الذين تزوجتهم من بعده . ثم استدركت وقالت وهي تنهد ، - الله يرحمهم جميعاً . - لم أبك على واحد منهم مثلما بكيت على «أبو ريشة» . ودخل بعدئذ أحد الخدم يحمل حصيراً كبيراً مستديراً من سعف النخيل وفرشه وجاء آخرون ووضعوا عليه طعام العشاء . وبينما نأكل و «مكية» تأكل معنا دخل الحاج «ركان» فاستلمته بنكاتها .

كانت نكات «مكية» لاذعة . وكان لسانها ساخراً بل مؤلماً وقاسياً

أحياناً. كانت تبدو كما لو كانت تعرف دخائل كل نفس وخفايا كل صدر مع رغبة في إفشاء الدخائل والخفايا وجعلها شائعة بين الناس. وفي سخريتها بالحاج ركان لم تراع خدش شعوره. فكانت تعلق بتهكم مر على الفارق في السن بينه وبين «رياسة» وتعرض بلحيته المصبوغة بقولها - لا شك بأنها ستنقص الصداق ليرتين...!. كما أخذت، بين ضحك الجميع تقلد الحاج ركان، كما لو كان يدلل حبيبته بقوله، - رياسة... رويسة... روس...!

تحمل الحاج ركان مزاحها الخشن وسخريتها بصدر رحب... ولكنه، بعد ذلك جلس بقية الليل سهراناً يفكر. وكان من الواضح أنه حيران... متردد فيما يفعل. ما كان يفكر، ولا يريد أن يفكر، في أن قد تكون رياسة غير راغبة في زواجه. وإنما كان يفكر في النتائج السيئة التي تترتب على هذا الزواج... والحاج ركان، وإن لم تكن الجسارة من بين صفاته البارزة إلا أنه لا يخلو منها. فقد أكسبته رحلاته العديدة داخل الهور وخارجه والتقاؤه في أثنائها ببعض من أبناء القبائل المعادية لقييلته جانباً كبيراً منها. ولكن الشيء الذي تقف جسارته عنده لا تريم هو أن يكون سبباً في إثارة سخائم قديمة.

وانتقل الحديث بين مكية وبينى وتطرق إلى مركز المرأة الإنجليزية في المجتمع الإنجليزي. وقد هزأت مكية بنا عندما قالت إن رجالكم على درجة كبيرة من البخل، فكيف يتزوجون نساءكم ولا يدفعون لهم ثمنًا!! كما هزأت عندما علمت أن نساء الطبقة العليا سافرات لا يتمتعن بحق الخباء. ولما أشرت إلى أنها سافرة وتتمتع بحرية لا حق لها فيها بحكم المولد، التفت إلي وقالت، - أنا مكية...!!

ولم يثر اهتمامها قولى، - إن المرأة الإنجليزية تتمتع بحق الانتخاب في الانتخابات العامة. وهذا طبيعي في بلد قد لا يعني انتخاب الرجال فيها إلا قليلاً، وقد لا يعني شيئاً.

وانتهى الحديث بنا اخيرا إلى ذكر أحد الموامنة فروت لنا عنه القصة التالية: ذهبت إحدى النساء إليه ذات يوم وسألته فيما إذا كان يمكنها أن تدخل الجنة مع زوجها إذا صلت مثلما يصلي الرجال...؟ فأجابها، - هذا جائز... ولكن... ما الفائدة؟... الجنة مملوءة بالحدود العيين، ويمكن لزوجك أن يختار منهن ما يشاء... فهل من المعقول أن يترك أحضانهن ليرمي بنفسه في أحضان عجوز شمطاء،...؟ لا... لا أنصحك أن تضيعي وقتك في الصلاة والأفضل أن تساعد زوجك وأن تتفاني في خدمته هنا في الدنيا حتى يمكنك أن تتمتع بحبه وعطفه... أما في الآخرة... فلا أظن أنه يسرك أن تري زوجك في الجنة برفقة امرأة أخرى...!!

وبعد أن انتهت مكية من قص القصة التفتت إلى الحاج ركان وقالت وهي تغمز بعينها الوحيدة، - الصبر من الله يا حاجي... وضحكت وضحك الحاضرون معها. أما الحاجي فقد التفت إلي وقال، - بالله ورأس نبيه... وبحق لحيتي التي سوف تشهب ثانية... إنني سأصبر وسأصبر حتى أموت وأبعث مرة أخرى... وهناك في الجنة سأختار إحدى الحوريات... ومن والحمد لله لا أولاد عم لهن.

الفصل العاشر

عبء الشيخ

كنا في طريقنا إلى هور «دويريج» بعد أن غادرنا في بكرة الصباح النهر والأراضي المزروعة على ضفافه وأخذنا نضرب في الصحراء الممتدة أمامنا. وكانت الشمس تلقي علينا بأشعتها الحارة عندما أخذت آذاننا ديب خيل تركض خلفنا. وعندما لحقت بنا وقفت.

كانوا جماعة من الفرسان بقيادة الملا «موسى»، وأنا أعرفه معرفة قديمة. وبعد أن حيونا، التفت إليّ الملا وقال، - إنهم عائدون من مهمة خاصة كلفه بأدائها شيخه «صيهود». والشيخ صيهود صبي لا يتجاوز سنة الرابعة عشرة. وقد اختارته العشائر بالإجماع شيخاً عليها بعد وفاة أبيه المشهور. ثم تبين له بعد مضي سنة واحدة على توليه المشيخة أن الأمر ليس سهلاً. فبعض عشائره مشاكس وقيادته ليس بالأمر الهين. وها هو ذا يواجه اثنين على الأقل من رؤسائها، أخذوا يبدون نفورهم من رئاسته علناً، مما اضطره إلى أن يرسل الملا «موسى» برسالة إلى خاله الشيخ «معيد» يشرح له الأمر ويلتمس منه النصيحة.

وسرنا مع الملا وجماعته عدة أميال كنا نتجاذب في أثنائها الحديث عن العشائر والعلاقات فيما بينها حتى وصلنا إلى المكان الذي يفترق عنده طريقانا. وقفنا، وأخذ الملا يهزأ من تفكيرنا في زيارة الهور، بينما

الصحراء الواسعة وسفوح التلال المطلة عليها رائعة في هذا الوقت من السنة بأزهارها البانعة وبغطائها الأخضر الجميل . وتقدم يدعونا، نيابة عن شيخه لزيارة المضيف وقال، إنه يقع عند سفوح التلال . . والماء عذب وفير وليست به أملاح كمياه نهر «الطيب» أو نهر «دويريج» .

والواقع أنني بعد أن قضيت على سهول العراق عدة سنوات أخذت أحس برغبة في أن أزور التلال في منطقة الحدود السياسية مع فارس . وكأنما أدرك الملا «موسى» هذه الرغبة في نفسي فأخذ يلح عليّ في قبول دعوته . ولكنني لما كنت مرتبطًا بالحاج ركان، فلم أشأ أن أغير خطته .

ولما سألت الحاج رأيَه أجاب، - نعم . . أتمنى أن أزور الشيخ صيهودًا . . . وأضاف، - إنني لم أضع قدمي طول حياتي على سفح تل . . ولكن . . وقبل أن يتم حديثه قاطعه أحد أتباع الملا قائلاً - بالله عليك . . أنت حاجي وعمرك ما صعدت تل . .؟!؟ فرد عليه الحاج قائلاً . . الله يخرب . . أنا أقصد هذه التلال الواقعة أمامنا . ثم التفت خلفه وأشار بيده قائلاً، - ألسنا نتجه إلى هذه الجهة في صلاتنا يا جاهل . . ثم أضاف قائلاً بحدة وهو يشير إلى التلال، - طيب . . وحياتي، لا بد أن أصعد هذه التلال نفسها .

وهكذا انتهى النقاش بموافقة الحاج ركان . وأرسل البغلين اللذين يحملان تجارته إلى هور «دويريج» ينتظرانا حتى نعود من زيارة الشيخ صيهود .

واتجهنا صوب التلال نضرب في صحراء مكشوفة، تكاد أن تخلو من الحياة النباتية إلا من بعض حشائش صفراء ذابلة وبعض أعشاب يابسة، ضخمة مظهرها عقم الصحراء ومحلها . على أن لهذه النباتات الهزيلة، مع ذلك، اعتبارًا كبيراً لدى البدو . لأنها غذاء إبلهم وما عندهم من حيوان آخر . ولديهم عنها ثقافة واسعة . فهم يشيرون إلى كل نوع منها باسمه

ويذكرون خصائصه . فهذا غذاء الإبل المفضل . . وذاك غذاء الغنم أو الماعز . وهذا به عصير يفيد في علاج بعض الأمراض . وذاك نبات عطري وإذا أحرق أعطى رائحة طيبة . وهذا تؤكل من ثمره حبوب لذيدة الطعم . وذاك يستخدم بدل الصابون . . وهكذا . . فالصحراء رغم عقمها تعرف كيف تمون سكانها . . .

وقضينا طوال ما بعد ظهر ذلك النهار نقطع الطريق والسراب يخدعنا ، فيتمثل لنا في مظهر مياه زرقاء حتى إذا ما اقتربنا منها تباعدت حيناً واختفت حيناً آخر . وأخيراً بدت لنا سفوح التلال ، على مرمى البصر مرقطة بنقط سود كما لو كان قطيعاً من الماعز . حتى إذا وصلنا إليها اتضح أنها خيام الشيخ «صيهود» وجماعته من بني لام . وعند باب المضيف نزلنا .

ويمثل المضيف الشاشة التي تعرض عليها حياة القبيلة . وهو عند بني لام خيمة كبيرة ، وتمتلكها جميع العشائر التي تنتسب إليها . فالشيخ قد يموت أو قد يحل في مكانه غيره ، ولكن المضيف يبقى مركزاً للخلف كما كان مركزاً للسلف . فيه يستقبل الشيخ زواره وفيه يجتمع مع رؤساء العشائر لمناقشة الأمور الهامة ، العام منها والخاص . وفيه أيضاً يجتمع من يرغب من الآخرين أن يستدفئ بالنار ويشرب القهوة .

ويعاد تشييد مضيف بني لام مرتين في كل سنة . وتقام بمناسبة ذلك احتفالات رائعة في الخريف وفي الربيع . فعندما يأخذ الجو في التغير في الخريف ويميل إلى البرودة منذراً بقدوم فصل الشتاء ، تستبدل الخيام السمراء المصنوعة من الصوف والتي كانت تلطف من حرارة الصيف ، بخيام أخرى سوداء من شعر الماعز لتحمي من بداخلها من قسوة البرد ومن تسرب ماء المطر . فإذا ما بدت نذر الصيف في أواخر الربيع استبدلت خيام الشعر بخيام الصوف .

وفي وقت استبدال الخيام تذاع بين العشائر رغبة الشيخ في خياطة المضيف. فيركب إليه شيوخ العشائر ورؤساء الأسر ليشاركوه في خياطته وهو بينهم يردد بين وقت وآخر دعاء «اللهم احفظنا من ظلم الظالمين. حتى إذا ما كملت خياطته وأخذ في رفعه على أعمدته صاح الجميع بسم الله الرحمن الرحيم.

وجلس أمام صيهود، سيد المضيف وشيخ الشيوخ ورئيس جميع عشائر بني لام. وبدا لي أنه ابن الصحراء حقاً بيشترته السمراء من لفح الشمس، وبقوامه المتفجر صحة وحيوية، وبعيونه السوداء اللامعة، وبشفته اللتين كثيراً ما كانتا تتقوسان بحركات الاستهانة والتحدي. وبالاختصار كان مظهره مفعماً بالتعابير والمعاني التي تدل على أنه سوف يكون في مستقبله رجلاً عظيماً مثلما كان أبوه وجده في ماضيهما.

وكانت ملابسه بالغة البساطة، ليس فيها ما يدل على الزهو أو التظاهر. كانت صاية بيضاء وفوقها سترة بيضاء أيضاً. وفوق الجميع عباءة سوداء مزينة أكتافها بخيوط ذهبية عادية. وفيما عدا ذلك، كان يلبس حول رقبته «ياخة» مزينة بنقوش ذهبية بارزة وفي موضع «الدكمة» منها رصعت بفيروزة كبيرة.

وحوله جلس نفر من الشيوخ ومن رؤساء الأسر لابسين، مثله، عباءات سود. وعلى وجوه الجميع كانت تبدو الرزانة والجد. وأخذوا يتناقشون حول ما جاء في الرسالة التي حملها الملا موسى من الشيخ مجيد. وكانت قد قرئت علانية أمام الجميع. وتبين أنها تنصح الشيخ الشاب بأن يقوم بنفسه بزيارة الزعماء النافرين منه من أتباعه. وكانت أصوات كثيرة تعلو معارضة بشدة هذه النصيحة حتى بدا أن لا أمل في الأخذ بها. ولكن «صيهود» صمد وأعلن بحزم عن تصميمه على اتباع النصيحة والذهاب. فخفت جميع الأصوات. أليس شيخاً...؟ ولما

أوضح أنه يريد أن يحل الخلاف بأي ثمن. أخذ بعض الزعماء يعارضه بركة. كانوا يتكلمون برزانة وبين فترات صمت متعمدة. وكان غرضهم على ما يبدو إقناع شيخهم، لا أن يثيروا تهور شبابه واندفاعه. . كانوا يقولون نرجو شيخنا أن يؤجل قراره بعض الوقت. فلا بد أن سيأتي «عوفي» و«عاصي» قريباً ويقدمان له فروض الولاء والطاعة.

ولما تبين إصرار «صيهود» على الذهاب لم يرتفع صوت واحد لتأييده. ولعل إحساسه بالوحدة هو الذي جعله يرحب باقتراح الملا بأن أرافقه. وبهذا تم الاتفاق على أن نرحل في الفجر.

وعندما ألفت الشمس أولى أشعتها وكانت الصورة عند جوانب التلال رائعة. كان هناك نحو سبعين فارساً مدججين بالسلاح، يحمل كثير منهم على كتفه «بندقية» وفي منطقتهم خنجر معقوف. وكانوا على خيول ضامرة، تتحرك في أماكنها خفة ونشاطاً. وكانت عباءاتهم تظير في الهواء وراء متونهم ولا يكثر أحد منهم بلمها. ومنهم من كانوا يلبسون في أقدامهم أحذية، ومنهم من كانوا يضعون في «الركايات» أقداماً حافية خشنة. . . كانوا جميعاً مطبوعين بطابع الصحراء وهوائها الطلق، لون أسمر وخشونة مظهر مع نشاط متفجر وحيوية.

وفي مقدمة الركب كان صيهود يركب جواداً أزرق من أجمل ما رأيت. وكان السرج مزيناً «بكرايش» ملونة، يسود بين ألوانها الأزرق والذهبي. وكان الركاب مزيناً بحجارة زرقاء. وكان العنان من جلد ناعم وبلون قرمزي.

واجتزنا في طريقنا عدداً من الحافات، بعضها من الرمل وبعضها الآخر من الحجر الرملي. ثم أخذت الأرض بعدها يخف تموجها وتفتح، ويقطعها هنا أو هناك جدول صغير ماؤه صافٍ يجري فوق سطوح من الحصى والحصباء.

وامتد الطريق بنا بين غطاء من الحشائش ومن بعض الأعشاب والأشواك. وكانت الحشائش غنية بأزهارها المختلفة في أشكالها وألوانها، ومنها أنواع من الأقحوان والخزامى والترجس والخشخاش. ولم نتوقف في أثناءه إلا لحظة قصيرة عندما أقبل نحونا رعاة من إحدى القرى الصغيرة لتحية شيخهم الأكبر «صيهود». وعندها لوى الحاج ركان عنان فرسه واقترب مني يقول، - بني لام عرب.. وكان ضغطه على كلمة «عرب» يعني منحهم أعظم ما يستطيع من مدح وإطراء. ثم أضاف دعني أقص عليك قصة حقيقية، عاصرت حوادثها في شبابي، - كانت «سعدة» ابنة «موسى آل مذكور» فتاة رائعة الجمال. وتزوجها «غضبان» رئيس بيت «عبد العلي» رغم معارضة أبناء عمومته من بيت «جنديل». وقد ترتب على ذلك قيام حرب بين البيتين قتل فيها «سلمان آل جنديل». ثم هرب بيت «عبد العلي» إلى فارس ولجأوا إلى «علي قولي خان» محتمين به. ولكن «بنايا» شقيق سعدة والذي كان يحارب في صف أبناء عمومته من بيت جنديل، ركب مع خمسمائة فارس من جماعته وعبر بهم الحدود. وفي معركة طاحنة مع بيت «عبد العلي» قتل خمسة من أبناء «غضبان» وألقى بهم بجوار خيمة أبيهم. وبعد انتهاء المعركة رآهم «غضبان» عند دخوله إلى «سعدة» في خيمتها.. أتدري ماذا فعل..؟ لقد سمعه جميع الواقفين بجوار الخيمة وهو يقبلها ويقول، - وما أولادي الخمسة ما دمت أنت بجواري..!!؟ وسكت الحاج لحظة لتنفعل نفسي ثم أضاف، - ما شاء الله.. هكذا رجال بني لام..!.. ثم عاد يقول، - بعد ذلك، هرب بيت «عبد العلي» إلى الحويزة وبقوا هناك ثمان عشرة سنة. وفي أثناء ذلك مات «غضبان» واضمحلت معنويتهم وأضر بهم الفقر. فلجأوا إلى «ابن مزبان» ورجوه أن يتوسط لهم في الصلح وأبدوا استعدادهم في تقديم عشرين امرأة أو أكثر ومعهن سيف مرصع بالذهب والفضة.

وتقدم «ابن مزبان» بوساطته إلى «فالايا» رئيس بيت «جنديل». فجمع

هذا أهله وزعماء عشيرته وسألهم أن يصفحوا عن بيت «عبد العلي». ولكنهم رفضوا وقالوا - لقد سفكوا دم أخينا «سلمان»، وهذا سبب كاف لأن لا نصفح عنهم أبداً. وعندئذ بصق «فالايا» بصقة كبيرة وقال، - أتستطيعون جمع الماء المبصوق...؟! فلما أجابوه بالنفي قال، - وكذلك مهما فعلتم لن تستطيعوا جمع الدم المسفوك... ما فات قد مات وأرى أن تصفحوا عنهم. ولما اقتنعوا برأيه صفحوا عنهم وسمحوا لهم بالعودة إلى أراضيهم ولم يقبلوا أن يأخذوا منهم ما عرضه من دية.

وختم الحاج ركان حديثه بقوله، - لا توجد مثل هذه الشهامة في غير بني لام، ولا يوجد من هم أكثر منهم أنفة واعتزازاً، وسترى اليوم...

قبيل غروب الشمس بدا الأفق من بعيد مغبراً. فقال واحد من رجال «صيهود»، - إنهما عوفي وعاصي... وكان قوله صحيحاً. فسرعان ما انجلى الغبار عن فرقة كبيرة من الفرسان... وجرى اسما «عوفي وعاصي» من فم لقم. كان الجميع مدركين أن حل الأزمة متوقف على طبيعة هذا اللقاء.

كان نظام اللقاء رائعاً. أخذ فرسان «عوفي وعاصي» ينتشرون في حلقة واسعة. وتقدم الزعيمان لاستقبال ضيفهم الكبير وأمامهم نفر من فرسانهم يفسحون لهم الطريق، ونفر منهم يطلق النار، بينما يلعب البعض الآخر خيولهم بحركات رائعة.

وفعل أتباع «صيهود» مثل ذلك. ولما أصبح الفريقان على مسافة نحو خمسين ياردة نزل الزعيمان عن خيولهم وتقدما مشياً على أقدامهم. ولكن الشيخ الصغير بقي ثابتاً على حصانه لم يتحرك، بينما نزل نفر من أتباعه وتقدموا مشياً على أقدامهم. وقد أثار موقف «صيهود» حنق الزعيمين، فتوقفا لحظة، نكصوا بعدها على أعقابهم وعيونهم تفيض حنقاً وغضباً.

وكان نكوص الزعيمين عن التقدم لتحية رئيسهما وتقديم الخضوع الواجب له وما بدا على أثر ذلك من مظاهر الغضب في حركات الشيخ

وفي صوته باعثاً للقلق في نفوس أبناء القبيلة أثناء تقدمهم نحو المضيف.
وحاولت أن يكون مكاني بجوار الزعيمين لأعرف منهما سبب الخلاف.

وتنازل «عوفي» بإجابة مقتضبة فقال، - لقد أصبحنا في نظره لا شيء. أما عاصي فأسهب وقال، - أترك الرجال الكبار الذين كانوا رفاق أبيه «عبد الكريم» ويستبدل بهم بعض الشبان.؟! أهل عجزنا عن أن نقدم له نصائحنا الثمينة حتى لم تعد لأقوالنا قيمة.؟ لقد كنا رجال أبيه في أوقات شدته، كما كنا رفاقه في أوقات فرحه. ولكن «صيهود» لا يذكر ذلك. .
لقد بذل إخوتنا وأعمامنا دماءهم في سبيل بيته، ولكن هذا الصبي يتناساها. . والله نحن الذين كنا أعمدة مضيف أبيه، لم نعد في نظره أكثر من الأوتاد الخشبية التي تثبت القطع التي تكون خيمته.

كان «عوفي» رجلاً وقوراً عبلاً مديد القامة نحيلها ويلبس ملابس نظيفة. وكان فوق جواده صامتاً، كما لو كان لا يستمع إلى الكلمات التي تفوه بها زميله. ولكن ملامحه الهادئة كانت تخفي وراءها غضباً مكتوماً.
وكان في عمر واحد تقريباً مع عاصي. ولكن لحيته القصيرة المصبوغة جعلته يبدو أصغر كثيراً من زميله الذي ترك لحيته تنمو على طبيعتها بلونها الأشهب الغامق.

ورغم أن «عوفي» كما بدا لي، كان صاحب الشخصية الآمرة والزعامة التي تفرض نفسها على الرجال، إلا أن «عاصي» كان صاحب «الفم الذهبي». كان يحاول ببلاغته وبداهته الحاضرة إقناع الرجال بصواب ما فعلوا. كان يقول، - ألسنا الآن، ونحن الرجال الذين اخضرت لحاهم وحملوا عبء السنين على أكتافهم، قد تقدمنا على أقدامنا للقاءه؟. . هل نزل عن فرسه لاستقبالنا مثلما فعلنا لاستقباله.؟! كلا. . إننا لم نر مطلقاً مثل هذه المعاملة التي عاملنا بها حتى من أبيه الجسور. . . لم يحدث مطلقاً أن حدث لنا، نحن الزعماء. . . أشهر من أنجبتهم قبائل بني لام، مثل هذا العار الذي ألحق بنا أمام رجالنا. . .

وعندما وصلنا إلى المعسكر قادنا بعضهم إلى خيمة «عوفي» فبدأت في نظر البعض كالحبة وجوهاً مشحوناً بالنذر، ففضلوا الضيافة عند معارفهم.

وجلس صيهود على بساط في أحد أطراف الخيمة وأنا معه ونفر من أتباعه. وجلس «عوفي» و«عاصي» ونفر من أتباعهما في طرف آخر. وكان أولهما عبوساً عنيداً بينما كان الآخر يحكّ لحبته الخشنة بقلق. وقد نسيا حتى المجاملات العادية للضيافة. وكلما كان الوقت يمر وهذا الإهمال للشيخ قائم، كانت الهوة بينه وبينهما تزداد اتساعاً.

كان الجو منذراً بالخطر وكان من المتوقع أن ينفجر بين لحظة وأخرى، لولا وجود القهوجي زوج مرضعة «صيهود» والصديق المحب له. فبعد أن دار علينا بقهوته تقدم ببساطة محبوبة، يلمسها كل من زار البادية، إلى الشيخ الصبي وأخذ يتحدث إليه بصوت واطى مملوء بالود والاحترام موضعاً له وجهة نظر الزعيمين، فربما أن أحداً من جماعته لم يستطع توضيحها له. وبدأ بقوله - إن الدسائس القبلية كالدسائس العائلية لعنة في هذه البلاد. . وانتقل إلى الحديث عن الخدمات التي أديها لوالده وعن الألم الذي حز في نفسيهما والإهانة التي جرحتا كبرياءهما عندما وجدا شخصيهما مهملين ونصائحهما لا يكثرث لهما.

وفي بادئ الأمر بدا الشيخ غير آبه لنصيحة القهوجي. فقد كان ذهنه مشغولاً بالإهانة التي لحقته اليوم. ولكن القهوجي استمر مع ذلك ولم يقاطعه أحد. حتى بدأ ذهن الشيخ يتحول. وربما كان يسائل نفسه عما إذا كان سلوكه سليماً؟ وعما إذا كان من اللائق أن ينتظر أن يتقدم إليه الشيخان المسنان يقبلان ركابه؟ ثم هذا القهوجي المسن، ألا يعرف كيف كان أبوه العظيم، عبد الكريم، يتصرف في مثل هذه الحالة؟

ومال «صيهود» قليلاً إلى الأمام وأخذ يصغي بانتباه إلى ما يقوله القهوجي. وانتهاز هذا الفرصة السانحة للاستمرار في نصيحته. وأخذ يقص

له عن والده وعن مجاملاته التي عظمت مكانته ولم تنقص من شهرته . وعن روح الشهامة والتسامح التي كان يعامل بها الآخرين . . . وعن . . . وأخيراً نهض على قدميه قائلاً ، - يا الله . . وانصرف إلى موقده .

استمر صيهود في جلسته صامتاً يغطي وجهه قناع مصطنع من عدم الاكتراث . وإن كان من الواضح أن حديث القهوجي قد ترك في نفسه أثراً كبيراً . ثم نهض فجأة وذرع أرض الخيمة إلى حيث يجلس الزعيمان اللذان نهضاً أكياً لمقدمه وصاح ، عماي . . ومال برأسه العنيد يقبل أيديهما ، «عوفي» أولاً ثم «عاصي» . وقد أصاب الذهول الشيخين لحظة صاح بعدها «عوفي» ابني . . ابني . . وأخذ يقبل وجنتيه في حرارة وحرقة . بينما لم يجد «عاصي» ما يفعله إلا أن يميل على قدمي الشاب . ومن وراء الحجاب الذي يفصل النساء عن الرجال ارتفعت «الهلاهل» وأخذت تنتقل من خيمة إلى أخرى . وسمع الرجال فهرعوا من كل جهة نحو المضيف وارتفع من بينهم صوت يهوس . .

شبح القتال إل كان جائم علينا راح... وبعد ما يعود..

وأخذت مئات الأصوات تردد المقطع الأخير . وحول المهوس دار الرجال في حلقة وهم يترنحون بأجسامهم إلى الأمام تارة وإلى الخلف أخرى . ويوقعون النغم بأقدامهم ، يرفعونها ثم يضربون بها الأرض ، وهم يلوحون بأذرعهم في الهواء أو يلوحون ببنادقهم ويطلقون منها النيران . وأخذ الجمع يزداد والحلقة تتسع ودوي الأصوات يتردد صدها بين التلال في السهول المجاورة حتى تذكر الشيخ واجبه ، كصاحب البيت ، في تلك الدعوة التي يبدو أن مشاكله الخاصة قد أنسته إياها بعض الوقت ، كنت قد أبديت له رغبتني في زيارة التلال فرحب بها ووعد بأن يقودني إليها بنفسه .

كان كريماً في الوفاء بوعدده . فسرعان ما أرسلت الرسل إلى معسكره لإحضار الخيام والطعام والحاجيات الأخرى . وفي الليلة التالية كنا نعسكر

على ضفاف نهر الطيب وتشرف علينا رائعة جبال إيران ممتدة في سلاسل متعاقبة. وتجلى بعض قممها الثلوج التي تختلط بالسحب وتتدخل في طياتها.

وأمامنا، على مسافة قليلة من خيامنا امتدت حافة من حجر رملي أحمر قطعتها بعض الوديان، ومن بينها كان نهر الطيب ينساب نحونا متلويًا كالأفعى. وعلى ذروة قممها أقيم عمود قصير مصبوغ بلون أبيض يشير إلى خط الحدود بين العراق وإيران.

وكان النسيم المنبعث من القمم المتوجة بالثلوج بارداً عندما بدأنا رحيلنا عند الفجر. وكانت الخيول نشطة تتحمس للركض فوق الأرض المكسوة بالحشائش الخضراء.. وكنت أنا شديد البهجة بهذه الرحلة حتى خيل إليّ أن ليست هناك موسيقى أروع من دقات حوافر خيولنا على هذه الأرض الصلبة. ولا نسيم أرق من هذا النسيم المنعش الذي يحيط بنا قبل أن تغمر الشمس الأفق بأشعتها. وكانت الموسيقى المنبعثة من دقات حوافر الخيول مع الأصوات المنبعثة من أعنتها، ومن اصطدام البنادق بحافات السروج، ومن صليل السيوف في أعمادها، تؤلف أنغاماً جميلة كثيرة التغير والاختلاط.

وعندما وصلنا إلى الحافة الرملية. وجدنا فيها ممراً كونه أحد الوديان. كان جافاً ولكنه بلا شك يتحول في وقت الأمطار إلى سيل جارف. وسلكنا طريقه نصعد فيه وندور مع انحناءاته. وكانت دقات حوافر خيولنا على سطحه المفروش بالحصى ترن ويردد رنينها مئات الأصوات بين الجبال. وبينما أخذت برودة الهواء تزداد شدة أخذ الوادي يعلو بنا ويضيق حتى حجبت جوانبه عنا ضوء الشمس وكل شيء آخر، عدا شريط ضيق من السماء فرقنا.

واستمر صعودنا نحو ساعة، تعبت بعدها الخيل وبللها العرق، كما

أحسننا نحن بالظما . فأخذ نفر من الرجال يتحدثون عن بئر مشهورة بصفاء مائها وعذوبته تقع في أعلى المضيق . فلما وصلنا إليها كانت ضحلة وماؤها عكر ، ولا يتجاوز عمقه بضعة بوصات . ويجانبها وقف «مكاري» يرفع منها الماء ويسقي بقاله . وكان مظهره يوحي بأننا قد عبرنا الحدود التي خطتها روسيا وبروسيا (ألمانيا) وبريطانيا وتركيا في ١٩١٤ . وهي حدود لا شك في أنها صناعية . فقد اخترقت أرض بني لام وقسمت هذه القبيلة العظيمة بين العراق وإيران .

ومن قمة المضيق أخذنا ننحدر على الجانب الآخر ببطء كبير وحذر إذ لم يكن هناك وادٍ آخر نسلكه ويوضح لنا معالم الطريق . والتفتنا حول أكمة عالية هناك لنجد أنفسنا في أرض سهلة وعليها أقيم معسكر صغير من الخيام السود لجماعة من أتباع «صيهود» .

وكما هي العادة ، أسرع الشيوخ المسنون من بينهم لتحية شيخهم ، ولكن قدومه المفاجيء قد أفقدهم الوعي . فاندفعوا بجموعهم حول فرسه يقبلون يديه . ثم أخذوا يتساءلون باهتمام عما إذا كنا قد قابلنا في طريقنا «علوان وجلوب» . ثم ارتفعت أصواتهم حانقة عندما علموا أن الزعيمين اتخذنا طريقًا آخر غير الطريق الذي سلكناه . وكان الزعيمان قد انطلقا في الصباح المبكر لمقابلة شيخهم «صيهود» عندما علما أنه قد نصب خيامه في جبرتهم .

وأخذت عشرات الأصوات تتحدث إليه عن مظلمتهم التي تلخص في أن «علي قولي خان» بن والي «بشت كوه» قد اغتصب أربعمائة من أغنامهم . والتمسوا من شيخهم أن يساعدهم على الانتقام لهم منه . وأخذ نفر منهم بحشد تكوين عصابة وينضم إليها أتباعه . وأخذ بعض يخطط ويعدد صور الأخذ بالثارات . كان الجميع متفقين على شيء واحد هو رغبتهم في الهجوم على أعدائهم والانتقام منهم ، إذا صرح لهم «صيهود» بذلك .

وانبرى أحدهم يقول «علي قولي خان» دنس... يقول، - إن هذه الأرض فارسية... ونحن قلنا إنها أرض بني لام منذ عهد أجدادنا... لا... بل وأجداد أجدادنا. وقاطعه آخر بقوله - ماذا يهمنا إذا قامت أربع دول أو أربعون دولة وقسمت أراضينا وقالت هذا الجانب من العمود لتركيا وذاك الجانب للفرس... أليست هي أراضينا من أيام «عوس»؟!.

وتقدم أحد الرعاة بلحية سوداء يشير بيده ويقول، - انظروا إلى هناك...، فيما وراء هذا الخط من التلال الرائعة، يرقد في قبورهم الأوائل من أبطال قبيلتنا، الذين ماتوا في سبيل استخلاص هذه المراعي لأبنائهم... هذه المراعي التي يدعيها الآن الإيرانيون لأنفسهم...!! والله، إن إيرانياً واحداً لم يجسر حتى الآن أن ينزل فيها إلا برضانا... لقد استحوذ آباؤنا على هذه الأرض بحد السيف... وبالله وبشرفي إننا بحد السيف نستطيع الاحتفاظ بها.

وانبعث صوت من بين الجميع يقول، - مهلاً... مهلاً... فسكت الجميع. وتقدم شيخ مسن، يبدو أن له منزلة خاصة واحتراماً بين هذه الجموع الهائجة. فأفسحوا له الطريق وهو يتقدم نحو «صيهود». وأخذ يتكلم بصوت رقيق فيه وداعة وقال، - يا محفوظ... رجالنا أخذوا يجلسون وراء الخيام ويغزلون الصوف كما تفعل النساء. وشبابنا يحلبون ما بقي لنا من شياه قليلة العدد من غارات اللور، قطاع الطرق، الذين لم يجروا علينا إلا في السنوات القليلة الأخيرة. والحكومة الإيرانية أخذت ترغمنا على أن نقاتل القبائل فيما وراء الحدود. ولما كنا أضعف منها فقد رضخنا لإرادتها... ولكن... أهى حكومة عادلة كما هي قوية...؟! هل حمت قطعاننا واستردت لنا ما نهب منا...؟! ألم تشرق قطعاننا وأيدينا مغلولة...؟! ألم تنهب، ولم يسترد ما سلب منا...؟!.

ارتفعت أصوات الاستحسان. ثم تلا ذلك صمت متحفظ في انتظار

قرار الشيخ. ولا شك في أن الإنسان يشعر بالعطف على هؤلاء الرعاة الذين يدفعهم كبرياؤهم العنيف إلى الاستمرار في رعي قطعانهم في أراضي لم تعد لهم من الناحية السياسية. ولكن العبء الأكبر يقع على عاتق شيخهم الصبي، «صيهود» والذي سيكون قراره حاسماً...

كان «صيهود» يعرف أنه رئيس قبيلة كبيرة وقوية. ويعرف أنه إن أمرها بالهجوم عبر الحدود فأمره مطاع. ولكنه كان يعرف، بجانب ذلك، أنه ما صار شيخاً إلا بموافقة الحكومة.. كان يتطلع بتحفظ نحو الاتجاه الذي سار فيه الغزاة بغنائمهم. وكانت يده تجذب بعصبية عنان جواده. وكانت عيناه تشع برغبة جامحة. كنت أنتظر، ولعلني كنت أرجو، أن يقول اتبعوني.. ولكن بينما كان جسم الشاب يزداد انتصاباً على سرجه، لم تكن كلماته التي تفوه بها تعبر عما بدا من مظهره. إذ قال باقتضاب، - سوف أتحدث في هذا مع «علوان وجلوب».

علا الحزن وجوه الرجال كما علتها خيبة الأمل. وخبث الأضواء اللامعة في عيونهم. وأخذوا ينصرفون في سكون، لم يتفوه أحد منهم بهمة ضد القرار. كما أن أحداً لم يحاول أن يستأنف الحديث..

ولوينا مع «صيهود» أعنة جيادنا. وعدنا نصعد جوانب التلال مرة أخرى، وقد تخلت عنا روح المرح والدعابة الحلوة التي كانت سائدة بيننا من قبل.

وفي الطريق أخذت أفكر في الصعوبات التي تحيط بمركز هذا الشيخ الشاب. إنه إذا خشي غضب الحكومة وخضع لإرادتها فربما تتخلى عنه عشائره إلى من هو أجراً منه وأقدر على المشاكسة والمناوأة. وإذا هو أخذ جانب جماعته ووقف في وجه الحكومة كان معرضاً للعزل من المشيخة. وفي الحقيقة إن الإنسان ليعجب كيف يستطيع شيوخ المستقبل الاحتفاظ بمراكزهم بعد أن أصبحت غير ثابتة؟ ترى هل ستنتجع في النهاية سياسة

الحكومة في حل مثل هذه الأربطة القبلية العتيقة وتحمل القبائل البدوية على الاستقرار؟ أم أن القبائل ستقاوم إلى النهاية متمسكة بحريتها ومفضلة الضرب في الفياقي كما كانت تفعل دائماً منذ بدء الخليقة؟

ووصلنا إلى المعسكر حيث كان «علوان وجلوب» ينتظران بصبر نافذ عودة «صيهود». ولم يضيعا وقتاً فأخذوا يقصان قصتهم عليه. فانتهزت الفرصة وانسللت والحاج ركان، ونزلنا بحذر إحدى الحافات المشرفة على النهر حيث قضينا بقية اليوم في صيد السمك. ولما عدنا إلى المعسكر كان الصمت مخيماً عليه إلا من جماعة قليلة العدد كانت تحيط بموقد النار.

اتخذ صيهود قراره الذي اتخذه بالرغم عنه. وحاول أن يقنع نفسه وأن يقنع غيره بأن القلم قد أصبح أقوى من السيف في حل مثل هذه المنازعات.

كان عليه أن يزور متصرف العمارة ليكتب إلى بغداد وينتظر أن تقوم بغداد بدورها بالكتابة إلى السلطات الإيرانية في طهران. كان مضطراً أن يتبع هذه الطريقة الطويلة لاسترداد الأغنام على التتبع السريع للصوصل. وقد عبر عن اضطراره هذا بقوله، - والله لولا الإنجليز لفسلنا هذا العار، واسترددنا أغنامنا ومعها أضعاف عددها قبل أن تغرب شمس هذا اليوم.

أمن «علوان» مصداقاً لقوله فقال، - إي بالله... إنها ليست الحكومة العربية التي نخشاها وإنما الإنجليز. ثم التفت إلي وقال، بصوت تنقصه الفصاحة الطبيعية التي يمتاز بها العرب وسأقص عليك قصة - كان ذلك منذ عدة سنوات، في أثناء الحرب، عندما رأيت لأول مرة رجلاً إنجليزياً. ففي اليوم الذي أخذت فيه القبائل بقيادة صبري بك ومحمد باشا الداغستاني تحرق «المهيلات» عند قرية «شيخ سعد» هاجم الشيخ «جتاب السعيد» «لنشا» وأغرقه وأسر جندياً إنجليزياً وأرسله إلى القائد التركي «صبري» بك. وكان مع القائد وقتئذ كثير من شيوخ وزعماء بني لام وآل ربيعة، وكنت

واحداً منهم. كنت قبل ذلك أسمع عن الإنجليز، ولكنني لم أكن قد التقيت
بواحد منهم. كان الأسير أشقر اللون وكان مصاباً برصاصتين إحداهما في
ذراعه والأخرى في جنبه. وتقدم صبري بك يسأله بواسطة مترجم من
أسرى الروس قائلاً، - كم عدد الجنود الذين تحت إمرة قائدكم؟ ولكن
الأسير أخذ في الضحك. ولما سئل عن سبب ضحكه أجاب. - إنني
أضحك وشر البلية ما يضحك.. ألا ترونني مصاباً فترسلونني أولاً إلى
المستشفى قبل استجوابي؟!.. فغضب صبري بك وسحب خنجره مهدداً
إياه بقتله إذا لم يجب على سؤاله. ولكن الإنجليزي عاد إلى الاستغراق في
الضحك مرة أخرى. وقال، - إنني أضحك لوجودي بين جماعة بهذا
الجهل.. أليس الطريق إلى إنجلترا يستغرق ستة شهور؟ فكيف يستطيع
رجل واحد أن يحصي كل القوات على طول هذا الطريق..؟!

رد صبري بعد ذلك خنجره إلى غمده ووضع راحته على ذقنه ثم غادر
الغرفة. أما نحن فقد رجعنا إلى قطعاننا ولم نشترك في قتال الإنجليز بعد
ذلك.

الفصل الحادي عشر

غالب في المنفى

غادرنا منطقة التلال ووصلنا إلى الصحراء في صباح اليوم التالي. وجرياً على العادة العربية في المجاملة، أصر الشيخ صيهود على أن يرافقنا في المرحلة الأولى من الرحلة، إلى حدود الهور الذي كونه مياه نهر الطيب ونهر دويريج. وهناك نفترق. فيذهب الحاج ركان بمتجره يبادل به بين القرى. وأذهب أنا إلى العمارة حيث أخذ الباخرة إلى بغداد. أما صيهود فيعود إلى معسكره عند سفوح التلال.

ولم نسر طويلاً في طريقنا حتى أشرقت الشمس وكانت السماء صافية تنذر بيوم قائف. ثم لم نلبث أن هبت علينا ريح حارة أخذت تشتد. ومثل هذا اليوم الحار نادر في مثل هذا الوقت المبكر من السنة، وقد أسفنا لأننا أهملنا أن نحمل معنا ماءً كافياً، إذ ألم بنا العطش. فلما لاح لنا مع إقبال المساء سطح واسع من الماء رفعت الخيول المجعدة آذانها وغمغم الرجال ارتياحاً. واندفعنا مسرعين نحوه. وأخذ الرجال يرفعون الماء بأيديهم إلى أفواههم حتى ارتووا. بينما أخذت الخيول تشمه ثم اندفعت تعب منه.

وراح واحد من رجال صيهود يخرج صندوقاً من بين حمولة أحد البغال وأخذ يعدّ الشاي. وذهب اثنان لجمع وقود لإشعال النار. بينما ذهب آخران يجمعان غذاءً للخيول. أما الباقون فقد جلسوا حول «السماور»

يشربون الشاي الذي بدا تأثيره عجيباً في تبديد تعبهم .

وعاد أحد جامعي الوقود وقال ، - يا شيخ ... لقد وجدت آثاراً
حديثه لحواضر جاموس . فأجابه صيهود ، حسن .. أنت من هنا يا زايده
وأنت من هنا يا «خضير» ، اذهبوا وابتحنا عن هؤلاء المعدان .. فلا بد أن
معهم لبناً وسمكاً طازجاً نشتره لأجل الصاحب .. أسرعاً ..

ومن بعيد ، عبر الصحراء الشاسعة ، صافحت أسماعنا نغمة شجية
أخذت تقترب شيئاً فشيئاً . وكان الضوء خافتاً فلم نتمكن من رؤية الإبل
المحملة وهي قادمة ، عدا سماع ذلك النغم المتكرر من أحد البدو . ثم بدا
أمامنا شبح قافلة مكونة من خمسة جمال أو ستة . وأسرع نفر من رجالها
بالالتفاف حولها ثم أنيخت الإبل وأنزلت عنها أحمالها . ثم ربط كل جمل
بجمل متين حول ركبة المثنية وهو بارك ليمتنع عليه الوقوف .

ولم يمض طويل وقت حتى نصبت خيمة من الشعر وأشعلت النار
أمامها وحولها جلس الرجال يدخنون في صمت بينما فرش صيهود عباءته
عن كتب وأخذ يصلي صلاة العشاء .

وارتفع صوت من بين الحلقة المنعقدة حول النار يسأل ، - من
القادم ؟ فأجابه ، - زايد . وبرز خضير من وراء زايد ومعهما رجل على متن
حزمة ربطها في عباءته . وعندما فتحها ، سقط منها على الأرض نحو اثني
عشرة سمكة كبيرة . وسرعان ما أخذت وشقت ونظفت تنظيفاً بسيطاً وألقي
بها على جمرات النار . ولم يستغرق ذلك سوى لحظات قليلة أعد بعدها
العشاء . وبينما كنا نأكل لاحظنا أن الحاج ركان كان يتلهى ببعض
الحشائش النامية . فتساءل أحد الرجال ، - ماذا ؟ ألا تأكل يا حجي ؟! ألا
تستهويك رائحة السمك الشهية بعد اقتصارك على أكل اللحم عدة
أيام .. ؟! وأضاف آخر بخبث ، - إن الشيخ سيتساءل ، يا حجي ، لماذا لا

تأكل من طعامه؟ وكان من الواضح أن المتسائل قصد بالجملة الأخيرة أن يسمعها الشيخ صيهود. وقد أصبح بذلك لزاماً على الشيخ أن يسأل الحاج ركان لماذا لا يأكل السمك؟

وقد أجاب الحاج ركان ضاحكاً، - إنها قصة طويلة.. وإذا تركني هؤلاء الثرثارون أكمل أكلني بسلام فسوف أقصها عليكم.

وعندما انتهى العشاء أخذنا نقرب حول النار، وبدأ الحاج ركان يقص قصته - منذ عدة سنوات مضت، وكنت لا أزال شاباً لم تنبت لحبتي بعد، خرجت مع ابني عمي «زبيد» و«محمد علي» لناخذ زورقاً محملاً بالرمان إلى «خفاجية»، على مسافة ثلاثة أيام عبر الهور. وحدث أن أمس علينا المساء، فقضينا الليل في قرية «بني صالح» حيث قدم لنا في مضيف شيخهم طعام وماوى. وكنا جائعين، ولكن الشيخ لم يكن كريماً. ولذلك سرهان ما التهمنا الطعام الذي قدم لنا ولم نشبع بعد. فثار حنق محمد علي وألقى بالماعون الفارغ فتحطم.

والعمل الذي قام به محمد علي غير مقبول، ولكنه ليس أمراً خطيراً. ومع ذلك فقد اعتبره بنو صالح إهانة عظيمة لأنه يعني أن ضيافتهم غير حسنة. ولم تمض بضعة دقائق على الحادث حتى جاءنا خادم من قبل الشيخ يدعونا لتناول الطعام ثانية في بيته. ولم يكن باستطاعتنا الرفض، لأننا رأينا بعضاً من الرجال المسلحين عند زورقنا.

وعندما دخلنا بيت الشيخ وجدناه قد أعد لنا صفحة كبيرة وعليها أربعون سمكة، نعم، أربعون، لا أقل.. أقسم بالله.. وحولها سلال مملوءة بالخبز.. وهناك، كان شيخ بني صالح جالساً وبجانبه سيف مسلول..

توقف الحاج ركان لحظة ليحسني القهوة التي قلمت إليه ثم تابع حديثه قائلاً، - كانت العادة عند بني صالح أنه إذا كسر ضيف وعاء فارغاً

اعتبر ذلك تحقيراً لضيافتهم. فیدعی إلى أكلة أخرى وإذا عجز عن التهام كل الطعام الذي يقدم إليه ذبح بحد السيف...!

تطلعت إلى الحاج ركان علني استشف من ملامح وجهه إن كان جاداً فيما يقول. ولكن جاره الذي لاحظ الشك في نظرتي أسرع يؤكد ذلك بقوله، - نعم يا صاحب.. هذا صحيح.. ونفس العادة موجودة عند «البو راشد». ويقولون إنه في أيام «نعمة» كسر أحد الرجال ماعوناً فأمره الشيخ أن يأكل معه في تلك الليلة. ووضعت أمامه كومة كبيرة من الأرز. وقد سمع أحد خدم الشيخ وهو يقول له، - هل أحضر السيف؟ فأجاب الشيخ، - لا.. إن الأرز هو سيفي.. وكان كلامه صحيحاً. فإن الرجل اضطر أن يأكل الأرز كله، ولما ذهب إلى النهر ليشرب سقط ميتاً.. وكذلك.. ولكنه توقف عن الكلام عندما حدّجه الحاج ركان بنظرة ساخطة.. فأنقذت الموقف بقولي، - وماذا حدث لك ولابني عمك يا حجي؟ فأجاب، - أكلنا الأربعين سمكة والخبز.. وبينما كنا نأكل أمر الشيخ خدمه أن يأتوا بأربعين سمكة أخرى.. وأكلناها أيضاً.. ولكن الخبز الذي جاؤوا به كان خبز «طابوق» وكان حديث الصنع ممثلاً. فأشرت على زميلي أن نأكل ببطء كما لو كنا قد شعبنا وما إن فعلنا ذلك حتى أسرع من كان يراقبنا وأخبر سيده بما رأى. فأسرعنا نحن في التهام الباقي. ثم أخذنا السلال والمواعين واندفعنا إلى النهر وألقينا بها فيه مخافة أن يعودوا ويملاوها من جديد.

وختم الحاج ركان حديثه قائلاً، - وهكذا نجونا بحياتنا بعد أن أكلنا كل الطعام الذي وضع أمامنا. ولكن صوتاً انبعث من بين الرجال الجالسين حول النار صائحاً، - لا.. لا.. هذه ليست نهاية القصة. فأجاب الحاج ركان باعتداد، - أنا لا أخبر الصاحب بغير القصص الحقيقية.. ولكن الصوت أصر، كما لو كانت القصة غير جديدة عليه، وقال، - ما يخالف... أكمل القصة. فأجابه الحاج ركان، - ما دمت تريد.. إننا لكي

نري بني صالح أننا لا زلنا جوعاً ذهبنا إلى مشحوفنا وأكل كل واحد منا نحو عشرين رمانة مما كنا ننقله للبيع.

وبينما كنا نضحك من نهاية القصة أقبل نحونا شيخ من الماء وحيانا من بعيد مخافة أن يطلق أحد النار على قاربه المتسلل في الظلام. ثم قال، - هل معكم الحاج ركان؟ وصاح باسمه. فأجابه الحاجي - أي.. أي.. وكان المكارى الذي يحمل على بغاله تجارة الحاج ركان. فنهض الحاج ركان وحيانا مودعاً وانطلق مع الرجل في القارب واختفيا في الظلام.

كان الليل بارداً. ومع أن النار المشتعلة قد أدفأتنا إلا أن الدخان المنبعث عنها قد أدمع عيوننا. وأراد صيهود أن يقطع حبل الصمت الذي خيم علينا بعد ذهاب الحاج ركان فقال: هل ذهب أيضاً رجل الهور الذي أحضر لنا السمك؟ فأجابه صوت من وراء النار قائلاً: أنا هنا... ولكنني لست من أبناء الهور. فسأله الشيخ مندهشاً - ألسنت من المعدان؟! فأجاب، - لا والله أنا لست من سكان الأهوار... وراسك... أنا وإن كنت قد قضيت في الأهوار وقتاً طويلاً إلا أنني، وآبائي من قبلي، قد تفتحت أعيننا، أول ما تفتحت، على الصحراء الواسعة. إنني من نسل عربي أصيل، من «بني صباح» من قريش، قبيلة النبي صلى الله عليه وسلم.

وتوقف المتحدث لحظة فلم يقاطعه أحد. فاستمر يسرد حوادث قصته، - كانت إرادة الله أن أكون أنا «حنتوش» الخادم الخاص لشيخ قبيلتنا. وكنا نملك قطعاناً كبيرة نتتبع لها المرعى، نشرق في الصحراء حيناً ونغرب حيناً آخر، في أمان، حاملين أمتعتنا وخيامنا المصنوعة من الشعر ننصبها حيث يكون المرعى. ثم جاء الوقت الذي أراد الله فيه أن يستبدل حالنا بحال آخر.

في تلك الليلة، ليلة الثارات والدماء فقدنا كل شيء. فهربت مع سيدي في الليل عبر الصحراء بعد أن نجونا من الموت بأعجوبة. وكان

شيخي يحمل معه كل من بقي حياً من الذين يحبهم . ولم يكن ذلك سوى طفلة الرضيع التي ما كانت قد تجاوزت العام الأول من عمرها ، أما أنا فكنت أحمل ما استطعت أخذه من ذهب وحلي . وانطلقنا بخيولنا نسابق الريح مسافة طويلة حتى وصلنا إلى هذه الأهوار التي بدت لنا بمياهها وأحراش القصب المتكاثف فيها بر الأمان .

وهناك بقينا ، ولا يعرف أحد هل نحن في عداد الأحياء أم في عداد الأموات ، ونال سيدي «غالب» تقدير رعاة الجاموس ، كما كان قبلاً بين رعاة الإبل في الصحراء . ولكن تفكيره كله كان منصرفاً إلى العناية بطفلته التي بقيت له ، حتى يرى جمالها الباهر يزدهر كما تزدهر الصحراء بعد المطر . ويمتّع عينيه بقوامها المديد الذي كان ينمو كما ينمو القصب على جوانب جداول الهور .

وأخذت فصول الصيف تأتي وتمر . وكما تعد الساعة الوقت كنت أعد كذلك أعوام عمر «صادقة» وعندما نضجت أنوثتها كنا قد قضينا في منفانا عشرين عاماً .

وكنت أرى سيدي يزداد رضاء وابتهاجاً كلما مرت السنين وصادقة تتفجر أنوثة وحيوية ، وأصبح لا يتوجع على أيام الخيام . ولم يعد يمسك ببندقته ويتحدث عن الثأر والانتقام . كانت سعادته في رؤية ابنته . وكثيراً ما سمعته يهمس ، وهو مستغرق في النظر إليها وهي تجرش الأرز أو تغسله في الماء ، - الله كريم .

أما أنا فقد كان قلبي قلقاً . إذ كانت أنوثتها المتفجرة وجمالها الفتان تلهب قلوب النساء غيرة منها . إذ كانت «صادقة» بين نساء الهور كالغزال النافر بين قطيع الجاموس . وكان شباب القرية يتطلعون إليها ويلهجون باسمها فيما بينهم . ولكن سيدي كان يزدرى أن ييدي بهم أي اهتمام .

ثم قفز قلبي بين ضلوعي وكاد أن يكف عن الوجيب مما سمعته من

«هدام بن مهاوش»... آه... لبيته كان من أبناء الصحراء...! كان شاباً جميل الطلعة، محبوباً. كما كان جسوراً مخاطراً، يهابه الجميع. وكان مشهوراً في كل أنحاء الهور برأسه العنيد وبیده السريعة المستعدة... ولكن جسارته وغروره كانا أكثر مما ينبغي... إذ كيف تجاسر وأمل أن تكون ابنة سيدي زوجة له...؟! فليس لعربي، ما لم تكن دماؤه أصيلة أن يتطلع إلى ابنة من منزل الشيوخ. وهذا المعيدي الأصيل، ربيب الهور، الذي لا يعرف له سيداً أو سيدة غير الجاموس... والذي يشرفه حمل نعال «صادقة» كيف يفكر في زواجها...؟! إي بالله... إن قلبي ليتفجر اشمنزازاً من تفكيره هذا...

وتوقف حنتوش لحظة لف لنفسه فيها «جيكارة»، بينما قام أحد الرجال وألقى في النار حزمة من العشب الجاف. ثم واصل حديثه قائلاً - نعم... في تلك الأيام كان عقلي مضطرباً... ففي إحدى الليالي، بينما كان رجال القرية مجتمعين عند سيدي يدخنون ويشربون القهوة، دوى صوت طلق ناري... فصاح أحد الرجال، من؟... من هناك؟ فرد عليه صوت من خلال الظلام، - أنا... أنا «هدام». فصاح فيه أحد الزعماء، - دير بالك... بنادقنا حاضرة... ماذا تريد؟ فأجاب، - عروسي... جئت لأتحدث إلى أبيها...

وانبعث عدة أصوات تنسأل، - أي عروس؟! فصاح «هدام» - هو... هو...!! أي عروس...!!؟ أهناك غير جوهرة واحدة بين قاذوراتكم؟... أهناك غير زهرة واحدة تفتحت فوق أكوام روث جاموسكم؟... وأخذ الهمس ينتقل من فم لفم... إنه يريد صادقة.

وقف سيدي جامداً لحظة، كرجل أصم وأعمى وأبكم. ثم التفت وأمسك بندقية أحد جيرانه وأطلق النار نحو ذلك الصوت المستهتر. وتردد مع صدى الطلقة صراخ ألم. ثم توقف فجأة وأعقب ذلك سكون تام.

كذلك السكون الذي نحذره عندما يهمس القصب أو عندما تتثني مياه الهور الهادئة على شاطئ الجزيرة. وقطع السكون أخيراً خشخشة رجل يندفع خلال القصب. وصوت هدام يرتفع في صراخ حاد، - آه ابن عمي... واحتراته عليك... أقسم، أنا هدام، لأنتم من قاتلك وأخذ بئارك...

ثم سمعنا الصوت يصيح عن قرب، - اسمعوا يا كلاب «البو فهد»... لن أقبل منكم فضلاً بالنساء، إلا بواحدة... سأخذ منكم دية نقدية ولا بد أن تدفعوها الآن، في هذه الليلة... رفاقي يحيطون بقريبتكم. وسوف أستلّ روح كل كائن حي بينكم، من البشر أو من الحيوان، إذا لم تدفعوا قبل غروب القمر دية محمد... سبعون ليرة ذهب... ثم أطلق رصاصة في الماء فتطاير رذاذه في وجوهنا ونحن نحملق وراءه وهو يخفي في الظلام.

أسرع الرجال بقبول شروط هدام بلا مناقشة. فصاحوا، - موافقون... موافقون... وأخذوا يتنقلون من كوخ إلى كوخ لجمع الدية المطلوبة. وجاء كل واحد بنصيبه من الدية وهو يظهر تفرقه من فداحة ما فرض عليه.

وعندما جمع المبلغ الذي فرضه عليهم هدام، إلا قليلاً، صاح المدعو «بلاس» بأعلى صوته: أقسم بالله ويعلي نفسه أمير لقد فتشنا كل بيت فلم نجد إلا خمسين ليرة.

فصاح هدام من الجانب الآخر، سبعون... سبعون... أو نطلق النار... فصاح أولئك الجبناء سبعون، سبعون، تعال وخذها... ولكن صوته ارتفع بشتائم ثم قال هازئاً، - هل أنا ممن يوقع بهم...؟! أنتم أنفسكم... لا بد أن تأتوا بها إلي... وأضاف ضاحكاً، - الفتاة التي ستكون عروسي هي التي تحضرها لي...

وأعد قارب بسرعة وانطلق به واحد منهم يشيعه العويل والنواح. وعندما اختفى في الظلام بقينا ننتظر... وننتظر... وغلف القلق وجوهنا عندما سمعنا صوت هدام يقول، - اسمعوا أيها الشجعان... وأصغنا

أسماعنا فجاءت صرخة الموت منبعثة من داخل الهور.. لقد قتل هدام الرسول..!! وسمعنا صوته وهو ينصرف، - ها. هاي. يا بن عمه.. تعال خذهُ وادفنه تماماً.. سأتي المرة القادمة لأخذ عروسي.. ووقتئذ لن أكون وحدي..! وهكذا كان هدام وحده، لا أحد معه من أولاد عمه ولا من غيرهم.

وطلع صباح اليوم التالي ولم تبدأ الأعمال اليومية للبو فهد مبكرة كما هي العادة في كل يوم. فالجاموس بقي في مكانه، لم يأخذه أحد منهم إلى المرعى. والنساء جلسن خارج أكواخهن ينهامسن ولم يقمن بإعداد وجبة الإفطار حتى صاح فيهن بعض الرجال.

وكانت دمدمة الرجال تسمع في كل مكان وهم يتحدثون عن حوادث الليلة الماضية. وكان كل لسان يصب اللعنات. كما كان كل قلب مملوءاً بالحققد. فلا شيء أمر من أن يخدع رجل واحد قرية بكاملها وبهزاً برجالها. وأي شيء أعظم من أن يبتز رجل واحد ذهبهم منهم؟ والذهب عند رجل الهور أعز عليه من حياته.

ولم تكن لعناتهم منصبة على هدام وحده وإنما كانت أيضاً على سيدي الذي اعتبروه السبب في مصيبتهم. ويتقدم النهار أخذت مناقشاتهم فيما بينهم تتبلور على اعتبار الشيخ (غالب) أصل متاعبهم. وتغلب خوفهم وجشعهم على الاحترام والتوقير الذي احتفظوا به له في نفوسهم سنوات عديدة.

وفي الظهر جاء الزعماء من بينهم والخجل يعلو وجوههم إلى منزل سيدي. وقد خمن سبب قدومهم، ولكنه تجاهل، ورحب بهم وأمرني بتقديم القهوة.. ثم تكلم شيخهم فقال، - لقد قضينا هنا سنوات طويلة ونحن نعيش في أمان وسلم مع جيراننا. أما الآن فقد جد بينهم وبيننا سبب للنزاع والخصام. ومن سنة الطبيعة أن بكافح كل ذكر الآخر ليمتلك

الأنثى . ومع أنه من المؤلم لنا أن نرى شبابنا يعادي الواحد منهم الآخر ،
إلا أن الأسوأ يكون عندما تتعرض القبيلة نفسها للخطر عندما يأتي من
الخارج آخرون ينافسونهم عليها . . وأنت تعلم يا شيخ أننا عشيرة ضعيفة ،
نعيش بين جيران أقوياء . . ونحن قلة وهم كثرة . . وكم كنا نود أن نستمر
على حمايتك وإيوائك بيننا لو كنا أقوياء . ولكن قوتنا كالماء أمام قوة
الآخرين . . والأمر كذلك ، فالأفضل من أجل سلامتك وسلامتنا أيضاً أن
تجد لنفسك الحماية والماوى عند قبيلة أخرى تكون أقوى منا . ولا شك
في أننا سنفجع برحيلك ولكن يواسينا أن تكون في سلامة أكبر وأتم . . .

وغلى الغضب في صدري وأنا أسمع الباقيين يؤمنون على كلماته
المخجلة بقولهم - نعم . . الأفضل أن يغادروا . . معك حق يا «مطلق» . .
نحن في الواقع ضعفاء . . دع الشيخ يأخذ البنت إلى قبيلة أقوى . .

وقطع غالب عليهم دمدمتهم المزرية وقال بكبرياء ، - إن الكلمات
التي أنا مضطر إلى النطق بها تخجلني ولكنها مع أناس لا حياة عندهم
تصبح سهلة . . منذ عشرين سنة جئت إلى هذا الهور الملعون ، لا لأفتش
عن حماية أحد ولكن لأعيش فيه منعزلاً وحدي . وقد حدث أن ابتلي
جاموسكم بطاعون فكنتم في كرب شديد . . . وعندما عرفتم بعلم الصحراء
كيف تعالجونه ، ألم تتوسلوا إلي أن أنقل بيتي وأن أقيم بينكم؟ وقد
فعلت . . ومنذ ذلك اليوم وأنتم تلتمسون مساعدتي في أوقات شدتكم
وتلجأون إلي في حل منازعاتكم . . فهل حبست عنكم المشورة والنصيحة؟
وهل رفضت مساعدتكم في أوقات ضيقكم . . ؟ كنتم قبلاً تفتخرون بأن
بينكم ويعيش معكم في قريبتكم أحد الشيوخ ، شيخ بني صباح ، من قريش ،
قبيلة النبي . وكنتم تقولون لي إن وجودي بينكم قد أكسبكم على أضرابكم
نبلاً وشرفاً . . ثم أخذتم الآن تقولون إن جارنا لم يعد غنياً ، وأنه قد
أصبح ضعيفاً أمام سنين الحزن الطويلة ، وإن بيته أضحى مصدراً للمنازعات
بينكم . وأنه يبدو محتاجاً إلى الحماية والمساعدة ، التي طالما أعطاها ،

فدعونا ننتهز الفرصة ونتخلص منه... كلاب... أولاد كلاب... أنا ومن معي عرب أصيلون... لا نطلب حماية أحد ونفضل الموت على ضياع الشرف... واعلموا الآن... أنني سأبقى ما شئت حيث أقمت كوخى منذ عشرين سنة. وإذا كان وجودنا بينكم يسبب خطراً لكم فالهور واسع أمامكم... ابحثوا لأنفسكم فيه عن مكان آخر.

خيم الصمت على الجميع حتى تكلم «رويسى بن مهدي» وهو رجل أعمى ولكنه حكيم في قوله، ولكلماته تقدير عند رجال القبيلة، - وفر علينا يا غالب الكلمات المرة. فماذا يدفعك أو يدفعنا لمغادرة مكاننا ما دام مصدر النزاع بيننا سهل الحل...؟! عندما تنضج الثمرة يهبط الله لها من يتقدم لقطفها. وعندما تنضج الفتاة فإن الله يسهل لها من يقدم على زواجها... هل تنكر يا شيخ شريعة الله وتجلب عقابه عليك وعلى ابنتك...؟! إذا كنت لا تستطيع أن توفر لها زوجاً من قبيلتك الأصلية فدعها تكون زوجة لأحد شباننا... وقيلتنا والحمد لله لا ينقصها الشاب الشجاع ذوو السواعد المفتولة... أليس كلامي معقولاً يا أعمامي...؟!.

وأجاب سيدي والغضب يحتدم في صدره، - تتزوج ابنتي واحداً منكم؟! لا والله ومحمد وعلي، هذا مستحيل. وعندئذ نهض الرجال وانصرفوا. وقد سمعت واحداً منهم يقول لآخر، - على رأسه تقع.

وفي ذلك اليوم ناداني سيدي وقال، - إننا لم ندفع نصيبنا من المبلغ الذي أعطي لهدام... وحتى لا يقال إن غالباً أصبح من الفقر لدرجة أن عجز عن دفع نصيبه، اذهب يا حنتوش واستعر مشحوف جارنا «برغش» وضع فيه حصر القصب التي جدلتموها أنت وصادقة. فلا بد لنا أن نأخذها إلى النهر ونبيعها هناك...

قمت، وطلبت من صادقة أن تنقل الحصر إلى حافة الماء، بينما ذهبت أبحث عن «برغش» لأسأله أن يعيرنا مشحوفه.

وعندما وضع الحصر في قاع المشحوف جاء الشيخ وانضم إلينا . وقد جلست في مؤخرة القارب ويدي المجاذيف، بينما وقفت صادقة تدفعه بالمردى . كانت وهي تدفع المردى وترفعه ماهرة وقوية مرنة كبناات الهور الأخريات اللاتي عاشت بينهن .

وزايلنا الماء المكشوف ودخلنا في مجارٍ ضيقة تظللها من الجوانب حوائط عالية من القصب . وكان سيدي جالساً ساكناً، كما هي عادته ويتطلع إلى جمال ابنته . وكذلك كنت أنا أيضاً . فمع أنني رأيت كثيراً من النساء والبعض منهن جميلات إلا أن عيني لم تقعا على من تضاهي ظلها . . نعم . . والله وبالله إن اللسان ليعجز عن أن يصف جمال «صادقة» . فعندما كانت تلقي بالمردى إلى قاع الماء كان جسمها يتثنى كما يتثنى القصب الطويل عندما تهزه الريح . كان شعرها مجدولاً جداً خفيفاً . وكانت بشرتها نضرة كزهرة المشمش . أما عيونها فكانت سوداء كالليل ولا معة كالنجوم . . .

كان كل شيء هادئاً في الهور ونحن في طريقنا إلى النهر، عدا حفيف أجنحة الطير عندما كنا نقرب منه . وكان النسيم الرقيق لا يحمل إلينا في أنفاسه شيئاً عدا همس القصب، حتى التقطت آذاننا صوتاً نعرفه تماماً . .

كانت ضجة منبعثة عن رجل يقطع قصباً . . ! ومع أن الله خلق الناس جميعهم من طينة واحدة إلا أنه لم يصورهم جميعاً بشكل واحد . وربما لا تعرفون أنتم، يا أبناء الصحراء، أنه لا يوجد اثنان من أبناء الهور يقطعان القصب بشكل واحد . وأن أبناء الهور، بالرغم من كونهم لا يرون ما وراء القصب الكثيف، إلا أنهم يستطيعون أن يعرفوا من الصوت الذي يسمعون أنه إن كان قاطع القصب عدواً أم صديقاً . ولذلك توقفنا وأنصتنا نسمع .

سمعنا خشخشة عندما جمعه الرجل وحمله على ذراعه . كما سمعنا صوت أقدامه القوية وهي تدب على الأرض . ولم تفتنا الحركات السريعة

القوية التي صاحبت لمّ القصب وجمعه ورفع. والرجل القوي وحده هو الذي يستطيع فعل مثل ذلك. وما منا أحد إلا وعرف أنه هدام.. هدام الذي كان اسمه وحده كافياً لأن يذهل عقول رجال قريتنا في الليلة الماضية.

وبينما كان الواحد منا يتطلع إلى الآخر، قال غالب بصوت مختنق، - لنرجع. ! لنرجع إلى القرية..!!

وحقيقة قد يهتز ابن الهور الأصيل ويهرب من وجود شخص كهدام مختلف وراء القصب. ولكن أيهرب عربي من أبناء الصحراء وهو كفء لعشرة من مثله..؟!

واحمر لذلك وجه صادقة خجلاً وخزياً وعبرت عن أفكاره بقولها، - أبي.. لا.. لن نرجع حتى ننجز ما خرجنا من أجله.. إننا لم نبع حصرنا بعد، فلم العجلة..؟! ولم نبدو هكذا خائفين؟! إن قاطع القصب لا يزال بعيداً عنا. ولا يوجد مجرى آخر متصل بمجرانا هذا.. ثم.. ألسنا مسلحين يا أبي..؟!

لم يعر غالب اهتماماً لقول ابنته. وصاح في غضباً، - لعنة الله عليك.. ابن كلب.. وأخذ المجذاف من يدي وأدار رأس القارب نحو الاتجاه الذي قدمنا منه وهو يقول، - كيف تجسر على أن تتباطأ وأنا أمرك بالعودة..؟!

أخذت المجذاف منه وشرعت أجذف ثانية. ألسنت خادمه..؟ أما «صادقة» فتركت المردى وجلست في مقدمة القارب ساهمة حائقة، دون أن توجه لفظاً واحداً إلى أبيها أو إليّ. كان الخجل يغمرها كما يغمرني للسبب الذي من أجله رجعنا. وكنت أفكر بقلق في حادث الليلة الماضية. وفي شبح هدام الضخم كشيطان من الجن يهدد سلامة أحب الناس إليّ.. وكنت كلما تطلعت إلى سيدي ازداد قلقي. فقد بدا محطماً ومنطوياً على

نفسه، كرجل شاخ في شبابه، أو كرجل أصابته لوثة من الجن فأخذ يكبر في كل ساعة ما يكبره غيره في كل سنة.

وما إن وصلنا إلى القرية حتى ألفت «صادقة» نظرة سريعة على أبيها ثم غادرت القارب وذهبت إلى الكوخ. أما غالب فقد رفع رأسه وتطلع إليّ بنظرة باكية ثم قال، - هل رأيت يا حتوش...؟! فأجبته، رأيت!...؟! إنني لم أر شيئاً، وإن كنت قد سمعت هدام يقطع القصب. فقال، - أنا لا أسألك عما سمعت، ولكنني أسألك ألم تر شيئاً...؟! فأجبته، - إنني لم أر شيئاً يا عماء... فصاح في غاضباً، - أحرق... غبي... أنت لم تر شيئاً ونحن في فساد وخراب... بلى... بل وما هو أردأ من ذلك... الويل لي... والويل لبيتي... الويل... الويل...

لم أعرف ماذا يعني ولم أدر بم أجيب. فشغلت نفسي برفع الحصر من المشحوف لأعيدها ثانية إلى مكانها. ولكنه أوقفني قائلاً، بومه... غداً نأخذ الحصر إلى النهر... غداً في الفجر... نعم... غداً... وغداً سأضع نهاية لكل هذا ما دام مفتاح النجاة في يدي والحمد لله...!! ثم تركني مسرعاً الخطى إلى الكوخ...

وتبعته بعد أن أرسيت القارب في مكانه فألفيت السكون يخيم على الكوخ. فلم أسمع أي صوت من الجانب الذي تقيم فيه صادقة ولا من الجانب الذي جلس فيه سيدي. ولما أشعلت النار لأعمل له القهوة، رأيت ما لم أره في سنين النفي الطويلة. وأحسست بقلبي يتمزق حين رأيت الدموع تسح من عينيه مدراراً وتنسكب على وجنتيه. وقد لعنت عيني فيما بعد. لأنها، في الوقت الذي كان فيه مصيرنا يتقرر، كانت عمياء، فلم تر ما كانت تراه عيناه.

مرت الليلة... وعندما بدت تباشير الصباح نهضت إلى القارب فوجدت «صادقة» قد سبقتني إليه. ولما رأتني قالت، - علنا نبيع هذه

الحصر بثمانية قرانات أو عشرة يا حنتوش. فأجبتها، - إن شاء الله بعشرة... وقد قلت ذلك لأرضيها فقط. إذ كنت متشامماً منها وأخشى ألا يشتريها احد.

وعندما انضم إلينا سيدي، أقلعنا مغادرين القرية. ومرة أخرى تناولت صادقة المردى وأخذت تلقي به في قاع المجرى بضربات قوية، وأشعة الشمس تضيء عليها رونقاً وبهاءً. ووصلنا إلى مكان يتشعب فيها مجرانا إلى فرعين. أحدهما المجرى الذي سلكناه أمس والذي سمعنا فيه حركات قاطع القصب الذي بسببه رجعنا أمس محزونين. أما المجرى الآخر ويقع إلى يسار المجرى الأول، فإنه وإن كان يوصل إلى النهر أيضاً إلا أنه طويل ووعر، ولذلك كان استخدامه قليلاً. ومع ذلك فإن سيدي الذي بقي طول الوقت صامتاً قال، - إلى اليسار... إلى اليسار... أريد المرور بأیشان «أم فروخ».

حولت سير القارب إلى المجرى الأيسر... ومن يستطيع أن يقاوم تصاريق القدر...؟!.

كان الطريق طويلاً، كما كان سيرنا بطيئاً. كانت الأعشاب المائية تعوق سير القارب، وكانت ضربات المجاذيف في الماء، بسبب ذلك، (واهنة ضعيفة. ومع ذلك بقي سيدي صامتاً)، لم يطلب منا أن نغذ السير... ومن من الناس يتعجل مواراته في رمسه...؟!.

وبدا لي سيدي أنه لا يرغب رغبة صادقة في الوصول إلى النهر. وأن بيع الحصر ليس إلا ستاراً لأمر دبره في نفسه. ولقد بدت لي الحصر وهي ملقاة في بطن القارب كجثث موتى ننقلها إلى مقرها الأخير. كما كانت أصوات خشخشة القصب موحشة كنوح النائحات على موتاهن. والله إن حوادث ذلك اليوم قد كوت قلبي، كما لو كانت حديداً محمىً.

وعندما خرجنا من بين القصب المتكاثف إلى ماء مكشوف، بدا في

وسطه ايشان أم فروخ. وهو جزيرة صغيرة موحشة، لا يسكنها أحد.
وتستخدمها القبائل مقابر لدفن موتاهما.

وعندما وصلنا إلى حافتها قال سيدي، - قف هنا.. ونزل آخذاً بيد
ابنته معه وقد التفت نحوي وقال، - لا تغادر مكانك حتى أعود.. فأجبته،
- حاضر... .

ومشى الاثنان معاً يداً في يد صاعدين أكمة تستعرض الجزيرة ثم
اختفيا عن عيني عندما نزلا على جانبها الآخر. ولكن المسافة بيني وبينهما
كانت مع ذلك قريبة، كما كان الهواء ساكناً والصمت شاملاً، لا نغمة ولا
نأمة، فوصل حديثهما إلى أذني واضحاً جلياً.

وسمعت بعد فترة صمت صادقة تقول، - ماذا يا أبي..؟! لماذا
مظهرك يبدو غريباً..؟! لماذا أنت عابس هكذا وصامت..؟! دعنا يا أبي
نفرّ من هذا المكان الموحش المملوء بالقبور.. إن قلبي قد امتلأ بالذعر
منه...

فأجابها بصوت مبحوح أجش، - إنها جريمتك التي تملأ قلبك
بالذعر.. إذا امرأة دنست شرف أهلها، ما جزاؤها في شريعة آبائنا..؟
أليس جزاؤها الموت..؟! .

وسمعت صادقة تنشج نشيجاً يفطر القلب وتقول، - آه.. لا.. لا.. لا..
لا تقل ذلك يا أبي.. ولكنه قاطعها بقوله، - وفي شريعة آبائنا إذا امرأة من
بيوت الشيوخ تزوجت... بل... أو حتى رغبت في أن تتزوج رجلاً أقل
منها شرفاً ومنزلة. ألا تعتبر بأنها قد خدشت شرف قبيلتها..؟! فأجابت، -
بلى... هذا ما كنت تقوله لي دائماً يا أبي - فقال، - إذن، أنت تعرفين
لماذا أتيت بك إلى هنا الآن..؟! فصرخت قائلة، آه - أتريد أن تقتلني يا
أبي..؟! إنك لا تستطيع. أأست بهجة حياتك..؟! أأست المؤنسة لك في
وحدتك..؟! أأست العزاء لك في منفاك..؟! كيف تستطيع العيش

بدوني...؟! آه... آه يا أبي... ألسنتك...؟! اليس لحمي من لحمك
ودمي من دمك...؟!

كان قلبي يذوب وأنا أسمع صوتها تتضرع إلى أبيها وتتوسل، حتى لو
كانت قد أجمعت فعلاً، فكيف وأنا أعرفها... وأعرف أنه ما كان بإمكانها
أن تفعل ما يلوث شرفها. ولكن سيدي أصم أذنيه وقفل قلبه فلم يستجب
لتوسلاتها.

وسمعت صادقة تقول، - ألا لعن الله عجائز السوء... لقد شوشوا
ذهنك بكلامهم الأحمق، وأضاعوا صوابك بتقولاتهم الشريرة التي لا أصل
لها... فكر يا أبي... فكر في أحزانك عندما تراني أمامك جثة هامدة...
فكر يا أبي في المرارة التي تفعم قلبك عندما تقول لنفسك لقد كانت بريئة
وصدقت وشاياتهم الكاذبة فحرمتها الحياة وقتلتها بيدي هاتين... كيف
تصدق يا أبي أقوالهم الكاذبة...؟! ألا تعرف مبلغ غيرتهم مني...؟!

أجاب الشيخ، - إن كل الألسنة الثرثرة والشامته ما كانت تستطيع أن
تدنسك في نظري... ولكن...، وا أسفاه... إنني لست أعمى... إنها عيني
التي أثبتت لي جريمتك وقدمت لي البرهان...! في اليوم السابق، عندما كنا
في القارب، في طريقنا إلى النهر، وسمعنا أصوات ذلك الذي كان يقطع
القصب، كانت عيناى تراقبان عينيك. وقد رأيت فيهما بريقاً لا يضيء إلا
عندما تحب المرأة...!!

وأجابت صادقة، - ما هذا القول يا أبي...؟! أنسيت أنك كنت تشبه
عيني دائماً بمياه الغدران الصافية...؟! إن ما رأيته فيهما من ضياء لم يكن
إلا من الشمس المشرقة على مثل هذه الغدران...

وسمعت صوت غالب وصليل سيفه وهو يخرج من غمده يقول، -
ليتني كنت أحمق واهماً...! ألكوني عشت في هذا الهور الملعون بعيداً عن
أهلي وعشيرتي أخدع في هذه النظرة...؟! أنا الذي كانت تلمع لي مثلها

في عيني امرأة منذ عشرين سنة..!! هنا.. مر عليّ كل يوم بشهر، وكل شهر مر عليّ بسنة، حتى شخت قبل أواني، فكيف أنسى..؟! لقد شربت كأس الخزي حتى الثمالة ونجرت المر حتى امتلأت به.. إنني أعرف تمام المعرفة أنه عندما تشتعل نار الحب بين رجل وامرأة فإنه لا شيء يمكن أن يمنع الواحد منهما عن الآخر إلا شيء واحد.. هو الموت..!!

وسمعت صادقة تصرخ، - لا.. لا.. أرجوك يا أبي.. أبق عليّ.. أرجع هذا السلاح البغيض إلى غمده.. آه.. آه.. هدام.. إلي يا هدام.. ثم ضاع صوتها في حشرة الذبيح..

هرب دمي وكاد أن يجف في عروقي عندما سمعت هذا النداء المخجل منها.. لم يجب عليه أحد ولكن صداه استمر يدوي في أذني هدام.. هدام.. هدام..!!

وبقيت أنتظر سيدي كما أمرني، وعيناي تسح كل ما كان مختزناً فيها من دموع، حتى قاربت الشمس المغيب وأخذت ظلال الأشياء تبدو طويلة كالعمالقة. وعندما غمر الظلام الكون واشتدت برودة الجو ازدادت أعصابي توتراً. فعندما هبت نسمة حركت الهور فجأة، أحسست كما لو كانت كل شياطينه قد استيقظت وأخذت ترقص وتقفز من حولي. فملأ الذعر قلبي وأمسكت بالمجازيف مسرعاً بالعودة إلى القرية.

وفي صباح اليوم التالي كنت، ومعني نفر من أبناء القرية، في طريقنا إلى الايشان. وعندما اقتربنا منه بدا لنا شبح رجل، لم يكن سيدي، وإنما كان هدام يطل علينا بقامته المديدة. كان جسمه عارياً وملطخاً بالطين ویدماء تنزف من جراح كثيرة من جسمه أحدثها بنفسه. كما كان شعره ملبداً والشرر يتطاير من عينيه. وعندما رأنا صرخ بنا، - ارجعوا.. اغربوا.. اغربوا عن وجهي.. أنا وحدي سأدفن موتاي...

وبدت في عيني حنتوش لوعة الذكرى فتوقف فجأة. وكان البدر قد

غادر نحو الغرب واختفى، كما اختفت المشاعل التي كنا نراها في الهور من بعيد. ولم يعد يضيء مكاننا سوى جمرات هزيلة في الموقد. وخيم الصمت علينا إلا من صلصلة سلاسل الخيل أو من رغاء جمل أو آخر.

ثم قطع الصمت علينا صوت طبع القصة بخاتم الصحراء وقال، -
نعم.. لقد أحسن الشيخ...!! فخرجت أصوات جميع الحاضرين موافقة
مؤيدة.

الفصل الثاني عشر

السلاسل

استلمت رسالة مقتضبة من الحاج ركان، كتبها له كاتب القرية،
وكانت الرسالة:

بعد التحية..

إذا لم تجد أحداً ينتظرك في قلعة صالح، اذهب إلى «طرابة» بطريق
«أم حبيط». أما إذا وجدت الشخص الذي سأرسله في انتظارك هناك فإن
العشيرة تكون قد «شالت» وسيقود «جنابكم» إلى مقرنا الصيفي.. والله
يحفظكم.

لم أجد الرسول في انتظاري بقلعة صالح فأخذت طريقي إلى طرابة.
وهناك علمت أن الحاج ركان وقبيلته قد انتقلوا إلى مكانهم الصيفي. وكان
ذلك مخيباً لأملي.

فيما مضى كانت الرحلات التي أقوم بها مع الحاج ركان تتعدد
وتتكرر بسهولة. أما الآن فإنني أجدها أخذت ثقل وتصعب. وها أنا ذا
اليوم بسبب عدم مجيء الرسول، قد أضعت وقتاً طويلاً. وكان من
المحتمل أن يضيع اليوم بكامله، لولا مروءة الملاحين اللذين قبلا، عن
طيب خاطر، أن يستمرا في السفر ليلاً، في عودتنا، خلال المجاري التي
سبق أن اجتزناها. وقد قضيت الليل نائماً في المشحوف، أما البحاران فقد

قضاياه يجذفان أحياناً ويسحبان المشحوف من جدول إلى آخر أحياناً أخرى.

ووصلنا في الصباح الباكر مع شروق الشمس إلى المكان الذي نقصده. وكان مجموعة من الأكواخ تمتد في شريط ضيق بين نهر دجلة وبين أحد الجداول القادمة إليه من الهور. وأمامه، على الجانب الآخر للنهر، يقوم الحصن الطيني الذي كان في وقت ما تحت رئاسة الحاج ركان عندما كان «شاووشاً» وقد بدا الآن عراقياً يرفرف عليه العلم العراقي.

ومن بعيد لمح جهلول قاربنا مقبلاً فأسرع لتحيّتنا. وكانت تحيته تلك الابتسامة العريضة التي تكشف عن أسنانه البيضاء. وهي، وإن كانت تحية صامتة، قلبية حارة دائماً وأكثر صدقاً من تلك التعابير المزوقة التي يكررها أخوه بهلول. وقادني إلى بيت خاله دون أن ينبهني إلى حالة الكرب التي وجدته فيها. كان جالساً يحثو التراب على رأسه بإحدى يديه بينما يضرب صدره بيده الأخرى. وكان «يشماغه» ملقاً بجواره على الأرض، فبدت صلعة رأسه وقد انعكس عليها شعاع خفيف من ضوء الشمس متسلل من السقف.

عندما رأي الحاج ركان لبس يشماغه وهو ينهض مسرعاً ليستقبلني الاستقبال الحار الذي تعودته منه. وكنت راغباً في سماع كل الأخبار ومعرفة كل ما حدث خلال الأشهر العديدة التي لم ألتق به في خلالها. ولكنني لاحظت، عندما انتقل الحديث بنا إلى موضوع رحلة في الهور أقوم بها معه في بركاشه، أنه حاول مسرعاً نقل الحديث إلى موضوع آخر. وفي النهاية عندما لم يجد من رغبتني مخلصاً قال، - أرجوك. - أرجو ألا تسألني اليوم أن آتي معك. . . وسيقوم بهلول وجهلول، نيابة عني، في أخذك إلى حيث تريد. ودهشت، ولكنني لم ألبث أن عرفت السبب عندما سمعته يقول، - اليوم جاءوا ليأخذوا «الطيفة»! . . .

وأنا أعرف لطيفة معرفة جيدة.. طفلة جميلة سوداء العيين لا يتجاوز سنها اثني عشر ربيعاً. وكانت سلوة الحاج ركان في شيخوخته، إذ كانت الطفلة الوحيدة التي عاشت له وكبرت.. كان له من زوجته الحالية طفلان صغيران لا يزالان يتمتعان بعريهما أثناء لعبهما على الأرض أو في الماء! أما من زوجاته السابقات فقد مات جميع أولاده أو قتلوا في المعارك، ولم يبق منهم أحد سوى لطيفة. وليس غريباً بين العرب أن تجد الطفلة الوحيدة أكثر من إختوها تدليلاً عند أبيها..

وتبادر إلى ذهني، في بادئ الأمر، أن لطيفة على وشك الزواج وأن فراقها هو الذي يشغل كاهل الحاجي. ولهذا لم أجد مبرراً لهذا الحزن البالغ الذي أخذ نفسه به. فكل فتاة مهما تكن عزيزة على أبيها ومدللة لا بد أن يأتي اليوم الذي تغادره فيه بالزواج. ولكن الحاجي أوضح لي الأمر قائلاً بصوت باكٍ، - إنها امرأة فصل.. سيكونون قساة عليها.. وستبكي وتصرخ ولا أحد بجوارها يسري عنها.. سيرغمونها على أن تصبح زوجة لرجل لم تره، وأنا، أبوها، بعيد عنها ولا أستطيع لأمرها مرداً.

وهذه حقيقة مرة. فكل الإحن والضغائن التي تعصف بقلوب القبائل المتعادية تقع سخائمها على رؤوس النساء، وهن بريئات. ويحدث ذلك بمنتهى البساطة، كأي أمر عادي. ويندر أن تثلم هذه التقاليد المقيتة أو أن يرتفع ضدها صوت. وفيما عدا مرة واحدة، لم ألمس شعوراً ثائراً ضدها.

كان ذلك في إحدى الأمسيات وكنا جلوساً في مضيف الشيخ «فالح» ودار الحديث بنا وتطرق إلى موضوع الفصل. فصاح أحد الحاضرين، وكان شيخاً وقوراً، بصوت حائق، إنه عار.. إنه وصمة في جبين العرب أن نرغم نساءنا هكذا ضد إرادتهن..! وخيم الصمت على الجميع، بينما أخذت عيون الشيخ الثائر تتطلع في الوجوه بقلق الذي يشك في نتيجة ما فاه به. كان كمن ينتظر أن يسمع كلمة إطراء تؤيد ما قال، ولكن فماً واحداً

لم يفتح في تلك الوجوه الجامدة العابسة.. ومن يستطيع أن يغير شيئاً أو يعدل في تقاليد الآباء وعاداتهم..؟

ودخل جهلول بعد أن أعد المشحوف الذي سنستخدمه في رحلتنا. وكان وجهه يفيض بشاشة طبيعية، غير مصطنعة بددت الجو القاتم الذي يلف كوخ الحاج ركان. وقادني إلى حيث كان المشحوف مربوطاً عند حافة الجزيرة، وقد سرنني أن وجدته جديداً ونظيفاً. ثم انضم إلى أخيه بهلول وراحا يخوضان في الماء لدفع القارب إلى مدخل المجرى. وبعد أن اتما ذلك قفزا بخفة إلى سطحه.

وسأل بهلول، - «ماكو نار» فهزرت رأسي نفيًا. فإني بعد أن غبت الشهور الطويلة لم أعد أجد في نفسي الرغبة إلى الصيد بقدر ما كنت أرغب في أن ألتقط خيوط صلاتي القديمة بالهور، وأن أقضي فيه يوماً كاملاً أجوس خلاله وأحيي تلك التأثيرات السابقة التي أحدثها في نفسي جماله البالغ. كنت أرغب في أن ننزل في جداوله الضيقة التي تخفيها أسوار القصب والبردي، وأن نعبر بركة ذات المياه الزرقاء الصافية، وأن اسمع مرة أخرى همس القصب الذي لا يسكت. وهمس القصب رقيق لا يلبث الإنسان أن يعتاده ويحبه. كما أنه يعرف المرء أحياناً بالأخطار المحدقة به، عندما تستقبل الأذن معه أصواتاً أخرى.

وأخذ بهلول يقوي ضربات مجذافه ويزيد فيها ليسترعي انتباهي. وعندما التفت إليه قال، - إلى أين؟ فقلت، - كما تريد. فأجاب، - «بكيفك». فقلت، - إلى السلاسل. فأجاب، - على رأسي.. وتبينت من هزة كتفيه ومن النظرة التي ألقتها إلى أخيه أننا سنقضي في الماء يوماً كاملاً.

وكان اقتراحي ابن وقته. كنت من قبل قد سمعت إشارات مبهمة عن السلاسل. ولكن أي سلاسل؟.. أين تكون؟.. ما أمرها؟.. أسئلة ما

عرفت لها جواباً. وكل ما كنت أعرفه هو أنها توجد في مكان ما في قلب الهور. وهذا وحده كافٍ ليجعلني أقبل كل مشقة في سبيل الوصول إليها.

وكانت الشمس تدنو من كبد السماء، وأخذت زرقاء الماء تزداد دكنة، كما أخذت ألوان الأعشاب النامية تتعرض لبعض التبدل. وكان الجو ساكناً ونحن ننزلق في طريقنا، لا يقطعه إلا هبات النسيم وضربات المجاذيف. وفيما عدا ذلك، ما كان يسمع سوى همس القصب والبردي..

وانتهى النار وجن الليل ثم مضى يستغرق في حلم بفجر رطيب. وعندما أسفر الصبح وانتشرت على الكون غلاله ذهبية من جهة المشرق، بدت أزهار الهور في أبهى حللها. وبدت قطرات الندى ملتصقة بها كأنما تقبلها، وهي تتلألأ في ضوء الشمس وتنعكس منها شتى الألوان والصور. وكانت آذاننا تسمع الطيور وهي تسبح بحمد ربها هنا وهناك، بينما كانت أمامنا أسراب من دجاج الماء تجري على سطح الماء مأخوذة بحركة القارب، تبحث لها عن مأمن.

وأخذ المجري الضيق ينسع رويداً حتى تفتح إلى سطح واسع من الماء كان النسيم الرقيق يداعبه فيتلألأ وتتكون على سطحه حبات تماثل زرد الدرع، إلا في بعض مناطق كانت سطوحها مكسوة بغطاء كثيف من الأعشاب المائية والحشائش، وقد شق مشحوفنا طريقه خلالها بصعوبة كبيرة.

وأمامنا كان القصب يستقبلنا متودداً فاتحاً صدره لاستقبالنا ولكنه كان من ورائنا يتراصّ كثيفاً ويظلم، كما لو كان يسد من ورائنا طريق العودة إذا نكصنا. وفي هذا السكون الذي يلفنا، كان يرتدد بين آن وآخر صدى صراخ بعيد لبعض الطيور، كما كنا نسمع ضربات أجنحة لبعض آخر وهي تطير مبتعدة عن طريقنا. وعدا ذلك، لم نسمع شيئاً.. كما أننا لم نر أيضاً

شيئاً آخر في طريقنا سوى القصب، وكان معمرأً كثيفاً وطويلاً، كان لم تمتد إليه يد الإنسان أو أفواه الجاموس.

كانت العزلة والوحشة مطبقة أكثر مما هي في الصحراء. فهنا، وإن وجد ما لا حصر له من المجاري المائية الصغيرة التي تجتذب إليها الإنسان والحيوان، إلا أن الحشائش التي تغلفها وتغطي سطحها كانت تجعلها مغلقة في معظم أجزائها. وليس من شيء يهدي الإنسان في طريقه خلالها إلا ما يرى أحياناً من رسائل صامته يتركها أحد أبناء الهور ليهتدي بها من يتبعه إلى الطريق الذي سلكه، وتتمثل في ربط بعض القصب إلى بعضه أو ثني بعض منه. وحتى هذه الرسائل الصامته ما كانت إلا لتزيد في هذه الوحشة المطبقة.

ووصلنا أخيراً إلى أحد مراكز العمران، وكان قرية صغيرة. وعندما لمحنا سكانها انفلتوا إلى القصب ممسكين بينادقهم استعداداً للدفاع عن أنفسهم وحماية ممتلكاتهم. وكان الجاموس يتطلع إلينا بغير اكتراث. أما النساء فقد أخذن يحملقن فينا بوداعة. على أن ذلك لم يصرفهن إلا قليلاً عما كن يقمن به من جرش الأرز أو غسل الملابس وأواني الطعام ونحوها عند حافة الماء.

وبدا المشهد لنا بهيجاً بمناظره المتعددة. فالأكواخ كانت صفراء اللون تحيط بها خضرة متنوعة للقصب والحشائش الأخرى. وكانت الجواميس والمشاحيف السوداء تبدو كالأشباح تلقي بظلالها السوداء على سطح الماء. وكانت الملابس بألوانها الحمراء والصفراء الزاهية تتحرك مع النساء هنا وهناك. وقد كون كل ذلك للهور صورة فريدة بتعدد أشكالها وألوانها، فرغبت في أن آخذ له بعض صور فوتوغرافية ولكن بهلول فضل أن نؤجل ذلك حتى نصل إلى القرية الكبيرة.

وعندما نزلنا، وجدنا الأرض مفروشة بقطع من الفخار قد خبا لون

بعضها بينما كان البعض الآخر لازال يلمع صافياً كزرقة السماء . وكانت هناك قطع أخرى بأشكال وألوان مختلفة، وبينها قوالب طابوق مربعة الشكل وعليها كتابات مسمارية . وبينما أقلب طرفي في هذه المخلفات التي تكون حقلاً غنياً أمام علماء الآثار حانت مني التفاتة فرأيت امرأة عجوزاً قد تقوس ظهرها تحت عبء سنين طويلة، يقودها أحد الرجال إلى بهلول . ثم لم يلبث بهلول حتى أقبل بها نحوي . وقد لاحظت من العناية التي توجه إلى خطوها أنها عمياء . كانت منحنية تهتز من الكبر وتكابذ عناء كبيراً في مشيتها الوئيدة على الأرض . لم تكن ملامحها معبرة، كما أن وجهها لم يكن مثل الوجوه السمراء الذابلة التي نراها في عجائز القرى الأخرى . . . كانت عيناها وشفثاها باهتة لا لون لها . وبدا وجهها الشاحب، كما لو كانت كل مظاهر الحياة قد فارقت من زمن بعيد .

قال لها بهلول، - هذا هو صاحب . . . تكلمي يا أم الكل وأعطيه ما أتيت به . وتقدمت العجوز خطوة أو خطوتين ومدت يدها هزيلة معروقة تتلمس يدي حتى أمسكت بها وهي تتسائل بصوت مرتعش، - هو . . . هو «إفرنكي» حقيقة . . .؟! فارتفعت أصوات كثيرة تؤكد لها . فقالت، - خذ هذا إذن يا أفندي . . . ثم قدمت إلي ربطة مسطحة ملفوفة في خرقه من القماش، يبدو أن لونها الأصلي كان أبيض . وقالت، - كانت إرادته أن أسلمها لواحد إفرنكي . . . لواحد من جنسه . . . وها أنذا قد وفقت لطاعته والحمد لله . . . خذها، الله يحفظك ويطيل في عمرك . . . ثم استدارت عائدة وهي تكرر الدعاء .

حللت الربطة بصعوبة فوجدت في داخلها كتاباً قديماً مغلفاً بغلاف من الجلد . ويبدو أنه قد تعرض في وقت للمطر، أو ربما يكون قد سقط في الماء . فجلده كان منكشاً متقلصاً وأوراقه منبعجة وباهتة اللون إلا أن الضرر الذي أصاب الورقة الأولى كان قليلاً نسبياً . كانت تحوي صورة ملونة للكاتب في لباس يتكون من سترة زرقاء فضفاضة وسروال متفخ .

وببدأ الكتاب بالآتي :

قصة رحلات شخصية في بابل وآشور وميديا واسكيذيا في ١٨٢٤.
تأليف الماجور جورج كييل، ف. س. أ. . .

وكننت وأنا أقرأ الكلمات أسائل نفسي، كيف وقع هذا المجلد في يد
هذه العجوز من نساء الهور.؟! وما هي الأهمية الكبرى التي جعلت هذا
الكاتب المجهول يرجوها أن تسلمه لآخر من بني جنسه.؟! . .

وحاولت أن أفتح صفحات الكتاب فوجدت البعض منها ملتصقاً
بالبعض الآخر. وكانت قراءة الكثير منها عسيرة أو لا يمكن قراءته إطلاقاً.
ولاحظت أن على هوامش بعض الصفحات كتابات باهتة مكتوبة في الأصل
بحبر أخضر، وقد خطت تحت بعض منها خطوط عديدة. .

واجتذب نظري كلمة «بصورة»، وكانت مكتوبة كعنوان. وتحتها قرأت
ما يلي، المياه وفيرة. ويمكن استخدامها، بجانب ري البساتين، وسيلة
لتنظيف المدينة، ما لم تكن القذارة طبيعية في السكان. فإن «بصورة» تعتبر
في تصوري أقدر مدينة في الامبراطورية التركية. فشوارعها ضيقة غير
منتظمة وتنبعث منها روائح كريهة، لا تحتل. وبيوتها، قد بني بعض منها
بالطابوق بينما بني القسم الأكبر منها من الطين، ومنها يخرج عدد من
الميازيب، طويلة ومصنوعة من سيقان النخيل، وينتقل خلالها، من البيوت
إلى الشوارع، أنواع مختلفة من القاذورات. وينبغي للمارة أن يكونوا
متيقظين حتى لا يتعرضوا للتلوث.

وقرأت في بعض صفحات أخرى وصفاً لرحلة صاعدة في نهر دجلة.
وقد أشير في هوامشها بما يلي، - والملاح العربي من أروع من رأيت شدة
ساعد ومتانة عضلات. . . كان أحدهم يلبس رداءً واحداً فضفاضاً وخشناً
من أنسجة الجوت. . . وحتى هذا كان ينزعه عن جسمه أحياناً إذا استلزم
ذلك العمل الشاق الذي يقوم به. وعندما يفعل ذلك، كان يكشف عن

نموذج رائع لهرقل . وقد أخذت بمنظر ملاح آخر . كان شعره اشعث ولحيته كثة ويبدو في طابع تماثيل الآلهة القدماء . . . وهناك ، على الضفاف ، كان عدد النساء ووراءهن سرب الأطفال ، وقد لاحظت أن سلوكهن يختلف اختلافاً كبيراً عن سلوك النساء الهنديات . كما يختلف أيضاً ، وبصورة أكثر وضوحاً ، عن نساء «بصورة» المحجبات . فقد أقبلن على قاربنا ببساطة بريئة . وكانت تصرفاتهن تنطبع بطابع الصراحة والعفة . كن كما لو كن رجالاً أثناء معاملتنا لهن ، لولا جمالهن الصارخ الذي يتمثل في ملامحهن الدقيقة وفي سيقانهن الملفوفة وفي بشرتهن السمراء الفاتنة التي تذكر بفتنة «هيلين» . وهن ، في كل ذلك ، يفقن الكثيرات من ألمع النساء في البيئات المتحضرة . . .

وتدل هذه الملاحظات الدقيقة التي أبداها الكاتب عن الملاح العربي وعن المرأة العربية في الريف على تحقق شخصي منه وتجربة ، ولكنها ، مع ذلك ، لم تلق الضوء الذي يعرفني عليه . فأخذت أقلب الصفحات وأنتقل من واحدة إلى أخرى وأدقق في الهوامش التي انطمست معالمها ، ولكنني لم أخرج بشيء يزيدني معرفة به . وكل ما تبينه عنه أنه دقيق الملاحظة وقوي العاطفة الدينية . فكثيراً ما كان يدعم آراءه بإشارات من التوراة أو الإنجيل . وقد قرأت مثل هذه الإشارات وتحتها خطوط في كلماته عن بناء بابل وخرابها . . . دعوني أصنع الطابوق وأحرقه تماماً . . . لقد كان عندهم طابوق ، كالصخر ، للبناء ، ووحل للملاط . . . إن حوائط بابل العريضة ستدمر تماماً . . . !

تري أكان ماسونياً أم كان غيوراً على هداية المعدان ، حيث كانوا في اعتقاده يبدون ملحدين ؟ أم أنه لم يكن أكثر من شخص مولع بمقارنة نوع الحياة في التوراة بنوعها الذي كان الشرق يحياه في وقته ؟

وفي إحدى الصفحات أخذت بدقة ملاحظة هذا الرحالة المحترم

«جورج كييل» عن بعض العادات التي لا تزال تمارس في الوقت الحاضر كعادة الجلوس إلى الطعام عند رجل الهور. وقد كتب ملاحظته عن ذلك كما يلي، .. بعد أن يجلس العربي متربعا ويهندم وضع ملابسه التي يلبسها، يتقدم بوقار عربي صميم إلى العمل... يبدأ بتشمير ذراعيه. ثم يجمع من سطح كومة الأرز ما يملأ كف يده ويضيف إليه شيئا من المرق وقطعة كبيرة من الزبد. ويشكل الجميع في شكل كرة التنس قبل أن يقذف به في فمه...

كانت الشمس قد تربعت على كبد السماء وكنت منصرفاً عن نفسي إلى التأمل في صفحات الكتاب عندما أقبل نحوي شيخ وقور تدل الظواهر على أنه رئيس القرية. وحياني بعبارة الاستضافة المعروفة، باسم الله، .. ودعاني إلى منزله.

وضعت الكتاب في جيبي وسرت معه إلى كوخه في الطرف الآخر من الجزيرة. وكان الباب مقوساً وواطياً فدخلت منه منحنيًا. وبعد أن اعتادت عيناى على الظلام الذي كان يشمل داخل الكوخ وجدته بسيطاً عادياً. وفي الواقع أن الأكواخ في أنحاء الهور متشابهة بدرجة كبيرة سواء أكانت للشيوخ أم كانت للأفراد الآخرين. وبعد أن جلسنا، أخذ في إشعال النار بسرعة بالطريقة العادية. فقد جيء ببعض حشائش مشتعلة من تنور إلى الموقد. وفي الحال أخذ رجل عجوز برجله عرج يعد لنا القهوة. قبض قبضة من حبوب البن ووضعها فيما يشبه كاسة القلي فوق النار وأخذ يقلبها بسيخ من الحديد حتى تحمست تماماً. وفي أثناء ذلك كنا ننتظر والصمت يخيم علينا. ومع ما في ذلك من صعوبة فقد أخذنا نحن الأوروبيين نعتاد الانتظار الصامت. ونقلت الحبوب المحمصة إلى «هاون» ضخمة. وأخذ صانع القهوة في طحنها محدثاً صوتاً موسيقياً عندما كانت يد الهاون تصطدم بجوانبه.

وكانت ظلمة الكوخ تشتد عندما كان يسد مدخله أحد القادمين مجذوباً بصلصلة الهاون. ويحيي القادم الجالسين بقوله، السلام عليكم... ثم يأخذ مكانه في الدائرة التي كانت تتسع حلقتها كلما انضم إلينا قادم جديد. وكان الصمت لا يزال مخيماً، ولم يكن يقطع إلا صوت أحد الداخلين يرتفع بقوله،... يا الله... ويعقبه تحركات هامسة وارتفاع أصوات الجالسين متزاحمة على تحيته بقول، الله بالخير... وفيما عدا ذلك، بدأ الأطفال في الخارج يتجمعون مدفوعين بغريزة الطفولة لرؤية الزائر الغريب.

ولم أر في موقد هذا الشيخ مثل تلك المجموعة من «دلات» القهوة التي يزهو بها عادة مضيف الآخرين. فلم يكن هناك غير اثنين منها. واحدة كبيرة وكان منقارها المعقوف مكسوراً. والأخرى صغيرة، وتدل شدة اسوداد لونها على كثرة استعمالها. وفي مثل الأولى يحفظ من القهوة المعدة للاستخدام مقدار ما يستهلك منها يومياً. أما مثل «الدلة» الصغيرة فيكون احتياطياً، ولصنع القهوة الطازجة إذا دعت الحاجة. والقهوة العربية تتميز بأنها مرة لاذعة وشديدة السواد. ويفضلها العرب سواء أكانوا في الصحراء أم كانوا في الأهوار.

وقضيت وقتاً طويلاً أفكر في المرأة العجوز وفي الكتاب الذي أعطتني إياه. وأخذت وأنا جالس متربع على البساط الوحيد المفروش أقلب صفحات الكتاب وأدقق النظر في كلماته المطموسة. أقرأ هنا كلمات وصفية وأقرأ هناك بعض عبارات مقتبسة من الكتب المقدسة. وفي آخر الكتاب وقع نظري على صفحات غير مطبوعة وتحوي كتابة مكتوبة بخط يد دقيق. ومع أن الكثير من العبارات قد أصابه بلل فطمس معالمه وجعل قراءته غير ممكنة إلا أن العبارات الأخرى كانت واضحة تسهل قراءتها.

وقد أثارت العبارة الأولى التي قرأتها الفزع في نفسي. فقد كان نصها الآتي، - لما كنت على وشك أن ألقى ربي بعد ساعات قليلة فقد

رأيت ان اضع تقريراً مفصلاً عن مخاطراتي لعل فرصة طيبة تتوافر فتساعد على وقوعه في يد صديقة...

واخذت أقرأ ما يمكن قراءته من العبارات الأخرى وقد بدت لي الكلمات التي أقرأها خيالية لا يقبلها العقل. وقلت، في بادئ الأمر، لعل الذي كتبها مريض، مضطرب الذهن مشوش التفكير. ولكنني لم ألبث أن غيرت رأيي عندما تبينت لي سلامة الكتابة وتذكرت الجد والاهتمام اللذين بديا على المرأة العجوز مع العناية العجيبة التي جعلتها تحتفظ بهذا الكتاب احتفاظها بالكنز الثمين. وقرأت ما يلي، - وجدت نفسي مستسلماً استسلاماً تاماً لمصري. فلما كنت مؤمناً برحمة الله لم أخش ما يصيبني، وإن كان الخوف قد لازمني من تصوري الطريقة التي قد تتخذ للقضاء علي. كان تصوري أنهم يقومون بالإعداد لوضعي على «خازوق» أو لحرقني بالنار التي طالما عذب بها الكثيرون من شهدائنا قبل موتهم... إنني أكتب هذه الكلمات لأشغل ذهني عن التفكير. وكذلك، لأملني في أنها قد تصل بوسيلة ما إلى من كتبت اسمه على الصحيفة البيضاء...

وفي إحدى الصفحات قرأت ما يلي، - أحمد الله على أنني لم أتزوج وعلى أنه ليس وراني من يبكي علي أو يكابد المتاعب بسبب موتي. فإن الظروف الجارية وطبيعتي غير المستقرة جعلتني دائماً... بينما كنت أقوم بزيارة ودية لقبيلة تخضع لشيخ المتفك، أدهشني حدوث ضجة غير طبيعية وراء الخيمة. ثم اندفع بعض أفراد القبيلة يصيحون ويصرخون بصوت فظيع وقبضوا علي. وقد أذهلني ذلك لأن علاقتي بهم كانت قبلاً علاقات صداقة متبادلة ومودة. كانت حركاتهم الموجهة إلي تدل على كراهية شديدة. وبعد أن نزعوا مني «طبنجاتي» وصندوق ذخيرتها، جردوني من ملابسني وتركوني عارياً. ثم قيدوا يدي وقدمي وألقوا بي في قاع قارب من قواربهم الصغيرة المطلية بالقار. وأخذ القارب يسير في جداول وعرة كثيرة التعرج إلى قلب الهور الكبير. وحاولت أن أحملهم على إطلاق سراحني فقدمت لهم فدية

كبيرة ولكنهم رفضوا، وظلوا على إصرارهم على قتلي.

وقضوا يوماً كاملاً يجرون في شكل دائرة وهم بصرخون، كما لو كانت الشياطين قد مستهم، ويلوحون في الهواء بسيوفهم وحراهم. وكانت أجسامهم عارية وشعرهم أشعث أغبر منقوشاً. كما كانت تنطبع على وجوههم المخيفة شهوة الانتقام والقتل... كان الليل طويلاً ومظلماً. كما كان فظيماً فلم ينقطع خلاله صراخهم وضوضاؤهم. وما كنت أستطيع النوم رغم شدة حاجتي إليه فقد كان البعوض أفواجاً وكانت لدغاته شنيعة في جسمي العاري فألمتني ألماً شديداً. وشكري للفنائة «حليمة» لا حد له. فبينما كنت منطرحاً في يأس على الأرض الصلبة والظما يحرق جوفي، جاءت خلصة قبيل الفجر ومعها قليل من الماء ومن الطعام مثل ما فعلت «سارة» للملائكة الثلاثة... - ومرة أخرى انطمست الأسطر... ولما حاولت أن أقلب الصحيفة وجدت الأوراق ملتصقة بعضها ببعض. ورغم أنني بذلت عناية فائقة في الفصل بينها فلأنني لم أستطع القراءة في الصحيفتين التاليتين إلا بضع كلمات قليلة، - شعر أسود حالك في صفائر لامعة... عيون متألقة... شباب رائع... ولكنها طفلة بريئة... جديرة أن... حيث وكالة الإنجليزي... في... حميد خان... ألف قرش... مطالبهم الإضافية من أصدقائنا الهنود نقداً، وحقيقة، أنه من المؤكد... -

ما هي الحقيقة؟! لم أعرف مطلقاً. لأن في الصفحة الأخيرة لم أستطع قراءة غير جملة واحدة وبها ينتهي الكتاب، ونصها الآتي، وسبع باللات موجودة في «بوشير» على الخليج...

وهذا كل ما استطعت قراءته، وقد خلفني في حيرة وشك. فالقصة غير كاملة الحلقات وفي كلماتها المطموسة الكثير من الحلقات المفقودة. ما سبب الهجوم المفاجيء والعداء من رجال الهور الذين كان يعتبرهم أصدقاء له...؟! وعزمت على أن أرى المرأة المعجوز ثانية. ولكنني، لما

بدا من حركاتها، كنت أخشى ألا تكون عندها الرغبة في أن تفضي إليّ بشيء فالتفت إلى جاري في الكوخ وسألته عنها فأجاب، - إنها حليلة العمياء.. إنها عجوز تقدمت في العمر...

حليلة العمياء..؟! أأتكون هذه العجوز الشمطاء تلك الفتاة حليلة التي تحدث عنها الكاتب المجهول ووصف جمالها.. عيون متألقة وشعر أسود فاحم في ضفائر لامعة. وناديت جهلول وسألته أن يأخذني إلى الجزيرة التي يقوم عليها كوخ حليلة العمياء.

وأخذت أتصور مواطني المجهول وهو يقوم بزيارة ودية لإحدى هذه القرى، بينما كان القارب ينزلق بنا متعرجاً بين الأكوام الصغيرة التي تقوم عليها أكواخ السكان. وكانت المناظر التي مررنا بها عادية. بعض الرجال يشققون القصب وينسجون الحصر، وبعض المشاحيف الخفيفة تشق الماء من جزيرة إلى أخرى، وبعض الجاموس ينث من خياشيمه نحونا زفيراً مشبعاً بقطرات الماء. ولعل هذه المناظر لا تختلف عن تلك المناظر التي واجهها صديقنا المجهول في يوم مصيره التعس منذ نحو مائة سنة. وربما كانت الأصوات نفسها، أصوات الأطفال المرححة وأصوات «المجارش» وهي تجرش الأرز، وما تحدثه تحركات الجاموس، قد ضيعت عليه همس القصب وهو ينذره ويحذره. ومن يدري...؟ ربما كان صديقنا لا يفهمه بالقدر الذي أصبحت أفهمه الآن عندما أسمع، بعد أن قرأت مقتطفات هذه القصة الغريبة...

وقف القارب بنا وقفز منه جهلول يركض إلى أحد الأكواخ. وبدا لي أنه يجد صعوبة في إقناع المرأة العجوز بلقائي ثانية. فقد كنت من مكاني أسمع كلماته التي يحاول إقناعها بها. كما كنت أسمع كلمات تنم عن اعتراضها. وأخيراً قبلت فتقدمت للقائنا.

ووقفنا معاً أمام باب كوخها. وبدا لي وجهها المغضن وبصرها

الكليل شيئاً عادياً وليس منفراً كما خلته عندما قابلتها أول مرة. وسألتها عن صاحب الكتاب فأجابت بصوتها الواهن، - لا أعرف اسمه. . . وقلت ماذا تعرفين عنه فأجابت، - لا أكثر من أنه كان صديقاً لعشيرتي كما كانت عشيرتي صديقة له. وبدا لي من صوتها أن الحياة قد دبت فيه أكثر من ذي قبل فسألتها، كيف مات؟ فأجابت، - مات؟! . . . إنه لم يموت. . . ! أنا التي كابدت ما هو أمر من الموت. . . ويللي. . . ويللي على عيني. . . إن «الطنطل» كان قد ترك قمقمه في ذلك اليوم. ثم توقفت عن الحديث ورفعت رأسها تتطلع نحوي ببصرها الكليل فحمتها على الكلام بقولي، - نعم. . . فبدأت تتحدث بصوت أكثر وضوحاً كما لو كانت الذكريات القديمة قد أخذت تستيقظ في نفسها، وقالت - يا أفندي، سأخبرك بكل ما أعرفه على ألا يضايقني أحد بعد الآن. فأنا لا أعرفك من قبل كما أنك لا تعرفني. لقد قمت بما سألني أن أقوم به فأعطيت ما أعطانيه إليك لأنك من بني قومه. وأنا الآن امرأة عجوز وعمياء، ولكنني مع ذلك سأقول لك كل ما يمكنني قوله. ثم جلست على الأرض فجلست بجوارها.

وقالت، - ليكون معلوماً لجنايبكم أنه بالقرب من «أبو صغير» يوجد ايشان آخر صغير ولا اسم له. وهو مهجور، لم يسبق لأحد أن أقام عليه كوخه أو دفن في تربته موته. وذلك لما هو معروف عنه بأنه للطنطل. فهناك تقيم تلك الأرواح الشريرة ولا تغادره أبداً إلا في الأيام الساكنة. لأنها تخشى إذا هي غادرت أماكنها وهبت الريح ألا تستطيع العودة إليها. . . !

وفي ذلك اليوم. . . منذ مائة سنة. . . لا. . . وحياة ابن أبي طالب أكثر من مائة سنة، كان الجو حاراً وثقيلاً ولا ريح فيه. فخرجت الشياطين من أماكنها وجاءت إلى جزيرتنا وتقمصت أجسام الرجال فسلبتهم عقولهم وإرادتهم حتى أصبحوا لا يدركون ما يفعلون. . . وحدث أن جاء في نفس ذلك اليوم من نتحدث الآن عنه لزيارتنا كما هي عادته ليتحدث مع عمي

ويشرب معه القهوة. ولكن غضب تلك الأرواح الشريرة حل به فاندفع الرجال إليه وحملوه معهم إلى مقرها في الهور.

وفي الليل أقاموا «هوسة» زادتهم شراسة ورغبة في الدم فقرروا قتله في الصباح المبكر. وأخذوا يجمعون الوقود من القصب والبردي ثم سحبوه من الكوخ الذي كان ملقى فيه عارياً ومقيداً وربطوه في صاري إحدى السفن «الدنك» وأخذوا في إشعال النار. وقد أخذتني الشفقة عليه فعزمت على أن أنقذه. فتسللت متخفية في سحب الدخان وقطعت قيوده وقلت له اذهب اختف في القصب حتى يذهب خيالهم. وقررت أن أنظر حتى يختفي ثم أصرخ لأرضي «الطنطل». ولكن صراخي لم يكن مصطنعاً فقد شبت في النار وعلقت بملابسي وبشعري فجريت أصرخ وألقيت بنفسي في الماء... ثم لم أعد أرى بعد ذلك شيئاً... لقد أصبحت عمياء... يا علي يا عظيم من هول ذلك اليوم...

أخذ صوتها يتحول إلى نحيب بينما كانت تضرب رأسها بيديها النحيلتين... وبدأت لي القصة التي قرأتها صحيحة بعد أن أيدتها شاهدة الرؤية هذه. وأخذت أسائل نفسي تفسيراً لذلك الخبل المفاجيء الذي أصاب رجال الهور نحو ذلك الزائر المجهول. هل يمكن لإنسان يعيش في القرن العشرين أن يقبل القول بتقمص الأرواح الشريرة...؟! ترى أتعني العجوز حقيفة ما قالت...؟! أم أنها قالت ما قالت على سبيل المجاز...؟! وفي الواقع، لقد سمعت الناس كثيراً يتحدثون عن الطنطل وغيره باعتبارها أرواحاً شريرة مجنونة يرهبها كل سكان الأهوار. وفي مرة من المرات اعترف لي أحد معارفي من الشيوخ وهو يهمس بصوت واطي بأنه سمعها وهي تضحك...؟

كانت حليلة العمياء تبكي وتندب حظها العاثر وتقول، - ويلي... ويلي... لقد قدمت عيوني فداء له ولكنه لم يعد... ولقد انتظرتة...

انتظرتة سنين طوالاً دون جدوى...! وما أناذا قد أصبحت الآن عجوزاً عمياء... وأخذ صوتها يخفت حتى سكنت. وحاولت أن أقطع الصمت فألقيت عليها سؤالاً ولكنها لم تجب... ويبدو أنها كانت غارقة في ذكريات شبابها فقد سمعتها تهمس: لا... لن يعود...!

لعل بطل القصة قد نجا من الموت المريع الذي كان معداً له وشكر لها في نفسه صنيعها، دون أن يدري بالثمن الكبير الذي دفعته في سبيله. ربما هذا ما حدث. وربما أنه بعد أن نجا من ذلك الموت لقي موتاً آخر كان ينتظره في ثنايا الهور. لا أحد يدري بالضبط ما حدث، فالهور ما زال محافظاً على بقاء السر مكتوماً.

وعندما استيقظت حليلة من استغراقها نهضت واتجهت نحو كوخها وقد سمعتها تغمغم قائلة، - اذهب وليحفظك الله في طريقك.

ونهدت أنا أيضاً والكتاب في يدي واتجهت نحو المشحوف. وتطلع إليّ جهلول وسأل، - إلى السلاسل؟ فرفعت وجهي نحو الشمس وقد علت عرش السماء وقلت لا، إلى النهر.

كان الحاج ركان جالساً وراء خيمته وأمامه «القواطي» التي يحفظ فيها مواد تجارته. وبدا كما لو كان يقوم بجردها وأن النتيجة التي وصل إليها لم تكن مرضية. فقد كان يتأفف وأنا مقبل عليه. وعندما رأي، نادى زوجته وطلب منها أن تنقل القواطي. ثم أفسح لي بجانبه مكاناً، وقال، - الله كريم وتقوم الحرب قريباً مرة أخرى...! في هذه الأيام لا توجد نقود في كل البلاد، وقد ظهر الآن صدق كلام الناس عن النقود التي أنفقها الإنجليز في أثناء الحرب. إنها كانت تكفي لسد نهر دجلة في وقت الفيضان...! أما الآن فقد أصبح كل الناس فقراء كما أصبح كل شيء مرتفع الثمن، حتى «الأفندي» الذي كان يرتشي بعشر «قرانات» أصبح لا يقبل إلا عشرين...! ثم أضاف قائلاً، - ما الفائدة من هذه الحكومة

المزدوجة...؟! هل يرجى خير من «البزرميط»...؟! فأجبت أنا قائلاً، - إن البغل كثيراً ما يؤدي خدمات لا يستطيع الحمار أو الحصان أن يؤديها. واستدرك الحاجي وقال، - حقاً... حقاً... إني أخرف... لقد تغير العالم، والناس كلهم قد أحسوا بتغير الأوضاع. فالآن يستطيع الإنسان أن يمشي من البصرة إلى بغداد وعلى رأسه سلة مملوءة بالذهب دون أن يتعرض له أحد. وكان الشيوخ، في الماضي، يشورون ضد الحكومة فأصبحوا الآن يضعون أوامرها على رؤوسهم ويطيعون. وماذا يكون غير ذلك ما دامت طائرات الإنجليز تملأ السماء. وختم حديثه قائلاً، والله إن الإنجليز أقوياء ولكنهم لم يبقوا قائمين على العدل.

لم أستطع أن أدع هذا الاتهام يفوت بسهولة، فأخذ الحاج ركان يدافع عن ادعائه وهو يقول بمرارة، - إذا اقتلع إنجليزي عيناً لأحد الأعراب فإن هذا الأعرابي يبقى مع ذلك يفضل على من هو من بني قومه من أهل المدن...!! ونحن لا نتضايق كثيراً إذا أطعنا أمراً غير عادل صدر من إنجليزي، بينما نتضايق إذا اضطربنا لإطاعة أمر مماثل من مأمور عربي...!! ومع ذلك، بفضل الإنجليز علينا دائماً أهل المدن...! أصغ إليّ، إذا زارنا مأمور لا يتجاوز راتبه ٢٠٠ روبية فإن مجيئه وذهابه وتوفير راحته يكلفنا ما تكلفنا به زيارة المندوب السامي نفسه...! رجل الشرطة يطلب فراشاً من صاحب البيت، وإن لم يكن عنده غير فراش واحد ينام عليه، وإذا رفضنا مزق شارته وقال، عند رجوعه، انظروا ما فعله بي رجال القبيلة، فتحل تبعاً لشكواه العقوبة بنا. إن الإنجليز أقوياء ويستطيعون، إذا أرادوا، منع هذه الأشياء. أما نحن فإنهم يمنعوننا إذا أردنا أن نؤدي واحداً من أهل المدن بسبب غطرسته. والله وبالله، إن مثل هذه المعاملة تحدث لنا يومياً ولكن الإنجليز يغمضون عيونهم عنها. وإذا نحن أبدينا مجرد تهور نحوهم فتحوا عيونهم على سعتها نحونا... أهذا عدل؟!

إن العداء قديم وتقليدي بين أبناء القبائل سكان القرى وبين أبناء

المدن. وهو واضح هنا في الهور بمثل ما هو واضح في كل مكان آخر في العراق..

وأخذت أفكر في القوة الإنجليزية الصغيرة الباقية في العراق والتي يلعبها أهل المدن يومياً لمحabbاتها القبائل على حسابهم. ولم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك بصوت عالٍ عندما تصورت الدهشة التي نصيب أهل المدن لو قدر لهم أن يسمعوا ما قاله الحاج ركان. وقد ضحك الحاج ركان أيضاً فلفظ ذلك من الحدة التي كانت بادية في حديثه قبل أن يضيق، - إنها عدالة غريبة..! ولكن عدالة الأتراك أغرب..! ثم التفت نحوي وقال، هل أخبرتك بقصة القاضي «الحجل» الأربع فأجبت، لا. فقال، - اسمع، فأقصها عليك..

بينما كان «كبابجي» يدعى مصطفى عند «كبابه» في السوق جاءه رجل ومعه أربع من الحجل وقال له، - اشوها لي وهاك الأجر. ولم يمض وقت طويل على شئها حتى أقبل نحوه القاضي ولما رآها اشتهاى أكلها، فقال لمصطفى، ابني.. بعني هذا الحجل. فقال مصطفى، عمي.. إنها ليست لي.. إنها ملك لشخص أعطاني الثمن لشئها. ولم يكذب القاضي. ولكن بالنظر إلى أنه رجل عظيم والناس تهابه فقد رضي مصطفى أن يذهب بها إلى بيته. وعندما وصل إلى البيت سأل القاضي، - عمي.. إذا جاء صاحبها ماذا أقول له؟ فأجابه القاضي، - قل، طارت..!. وعلى ذلك، فإنه لما عاد الرجل يطلب حجله قال له الكبابجي، - طارت. فأجابه صاحبها، طارت..!. أنطير من «الشواية»..!!؟ وأخذ يضرب مصطفى وهو يسحبه إلى القاضي.

وفي الطريق تملص مصطفى من يده وأخذ يجري هارباً فاعترضه حمار يحمل على ظهره قربة ماء. فحاول أن يدفعه جانباً ليلخي طريقه منه ولكنه لم يتمكن. ولما وجد نفسه يوشك أن يقع تعلق بذيله فانقطع الذيل

في يده..! وزاد في سرعة عدوه وفي أعقابه يعدو صاحب الحجل والسقا. وبلغ في عدوه خائناً يقع في إحدى الضواحي فدخله وصعد إلى سطحه وهما وراءه. وأراد أن ينقذ نفسه من الوقوع في أيديهما فقفز إلى فناء الخان. ولكن سقوطه جاء على رأس صاحب الخان فقتله. فاندفع أخو القنيل إلى باب الخان وقفله وبذلك أمكنهم أن يقبضوا على الكبابجي وأن يذهبوا به إلى القاضي. وكان القاضي هو نفس القاضي ولا تزال في معدته بقايا من الحجل الأربع. وقال صاحب الحجل، - كان عندي أربع من الحجل فدفعتها إلى هذا الكبابجي لشيئها وأعطيته الأجر. وعندما عدت لآخذها منه قال، طارت.. ورد عليه القاضي بقوله، - أليس الله قادراً على كل شيء؟ وطبيعي أن صاحب الحجل لا يستطيع أن ينكر ذلك، وإلا اعتبر كافراً وحكم عليه بالسجن خمس سنوات. ولهذا أجاب، - نعم، الله قادر على كل شيء. فأجابه القاضي، - إذن فإنه قادر على أن يجعل حجلك يطير، فلم تزعج هذا الرجل؟ وحكم عليه بخمسة من مجيدي غرامة. وتقدم بعده أخو صاحب الخان المقتول بشكواه وقال، لقد قتل مصطفى أخي بقفزه عليه من سطح الخان. فقال القاضي، - بحسب القانون، السارق تقطع يده والقاتل يقتل، فاقفز أنت من سطح الخان على الكبابجي واقتله. فرد الشاكي مأخوذاً وهو يقول، أنا؟! الله يطول عمرك.. إذا أنا فعلت ذلك قد أقتل أيضاً.. إنني أسحب الشكوى. فغرمه القاضي خمسة من عملة «المجيدي».

ثم التفت إلى السقا الذي كان يحمل في يده ذيل حماره وسأله وأنت ما شكواك؟ ولكن السقا، الذي رأى الغرامات تفرض على سابقه، أجاب وهو يروح على وجهه بذيل حماره بديني وإيماني ما أنا إلا متفرج..

وختم الحاج ركان قصته بقوله، - أستغفر الله، لقد تحدثت كثيراً.. إن فمي لا عظم فيه ولذلك فإن لساني يتحرك كما يشاء..

الفصل الثالث عشر

حرق بيت حاتم

وصلتني قصة «بيت حاتم» من مصدرين، أحدهما «عثمان بك» مدير الشرطة، عندما كان راقداً في المستشفى وابتسامته الرقيقة تختلط فيها مرارة الألم بمرارة الفشل. أما المصدر الآخر فكان السيد «عجيل» وقد جلس وأصابه الطويلة تتحرك بعصبية على أطراف شعر لحينه وهو يقص عليّ حوادث تلك الليلة المحزنة.

في كل بلد من البلدان الإسلامية يوجد كثيرون من آل بيت رسول الله يعيشون فيها عيشة هادئة مستقرة، يعرفهم الناس ويبجلونهم. ومن بينها عائلة الشيخ عجيل التي كانت تعيش، منذ أجيال مضت، في ايشان ناء في داخل الهور.

وفي يوم من الأيام كان الحاج ركان يجذف بنفسه في مشحوف محمل ببضاعته التي يتاجر بها مع السكان، ووصل مع المساء إلى «أم كوسج» ليتاجر مع بيت الشيخ عجيل. وهناك استقبل استقبالاً حاراً ودعي لقضاء الليل في ضيافة السيد.

وكان الظلام قد خيم ووقف صوت الإنسان والطير عن أن يتردد صده، كما توقف نقيق الضفادع أيضاً وأطبق الصمت على الايشان. وفجأة استيقظ النائمون في الكوخ على صوت الحارس يعلو صائحاً، - من

هناك؟. كما سمعوا صوتاً آخر يجيب من الظلام قائلاً، - أنا عثمان بك.. .
أريد السيد عجيل... السلام عليكم. فأجابته عدة أصوات ناعسة، وعليكم
السلام. وهذا الروح بهذه التحية.. .

وأسرع السيد عجيل إلى حافة الماء. وقد تغلبت فيه الدهشة والفضول
على الخوف. وكان يسائل نفسه مما يريد منه مدير الشرطة في مثل هذا
الوقت المتأخر من الليل. وازدادت دهشته عندما رأى في ضياء الشعلة خطأ
لا نهاية له من المشاحيف يتلو البعض منها البعض الآخر. ويحمل البعض
منها رجالاً من الشرطة بينما يحمل البعض الآخر رجالاً من قبائل لم تسبق
له بهم معرفة من قبل. وبدوا كلهم مجهدين قد أخذ منهم التعب. وعندما
قبلوا ضيافة السيد عجيل أسرع بعض رجاله يعدون لهم الشاي والقهوة.
وتقدم عثمان بك وإلى جانبه الشيخ «جاسم» صاحب مزارع الأرز التي تقع
على مسافة أميال عديدة نحو الشمال. فاستقبلهم السيد عجيل وقادهم إلى
منزله حيث قدمت لهم الضيافة المتعارفة. وفي أثناء ذلك عرف السيد
السبب في هذه الزيارة المفاجئة. كما عرف أن رجال القبائل الذين حملتهم
بعض المشاحيف هم من أتباع ذلك الشيخ.

عرف أن السبب يرجع إلى الأعمال الشريرة التي تقوم بها عصابة من
الخارجين على القانون، سرى خبرها إلى السيد كما سرى إلى غيره من
سكان الهور. وقد ازدادت أعمال هذه العصابة جرأة وتمرداً على النظام
وخروجاً على القانون. وارتكبت العديد من الجرائم دون أن تصل إليها يد
العدالة، حتى أقدمت على قتل أحد الشيوخ الكبار، فقررت الحكومة
القبض على أفرادها وجعلهم عبرة لمن يعتبر.

وقد عرف بأن زعيم هذه العصابة يدعى «بندر بن رهيح». كما عرف
بأنه قد لجأ مع عشيرته «بيت حاتم» إلى قلب الهور موغلاً فيه، مؤملاً أن
يكون قد ابتعد عن أن تصل إليه يد العدالة، دون أن يعمل حساباً لعثمان

بك مدير شرطة العمارة. وعثمان بك موظف غيور، وقد شعر بأن مواعبه ومؤهلاته قد مضت عليها مدة طويلة دون أن تدلل على نفسها فأمسك بهذه الفرصة. فإنه إذا استطاع أن يقبض على هؤلاء اللصوص فإن الترقية ستكون بلا شك في انتظاره وربما صحبتها الشهرة أيضاً. ولهذا قام بوضع خطته سرّاً وبعباية كبيرة. وعندما كان جالساً في كوخ السيد عجبل كان يبدو له نجاح خطته قاب قوسين أو أدنى.

وكان اعتقاده يقوم على اعتبار أن بيت حاتم قد اطمأنوا وظنوا أنفسهم في أمان بهربهم إلى قلب الهور. وقد علمت التجارب المريبة عثمان بك أن السرعة العجيبة التي تنتقل بها الأخبار في الشرق تنتقل بها كذلك أخبار الهجمات الحكومية على القبائل المذبذبة في الوقت المناسب فيتيسر لها الوقت بهجر أماكنها والهرب إلى إحدى الجزر المجهولة في داخل الهور. وعندما تشعر بالخطر يهددها تقيم من أبنائها حراساً عند منافذ الطرق الموصلة إلى النهر وعند مفارق الطرق الموصلة إليها. وبذلك يطير الطائر قبل أن تلقى عليه الشباك.

وراعى عثمان بك هذه الاعتبارات فاتخذ لنفسه خطة جديدة. فبدلاً من أن يأتي بطريق النهر فكر في أن يقوم بدورة طويلة في داخل الهور تستغرق يومين كاملين وتنتهي بالسيطرة على مخارج الجداول التي يمكنهم الهرب منها. ووضع في اعتباره أن نجاح الخطة يتوقف على الاحتفاظ التام بسريتها.

وبدأ خطته الماكرة بأن قام علناً باستعدادات كبيرة حتى عرف كل من في المدينة الكبيرة وكثيرون غيرهم من أهل القرى بأن عثمان بك يعد حملة قوامها ثلاثون جندياً إلى الهور. وهذا العدد أكبر مما أمكن توفيره من قوته الصغيرة. وأخذ، بعد أن وضع تصميم الخطة، بعد خرائط ويستدعي مرشدين ويستعير مشاحيف من شيوخ الشلب. وأطلق شائعات تنتشر بأنه

تلقى تعليمات من الحكومة بأن يعد حامية لحراسة جماعة من المسلحين والخبراء تقوم بتفقد الحدود العراقية - الإيرانية التي وضعت في ١٩١٤.

وهكذا رأى الناس في صباح مبكر لأحد الأيام خطًا طويلًا من المشاحيف يشق طريقه في قناة «الكحلاء» ومزوداً بمعدات المسح من أعلام وعصي وزناجيل ونحوها.

وحاول عثمان بك أن يظهر الرحلة بمظهر الرحلات الحكومية العادية فتوقف عند قرية الشيخ جاسم وقبل ضيافته بتناول طعام الغداء عنده. وبينما الجميع في تناول الطعام بدا على الجانب الآخر للقناة خيال وأعلن أنه يحمل رسالة إلى مدير الشرطة، فأرسل إليه مشحوفاً لنقله ورأى كل الحاضرين في مضيف الشيخ مظروف البرقية الأحمر فتعلقت جميع الانظار بعثمان بك وهو يفضها.

وبدا للجميع أن ثمة أخباراً غير سارة. فإن ملامح المدير المرححة أخذت تختفي تدريجياً وهو يتقدم في قراءة البرقية ويحل محلها العبوس، كما أخذ يسب ويلعن. . وغرق بعد ذلك في صمت، وبدا كما لو كان يفكر في أمر محزن. وأخيراً التفت نحو الشيخ جاسم وسأله أن يسمح له بالاجتماع معه في خلوة خاصة، فأرسل الشيخ من يحذر حريمه بقدوم زائر غريب. ثم قاد عثمان بك إلى غرفة خافتة الضياء وجلسا على أحد المقاعد الخشبية الممتدة بطول حوائطها.

وأخذ عثمان بك يفضي إلى الشيخ، جاسم بأسراره قائلاً، - إن بعثة الخبراء والمباحين التي هو وجماعته في طريقه إليها قد وصلت منها إلى السلطات أخبار تفيد بأنها استقبلت استقبالاً عدائياً من قبائل الحدود. وقد طلب إليه في البرقية أن يصطحب معه قوة أكبر من هذه التي أعدها. ولما كان لا يستطيع التأخير كما أنه يخشى التقدم بقوته الصغيرة فإنه مضطر بالرغم منه لأن يسأل الشيخ جاسم أن يزوده بمائة من رجاله كقوة مساعدة.

ولم يكن مثل هذا الرجاء مما يسر الشيخ. فقد كان شاكياً منهياً، غير
جسور. ووصل إلى مركزه هذا بعد أن احتل الإنجليز العمارة. ولم يصل
إليه، كما هي العادة، بشجاعته وماضيه المرموق في الغزوات والحروب.
فكان إرساله مائة من رجاله في حملة حربية إلى قلب الهور، وضد عدو لا
يعرف شيئاً عن مبلغ قوته، وراء كل رغباته. والأمر من ذلك أن يطلب إليه
قيادة رجاله بنفسه.

ووجد الشيخ نفسه في معضلة عويصة الحل. فقد كان يرى أن مائة
من رجاله عدد لا يكفي لأطمئناته على حماية شخصه، وأنه إن رفض اعتبر
معادياً للحكومة. وقد وجد الحل المناسب في أن يضاعف عدد رجاله. !

غادر عثمان بك قلعة الشيخ جاسم راضياً نعلو الابتسامة شففيه. فقد
كانت البرقية مفتعلة، كتبها بخط يده قبل أن يغادر العمارة، وأمر بأن ترسل
وراءه. وقد أتت بنتائج فوق ما كان يؤمل. فلم يخامر أحداً الشك في
مقاصد رحلته. وفضلاً عن ذلك، زادت قوته عدداً وأصبحت أوفى بالغرض
الذي قام من أجله.

ومضى بقية اليوم في جلب المشاحيف وفي جمع الرجال الذين
يكونون فرقة الشيخ. وفي الصباح المبكر لليوم التالي أمر عثمان بك
بالرحيل متخذاً طريقه نحو الجنوب الشرقي إلى «أبو غصبة» إحدى الجزر
الكبيرة في وسط الهور. وعندما وصلوا إليها وجدوها خالية من السكان
فقرروا قضاء الليل فيها على أمل أن يلتقوا بفرقة المساحين في اليوم
التالي. وكان ذلك كله تمثيلاً. فإنهم ما كادوا يصلون إلى أبي غصبة قبل
غروب الشمس حتى انتحى عثمان بك بالشيخ جاسم جانباً وأفضى إليه في
كلمات قليلة بالغرض الحقيقي من الرحلة. ليست هناك بعثة كشفية وهم
ذاهبون لحمايتها، وليست هناك قبائل معادية عند الحدود. وإنما الغرض
الحقيقي هو حصار بيت حاتم والقبض على بندر بن رهيح حياً أو ميتاً.

وأنه لهذا السبب طلب مساعدة الشيخ جاسم . كما أنه يجد نفسه مضطراً لأن يأمر بالرحيل في الليل . لأن الليل وحده هو الذي يستطيع أن يخفي غرضه ويؤمنه من رسائل التحذير التي يرسلها كل قاطع للقصب وكل راع للجاموس .

وعندئذ دب الحماس في نفس الشيخ جاسم وأخذ يبدي اهتمامه بخطة عثمان بك ويتساءل عما إذا كان مدير الشرطة سيقود بنفسه قوته خلال المسالك الوعرة في الهور أثناء الليل؟ وإذا فعل ذلك، وحدث القتال في ضياء الفجر الباهت، هل يستطيع رجال الشرطة أن يميزوا رجاله عن رجال بيت حاتم الذين يقاتلونهم؟ فأشار عثمان بك إلى رجل مقطوع اليد وقال: إن شومان مشهور في الهور بأنه أمير لصوص الجاموس . ولما كانت الحياة غالية كحياة شومان في شبابه فإنه كان يعتمد في كسب معاشه على السرعة وهو ينساب في مثل هذه المسالك الوعرة في ظلام الليل .

وأرضى هذا القول الشيخ وأقنعه بحسن اختياره عثمان بك لمرشده . . كما أرضاه أن أمر اليك، منعاً للخلط بين رجاله وبين رجال بيت حاتم، بتوزيع الأعلام المجلوبة للرحلة الكشفية الوهمية عليهم . وبعد هذا أمر رجاله بركوب المشاحيف .

ونسي الرجال تعبهم وشغلوا بأمر المعركة المنتظرة . فأخذوا يجذفون بنشاط وراء قارب القيادة، قاصدين «أم الكوسج» مقر آل السيد «عجيل» . وكان خط المشاحيف الطويل ينساب بسكون بين القصب القائم على جانبي المجرى، بينما أخذ غروب الشمس يسلب الهور ألوانه الزاهية ويخلف وراءه لوناً رمادياً شاحباً كأنه لون الرجل الذي يحتضر .

وكان خط المشاحيف لا يزال ينساب خلال المسالك المائية بينما كان الظلام ينشر خيامه السوداء . وعندما اشتد الظلام بدا من الصعب جداً على مرشد ماهر «كشومان» أن يميز الطريق . فكثيراً ما كان يتوقف . وأحياناً

كان يخطيء، فيضطر الرجال إلى النزول إلى الماء وسحب القارب والمشاحيف خلال القصب من مجرى إلى مجرى آخر. وفي أثناء ذلك كله كان الركب يتبع الواحد منه الآخر مهتدياً بضربات المجاذيف وبقطرات الماء المتطايرة عنها.

وكان شومان يجثم في مقدمة قارب القيادة متلصصاً، يتلمس معالم الطريق بين آن وآخر. وقبيل الفجر بنحو ساعتين، وبعد ساعة واحدة من الوقت الذي حدده «عثمان» بك في خطته للوصول، التفت شومان نحوه وهمس قائلاً «أم الكوسج». فنهض «عثمان» بك فرأى أمامه كتلة من الظلام أشد سواداً من ظلام الليل. وكانت قرية السيد «عجيل».

وفي مضيف السيد «عجيل»، أخذ «عثمان» بك يروي قصته بينما كان جميع الحاضرين يصغون إليها بأنفاس مبهورة. وكان «عثمان»، كمدير للشرطة، يتباهى بالخطة الحكيمة التي دبرها وبالنتيجة المدهشة التي وصل إليها. وكيف أن النجاح في خطته قد أصبح في قبضة يده. فقد قطع أصعب مراحلها وأصبح على دقائق قليلة من هدفه. وبعد أن ينال رجاله قسطاً قليلاً من الراحة، يقع «بيت حاتم» فريسة بين يديه.

وقبل أن يتميز الخيط الأبيض من الخيط الأسود قاد «عثمان» بك رجاله لمحاصرة قرية «بيت حاتم» حتى يقطع عليهم أي طريق للهرب. وكان السيد عجيل في وداعهم حتى اختفى آخر مشحوف عن نظره. وعندئذ التفت نحو ابنه، السيد «محسن» وقال - سيكونون جائعين عند عودتهم... ليعد كل بيت خبزاً وطعاماً... واشتر قهوة وشايًا وسكرًا، حتى يكون كل شيء معديًا. ومن حسن حظنا أن جاءنا اليوم الحاج «ركان». ولكن الابن أجاب، - لقد ذهب الحاج ركان... فتساءل الأب فرعًا، - ذهب...؟! متى...؟ فقال الابن، - نعم. منذ ساعة. وأخذ يقص على أبيه كيف أنه بينما كان «عثمان» بك غارقاً في قصته انسل الحاج ركان خارجاً ولم ينتبه

إلى خروجه أحد. ولكنه هو لاحظته وتبعه إلى الشاطئ ورآه يمشي ذاهباً
آيياً أمام قاريه. كما سمعه يتمتم، - ماذا أعمل...؟ أنا رجل عجوز... أنا
خائف... فتقدم إليه وسأله عن سبب خوفه، فقال - أنا خائف من رجال
«عثمان» بك. إنهم بعد أن ينتعشوا بشرب الشاي سيجيئون إليّ في القارب
ويقول بعضهم أعطني من تبغك ويقول آخرون أعطنا بعض التمر أو بعض
الحلوى... أليس هذا سبباً وجيهاً لخوفي...؟ إنني إذا طالبتهم بثمر ما
أخذوه سيقولون «راس الشهر». ومتى يكون رأس الشهر هذا...؟! ان من
عادتهم أن يأخذوا ولا يدفعوا... وأنا كما تعرفني رجل فقير. فإذا أردت
ألا يسلب مالي، أتوسل إليك أن تشغل هذا الحارس بالحديث حتى
أنجو... والله يجزيك عني خيراً... وقد أذعن السيد «محسن» لتوسل الحاج
«ركان» فشغل الحارس الذي أقامه «عثمان» بك بالحديث حتى هرب الحاج
«ركان» وابتلعه الظلام.

وبينما كان السيد «عجيل» لا يزال يهز رأسه مستربياً في القصة التي
رواها له ابنه، سمع أول طلقة بددت السكون من حوله. وتبعتها طلقات
أخرى، هرع على أثرها سكان قريته وتجمعوا من حوله. ثم توقف الدوي
وخيم السكون من بعيد على الهور مرة أخرى. وأرهف السيد «عجيل»
وجماسته آذانهم مصغين السمع إلى أصوات قد تدل على ما صار إليهم أمر
جيرانهم «بيت حاتم» فقد كانوا يعرفونهم شجعاناً ولن يسلموا رجلهم دون
كفاح مستميت، إلا أن صوتاً واحداً لم يصل إلى آذانهم. فلم يسمعوا نداءً
أو صراخاً قد يدلهم على ما صار إليه أمر المعركة، كما لم يأت إليهم
مشحوف بالأخبار. ثم بدا من جهة الغرب شعاع أحمر، بدأ ضعيفاً ثم أخذ
يعلو ويتسع، فعرف أن عثمان بك قد أشعل النار في قرية «بيت حاتم»
وقال، - إن الحكومة لا بد أن ستكافئ «عثمان» بك على خطته الحكيمة
التي أدت إلى الاقتصاص من أعدائها.

وأخيراً مرق من بين حائط القصب الأخضر المواجه لأم الكوسج

شبح القارب الرشيق الأسود، يسرع به رجالان من الشرطة، وفيه كان عثمان بك. وقبل أن يصل القارب إلى الشاطئ، لم يستطع السيد عجبل أن يمسك نفسه فصاح - ما الأخبار...؟ ولكن الصمت كان جوابه.

وعندما وصل القارب إلى الشاطئ بدأ وجه عثمان بك أيضاً شاحباً. فأسرع السيد وبعض رجاله لمساعدته على النزول إلى الشاطئ وهو يقول، - رفقاً.. رفقاً.. «على كيفكم».. ونبين أنه مصاب في رجليه ورأوا أنها معصوبة بعصابة كبيرة.

وقاده السيد إلى منزله ولكنه فضل الجلوس أمام المدخل. فأنوا به بحصير ووسائد ووضعوا له واحدة منها تحت رجله لتستند عليها.

وبدأ عثمان بك حديثه بقوله، - الله يقطع مصارينهم.. لقد عرفو بقدومنا.. إي بالله.. لقد أتعبت نفسي كثيراً في هذه المسألة.. ولكن كل تعبى ضاع.. بالله أنا حظي سيء.. إي بالقرآن.. تصور، إني الوحيد الذي جرح من بين جميع أفراد القوة التي معي..!! وتصور انهم هربوا جميعهم بالرغم من كل الجهود التي بذلناها والاحتياطات التي اتخذتها..!!

وبعد أن صمت لحظة استأنف حديثه قائلاً، - كان القصب كثيفاً وكنا على وشك أن نصل إلى مدخل الجدول الوحيد الذي لا يمكنهم الهرب إلا عن طريقه، عندما رأيناهم يخرجون منه. فأسرعنا نحوهم نطلق عليهم النار، ولكنهم لم يأبهوا..! ووزعت القوة لتقوم بالحصار حول الاتجاه الذي سلكوه، ولكنهم كانوا، على ما يبدو، قد ابتعدوا وراء الحصار وأفلتوا.. لقد تمكنا، حقاً، من أسر مشحوفين ولكنهما كانا مشحونين بالنساء. ورغم الضرب والتهديد، لم نستطع أن نعرف منهن سوى أن جميع الرجال قد هربوا ومعهم كل ما يملكونه..! أما إلى أين ذهبوا فقد أنكرن بإصرار وقلن إنهن لا يعرفن شيئاً عن وجهة رجالهن..!

وبينما كان عثمان بك يتحدث، رأينا مشحوقاً يدفعه رجلان من رجال الشيخ مقبلاً نحو الايشان. فقفز من مكانه واندفع إلى الشاطئ نحو، لعل جديداً قد حدث.

ولما رآه الرجلان قالوا، - لقد وجدنا رجلاً من بيت حكيم وأتينا إليكم بجثته... فقال، - أين وجدتموه...؟ فأجابا، - في المكان الذي واجهناهم فيه أول مرة... وتساءل عثمان بك بمرارة، ألم تعثروا على أحد حي...؟! فأجابا، - إنهم لا يزالون يبحثون.

ومن بين أهل القرية الذين تجمعوا حول المشحوف، انبعث صراخ امرأة تبكي وتعدد، - يا يما... يا يما... يا مسكين... يا... .

قاطعها السيد عجيل بصوت غضوب يأمرها بالسكوت. فسأله عثمان بك شاكاً، - أهو من عشيرتكم...؟! فأجاب السيد، - لا... فأعاد سؤاله بإصرار، - إنكم تعرفونه...؟! فأجاب السيد، نعم... كلنا نعرفه... إنه الحاج ركان... إنه تاجر متجول، وقد جاءنا أمس ليتاجر معنا. ثم هرب في الليل مدعياً الخوف من أن ينهب الرجال بضاعته...

وسأل عثمان بك، - لماذا ذهب إلى هناك...؟! قل لي... ماذا يكونون له؟

ولم يستطع السيد عجيل إلا أن يقول الصدق فأجاب، - ان بيت حاتم من دمه...!

وتلا ذلك صمت قطعه عثمان بك بأن تقدم وهو يعرج نحو الجثة الملقاة في بطن المشحوف وأخذ يحدق فيها... ثم أخذ يدمدم بصوت لين هادئ... إنه إذن هذا الرجل العجوز هو الذي حذر بيت حاتم... وهو الذي أدى بالخطوة العميقة التي دبرتها إلى الفشل، وحرمني الفوز من جائزة كان من المحتمل أن أنالها. هذا الجسد الواهن البالي ذو العيون الدامعة من التحديث في ضوء الشمس قد حمل في داخله روحاً لم تتردد في تحمل

المسؤولية حتى ولو كان الثمن فقدان الحياة نفسها... إنه نداء العصية
القلبية...! ثم ختم دمدته بقوله، - إن الحجر الذي لا يلاحظه الإنسان
هو الذي يصيب رأسه.

وعندئذ قال السيد، - لقد نجا أقرباؤه فليهنؤوا بنجاتهم. ثم هو
فلندع الله سبحانه وتعالى أن يرحمه. فأمن عثمان بك بقوله. نعم... ثم
يرحمه.

الفهرس

٥	ملاحظة المؤلفين
٧	مقدمة المؤلفين
٩	مقدمة المترجمين
٣٥	الفصل الأول: التاجر المتجول
٤٥	الفصل الثاني: رحلة في الهور
٦٩	الفصل الثالث: الحج
٨١	الفصل الرابع: علي الشرقي
٩٧	الفصل الخامس: المصب
١٠٧	الفصل السادس: حصن الكسارة
١١٩	الفصل السابع: مجيء الإنكليز
١٣٣	الفصل الثامن: راية العباس
١٤٧	الفصل التاسع: تغلب الروية

١٦٣	الفصل العاشر: عبء الشيخ
١٧٩	الفصل الحادي عشر: غالب في المنفى
١٩٩	الفصل الثاني عشر: السلاسل
٢١٩	الفصل الثالث عشر: حرق بيت حاتم

